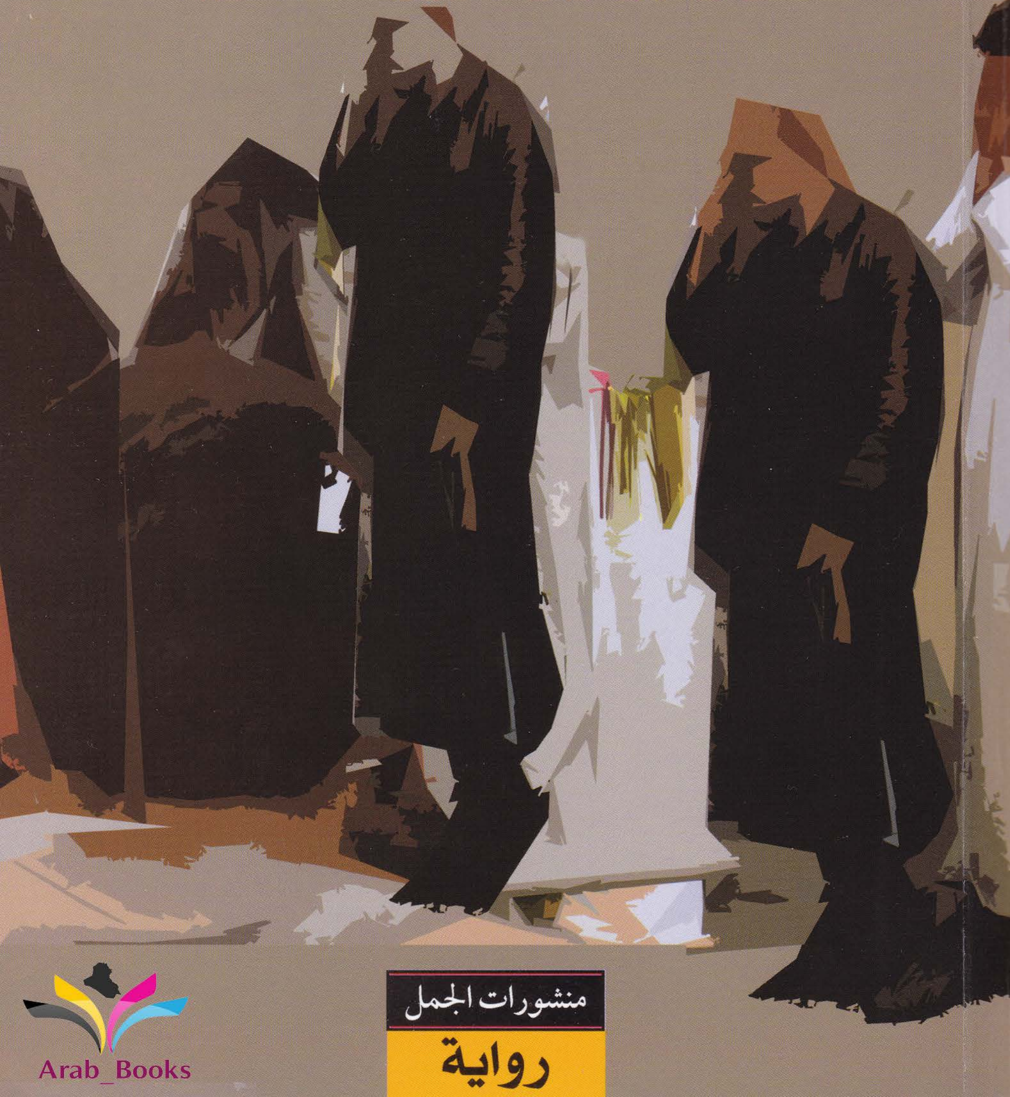
ضياء جبيلي

المشطور

ستّ طرائق غير شرعية لاجتياز الحدود نحو بغداد



منشورات الجمل

رواية

ضياء جبيلي: المشطور

ضياء جبيلي

المشطور

ستّ طرائق غير شرعية لاجتياز الحدود نحو بغداد

رواية

منشورات الجمل

ضياء جبيلي، روائي وقاص عراقي، تولد البصرة ١٩٧٧. حائز على جائزة دبي في الرواية ٢٠٠٧، وجائزة الطيب صالح في القصة القصيرة ٢٠١٧. صدر له: **لعنة ماركيز**، رواية، ٢٠٠٧؛ **وجه فنسنت القبيح**، رواية، ٢٠٠٩؛ **بوغيز العجيب**، رواية، ٢٠١١؛ **تذكار الجنرال مود**، رواية، ٢٠١٤؛ **أسد البصرة**، رواية، ٢٠١٦؛ **حديقة الأرامل**، قصص، ٢٠١٧.

ضياء جبيلي: المشطور، رواية
الطبعة الأولى ٢٠١٧

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى إنعام وأحمد ورضا.

لقد قاومتْ بشدة ألياف ترّالبا، وها هو ذا الآن حيّ ومشطور إلى نصفين.

الفيسكونت المشطور / ايتالو كالفينو

استنشق يا صديقي داردیلو، استنشق هذه التفاهة المحيطة بنا، فهي مفتاح الحكمة، وهي مفتاح روح الدعابة.

حفلة التفاهة / ميلان كونديرا

الفصل الأول

الحدود العراقية السورية

(١)

لا أعرف إن كان قاتلي الشيشاني قد قرأ الفيسكونت المشطور من قبل. أردت أن أسأله، لكني عجزت أن أفعل ذلك، فقد كنت ميتاً في تلك الأثناء، عندما كان ذلك القاتل يشطر جسدي بالطول، إلى نصفين متساويين، مستخدماً لهذا الغرض منشاراً كهربائياً لقطع الأشجار.

كانت الريح تلولب نفسها في دوامات تثير التراب نحو السماء الرمادية، لتشكل في النهاية سقفاً من الغبار يخيم على تلك البقعة الحدودية، فتبدو في حينها كأنها مشهد من المشاهد المتخيلة لما بعد حرب نهاية العالم.

بعد أن تمت عملية الشطر، توضأ قاتلي الشيشاني، وصلى الظهر. ثم دُعي من قبل زميله الأفغاني إلى الغداء.

كنت أسمعهما يتجادلان بشأني.

تساءل الأفغاني عن كيفية التمييز بين شطري السني وشطري الشيعي.

قال الشيشاني أن الشطر الأيسر هو السني. فلم يوافقه الأفغاني، وبرر رفضه بداعي أن أصحاب الشمال من أهل النار، كما ورد في القرآن. فاعترض الشيشاني قائلاً:

«وماذا سنقول لإخواننا المجاهدين؟ جئناكم بيمين من دون قلب؟»

«أنظروا من يتحدث بالقلوب!» قال الأفغاني ساخراً: «وماذا قال لك قلبك وأنت تشطر هذا الرجل إلى نصفين؟»

امتعض الشيشاني، وكاد أن ينتف شعر لحيته الصفراء. قال:

أنت قلت لي أن أفعل ذلك»

«حقاً!» انبرى الأفغاني متهكماً: «وهل كنت ستقتل نفسك لو أني قلت لك؟»

«نعم أفعل» أجابه الشيشاني متحدياً.

«إذن» صاح الأفغاني مراهناً: «أرني ذلك إن كنت رجلاً»

وفعلاً، تناول الشيشاني البندقية وألقفها طلقة.

كانا يجلسان متقابلين على الأرض، يستظلان تحت شجيرة برية، وقد وضع كل واحد منهما بندقيته إلى جانبه، وثمة إناء فيه كمأ مطهو، وخبز وعبوتا ماء. وكان الشيشاني بوجه أصهب، منمّش، ولحية صفراء طويلة، لكنه من دون شارب. يرتدي قميصاً أسود وبنطالاً عسكرياً مبقعاً، ويعتمر طاقية إسلامية سوداء تغطي أذنيه، في حين كان الأفغاني ذو اللحية التي تغطي كامل وجهه باستثناء أنفه وعينيه، يرتدي زياً قندهارياً ويضع على رأسه قبعة بشتونية. وكان الاثنان يحملان ملامح سكان البيئات الجبلية القاسية، ملامح متشنجة، متجهمة، ومتوعدة، كما لو أن أصحابها على وشك الدخول في قتالٍ دامٍ، ويبدوان كذلك حتى وهما يتكلمان بشكل طبيعي.

حين انتهت المحاورة الجهادية بقتل الشيشاني رفيقه الأفغاني، وهروب الأول بسيارة الدفع الرباعي، نهض نصفاي العزيزان، بعد أن ساعد أحدهما الآخر. وعندما جربا أن يخطوا خطوتهما الأولى بعد عملية الشطر الفظيعة، راحا يتخبطا في مكانهما، إلى أن وقعا أرضاً

مرتطمين ببعضهما. كانت الدماء ما تزال تسيل من جرحيهما، خشيا أن تندلق أحشاءهما ويُفرغا من أعضائهما، لكنهما وجدا أنها كانت متماسكة، كما لو أنها أُلصقت بغراء. كان بإمكانهما سماع القلب وهو يخفق بسرعة، كطبل أفريقي، والمعدة كقدرٍ تغلي فيه آخر وجبة طعام تناولتها قبل أن يمسكني الإرهابيان. وكانت الأوردة ترقص كرؤوس الأفاعي، كأنها تريد أن تنسل من أماكنها لتقاتل بعضها، في منظر يبعث على الإغماء، لكنها هدأت بمرور الوقت، وسكن كل شيء تقريباً، ما عدا الدم الذي صار ينضح على نحو أخفّ. كانا يتوقعان أن يموتا بعد فترة وجيزة، فحالتهما الغريبة هذه لا تختلف عن حالات أخرى مشابهة تتحدى الخيال وتتغلب عليه أحياناً، كحالة الجندي العراقي الذي اقتلعت رأسه قنبلة إيرانية في حرب الثمانينات واستمر بالمشي على قدميه مسافة وإنْ تكن قصيرة، لكنها طويلة وخارقة للعادة بالنسبة لشخص أصبح فجأة، وفي أقل من ثانية، من دون رأس.

حاولا مرة أخرى. نهضا بصعوبة وغادرا المكان وهما يحجلان كغراب معاق، بعد أن التقطا محفظتي، وجمعا محتويات حقيبتي التي بعثرها المقاتل الأفغاني، وحملاها معهما، وبديا أثناء ذلك كما لو أنهما سكّيران تشاجرا في حانة، وها هما الآن يجمعان اشياءهما المبعثرة أثناء العراك، وينصرفان مترنحين، يستند أحدهما على الآخر.

ودار بينهما الحوار التالي:

النصف الأيمن: «ماذا كان اسم كاتب الفيسكونت المشطور؟»

النصف الأيسر: «كالفينو»

«حقاً؟»

«نعم.. إيتالو كالفينو على ما أظن»

«هل هو إرهابي؟»

«لا.. لماذا تقول ذلك؟»

«ألم يشطر الفيسكونت؟»

«نعم، لكنه عاد وألصقهما فيما بعد»

«ونحن.. من يلصقنا؟»

«لا أعرف»

فجأة، توقف النصف الأيمن. وأجبر النصف الأيسر على التوقف هو الآخر، بما أن أحدهما يسند الآخر.

«لماذا توقفت؟» سأل النصف الأيسر صاحبه بنفاد صبر.

«أقف» متذمراً قال النصف الأيمن: «ماذا نفعل بدون كالفينو؟»

ثم واصلا مسيرهما المضني.

«هل قرأت ج.م. كويتزي من قبل؟» قال النصف الأيسر وهو ينقر رأسه بسبابته: «بانتظار البرابرة؟»

«لا..» أجابه النصف الأيمن: «قسطنطين كافافي»

(٢)

قبل أن يفكر قاتلي بشطري إلى نصفين سألني:

«هل أنت سني؟»

«لا» أجبته.

صرخ الآخر الأفغاني وتطاير رذاذ لعابه على وجهي:

«إذن أنت شيعي؟»

«أيضاً أجبته بـ«لا»

«إذن.. ما أنت؟» سألني الشيشاني بينما هو يمضغ عود مسواك: «لا تقل إنك شيوعي!»

«ولا حتى هذا» أجبته: «أنا عراقي»

ضحك الاثنان. ضحكا على نحو خلت أنهما سينفجران مثل بالوني خراء في وجهي. جثا الأفغاني على ركبتيه، مقوساً قامته، وهو يقهقه ويضرب جبينه براحة يده، والآخر الشيشاني استلقى وراح يرفس بقدميه كحمار يحك ظهره بالأرض، حتى أني سمعت صوت ضرطة.

ما الذي دهى هذين التيسين يا ترى؟ تساءلت في سري. ما الذي يضحكهما إلى هذا الحد المقيت؟ لماذا يبدوان سفيهين هكذا في الوقت

الذي من المفترض أنهما مقبلان على نحري؟ هل حقاً يضحكان لكوني عراقي؟ أم ماذا في الأمر، فأنا لا أفهم.

«اسمع يا رجل» قال أحدهما بعد أن ضربني على رأسي بعقب بندقيته الكلاشنكوف: «لا تبع وطنياتك علينا، فلا توافقية في الإسلام!»

«أما هذه الترهات» قال الآخر بنبرة لا تختلف عن نبرة صاحبه. تلك النبرة المتوحشة، المهددة، والمتوعدة على الدوام: «أما هذه الترهات فانقعها يا صغيري واشرب ماءها، ولا تكن بغلاً.. فهمت؟»

«والآن» انبرى الشيشاني بعد أن ألقف بندقيته طلقة ووجّه فوهتها نحو رأسي: «قل لنا، هل أنت شيعي أم سني؟ وإياك أن تتغابى»

لكنني تغابيت، وأصررت على قولي وكررته مراراً:

«أنا... عراقي!»

«بطاقتك» مد الشيشاني يده صارخاً بلهجة آمرة: «هات بطاقتك الشخصية!»

لو كان هذا الشيشاني عراقياً لقال اعطني هويتك بدلاً من بطاقتك الشخصية. فالعراقيون، كحال البعض في الدول الشرق أوسطية، لا يسمون الشيء الذي طلبه الشيشاني بطاقة شخصية، أو تعريفية، أو وطنية، أو بطاقة تحقيق، أو بطاقة أحوال مدنية، رغم أنها فعلاً كذلك ومكتوب عليها: البطاقة الشخصية، وليس ثمة وجود لمفردة «هوية» فيها، إلا إننا ما زلنا مصرين على أنها هوية، وهكذا يسميها الجميع، من رئيس الجمهورية حتى الزبال.

لم أعطها له، الأمر الذي استثار غضبه فلطمني على وجهي.

كنت ما أزال على وضعي السابق منذ أن أجبرني هذان الإرهابيان العابثان على أن أجثو وأضع يديّ متشابكتين خلف رأسي. اقترب

الأفغاني وألصق فوهة بندقيته فوق أذني اليمنى، فيما راح الشيشاني يفتش في جيوبي حتى عثر على «هويتي» في المحفظة الجلدية التي وجدها في الجيب الخلفي من بنطالي، حيث اعتدت أن أضعها هناك، كما يفعل أغلب العراقيين.

وطلب الشيشاني لبطاقة «هويتي» ذكرني بالمرات الكثيرة التي يحدث فيها أن يطلب أحد أفراد الانضباط العسكري من ركاب الحافلات عند توقفها في نقاط التفتيش المنتشرة على طول البلاد وعرضها، إبراز «هوياتهم» فيخرج البعض تلك «الهويات» من الجيوب الخلفية لبناطيلهم، في حين يخرجها كبار السن من الجبوب الداخلية التي تقع في جهة اليسار من ستراتهم. وكأننا، في الحالة الأولى، لم نكن نعبأ بـ «هويتنا» التي هي أكبر من كونها بطاقة، فنعمد إلى حشرها في ذلك المكان، فكلما سألنا أحد «أين هويتك» نتلمس مؤخراتنا. لكننا ما أن نتقدم في السن، ونكون بليدين وتنابلة متقاعدين، حتى نبدأ بدسّ تلك «الهوية» في جيوب ستراتنا، نفعل ذلك برفق، ونضع أيدينا عليها حين نفتقدها، فيبدو الواحد منا في ذلك الحين كمن يوجعه قلبه. وكأن الأرض سترفض جثاميننا إن لم نحافظ على «هويتنا» بهذه الطريقة التي تجعلها أقرب إلى القلب.

بعد أن عثر الشيشاني على «هويتي» سلبني حقيبتي التي كنت أعلقها على كتفي أيضاً، وأعطاها إلى الأفغاني الذي تناولها بفوهة بندقيته وقرفص على مقربة مني وراح يخرج محتوياتها، ويعلق عليها، قبل أن يرميها خلفه على نحو عبثي درامي وكاريكاتوري، باستثناء النظارات التي وضعها على عينيه، وسيجارة أستلها من علبة حمراء ماركة مارلبورو ووضعها بين شفتيه الغليظتين، وزجاجة ويسكي دسها في جيب بنطاله الجانبي على غفلة من صاحبه الشيشاني.

«قميص» يشمه ويبصق جانباً: «ما هذه الرائحة يا رجل؟»

«عطر!» يرش ابطيه: «ذوق سيء»

«معجون أسنان» يتذوقه ويبصق أيضاً: «نعناع»

«فرشاة أحذية» يمسح بسطاله المغبر: «لا احتاجها»

«مشط» يمشط لحيته ويضعه في جيبه.

«شفرة حلاقة» يمررها على نحره محاكياً عملية الذبح: «الله أكبر!»

«مفكرة» يفتحها ويقرأ شيئاً منها: «هراء!»

«كتاب!» يفتحه ويتصفحه: «بدر شاكر السياب؟ هل هو شاعر؟»

سألني فأومأت له بالإيجاب، فقال:

«الشعراء يتبعهم الغاوون!»

«ملحمة كَلكَامش؟» يتصفحها وهو يهرش إبطه بأظفار أصابعه ويشمها: «خرافات!»

«قانون حمورابي؟» يقلب صفحات الكراس: «بدعة وظلال!»

«صنم؟!» يتفحص التمثال الذي يحاكي تمثال الملك كوديا السومري: «رجس من عمل الشيطان!»

«تاريخ العراق؟» يشم الكتاب فيتجهم وجهه: «خراء في خراء!»

«صور» يقلب ألبوم الصور خاصتي وينظر إليّ بريبة: «هذا أنت؟»

في تلك الأثناء، كان الشيشاني يتهجى المعلومات الشخصية في «هويتي» بصعوبة. لم يكن اسمي ذو صبغة مذهبية تدل على انتمائي إلى إحدى الطائفتين. كما أن «هوياتنا» لا تحتوي على إشارة، وإن تكن صغيرة إلى مذهب حامليها. لكنها، ولعل ذلك من أكثر الأخطاء في تاريخ الأحوال الشخصية التي ارتكبت بحق العراقيين من غير

المسلمين، تحتوي على ديانة الشخص. وعلى الرغم من أن مفردة «مسلم» ملأت فراغ الديانة بحروفها البارزة والواضحة، إلا أن ذلك لم يشفع لي عند هذين المقاتلين اللذين يدعيان الدفاع المقدس عن الإسلام، ففي النهاية لا بد أن تكون إما سنياً أو شيعياً.

(٣)

استعر الغضب في رأس الشيشاني حتى كاد يحرق شعره. ولا أعرف إن خيّل لي ذلك أم أنه حدث حقاً: تصاعد الدخان من رأسه وهو ينتزع الغلاف البلاستيكي من «الهوية» ويمزّقها، يجزأها إلى ثلاث قطع بالعرض ويقذفها في وجهي مع بصقة ساخنة علقت برموش عيني اليسرى:

«كلب، أجرب، زنديق، تفوووو!»

تقدم نحوي ليضربني، فكان لوقع أقدامه جلبة كأنها آتية من فوقي وليس من أمامي، مرعبة وتنذر بالشر. كان يفحّ كأفعى مجنونة، تحكها لثاها وتريد أن تغرز نابيها في لحمي وتستمني سمّها في دمي لتهدأ. جاء صوت الأفغاني فجأة. كان ما يزال يفرغ حقيبتي من محتوياتها ويعلّق على كل غرض منها. صاح بدهشة:

«هاتف نقّال!»

فخطرت للشيشاني فكرة اكتشفتها على الفور. سيتصوّران معي!

كانا سيفعلان ذلك قبل أن يقتلاني، إلا أن مشكلة طرأت في حينها وعرقلتهما: الرقم السري! وبما أني كبقية الأزواج العراقيين ممن يكوّنون علاقات خارج إطار الزواج، فقد جعلت رقماً سرياً لهاتفي

النقال لن يصل إليه أحد بما فيهم الشيطان. وبما أني ميت لا محالة، لن أعطيهم هذا الرقم. هكذا قررت. وهذا ما فهماه هما في النهاية بعد مماطلة دامت لأكثر من نصف ساعة. ولأول مرة في حياتي، أكون عنيداً مثل حمار، عنيد بما يكفي لأن أسلم نفسي للموت من دون أن أفكر بإعطائهما الرقم السري. فليموتا بغيضهما.

لا أعلم بعدها كم مرة تلقيت الضربات من عقب بندقية الشيشاني، على رأسي، على صدري، على ظهري، كتفي، بطني، جبيني. في حين كان الأفغاني يرفسني ببسطاله الثقيل، ويركز ضرباته على وسطي، وتحديداً على خصيتيّ، وكأنه عزم أمره على إخصائي. تنحى بعدها جانباً، وراح يحاول جاهداً فك الرمز الذي وضعته قفلاً للهاتف. لكن ثمة ما ألهاه، وجعل شفتيه ترفّان مثل ردفي حصان أضناهما لسع الذباب. وعلى ما يبدو أنها مونيكا بيلوتشي، نجمتي المفضلة، هي من ألهته، إذ سبق وأن وضعت صورتها شبه العارية كخلفية على شاشة الهاتف الذكي. وفجأة، بينما هو ينطط عينيه واللعاب يسيل من طرفي فمه مثل كلب سلوقي محروم ومكبوت جنسياً، جحظ الأفغاني بعينيه وحدجني بمكر، حتى أنه غمزني بطرفه مثل عاهرة عجوز متكئة على عمود إنارة في شارع خلفي. فعلمت في حينها أن سحر بيلوتشي انتهى في اللحظة التي وشى بي الهاتف اللعين الذي رفض بصمة وجه الأفغاني، لكنه في الوقت نفسه كشفني، وسلّمني إلى المزيد من العذاب. مرت دقيقة أو دقيقتان انهمك خلالها الإرهابيان في تعديل هندامهما وتمشيط لحيتهما استعداداً لالتقاط صورة معي، يعلم الله إلى من سيرسلانها فيما بعد، ربما إلى زوجتي، أو أمي أو أبي أو أحد أخوتي أو اصدقائي، أو ربما إلى إحدى القنوات الفضائية لتعرضها على شاشتها تحت عنوان عريض: الضحية قبل القتل!

أعاداني إلى الوضع المُذلّ، المهين، الذي يحبذان أن أكون عليه دائماً، جاثياً على ركبتيّ. الأفغاني وقف إلى يميني، والشيشاني إلى يساري. أسندا أيديهما على ركبتيهما وانحنيا. قرّب الأفغاني الهاتف من وجهي وانتظر أن يُفتح القفل ويلتقط الصورة. أعاد المحاولة مرات عديدة، لكن.. لا فائدة، فلن يُفتح. كنت أعرف السبب، لكني لم أخبرهما حتى اكتشفا ذلك بنفسيهما: إنها الدماء. الدماء التي غطّت وجهي بالكامل هي من عرقلت عملية فك الرمز. لكنهما لم ييأسا، إنما شرعا بغسل وجهي وأزالا قناع الدم الكثيف عنه، وعادا ليجربا ثانية، لكن من دون جدوى أيضاً. والسبب هذه المرة هو أنهما لم يتركا مسامة في وجهي من دون أن يشوّهانها. كسرا أنفي الملعونان. شقّا شفتيَّ. هشّما أسناني. شجّا جبيني وبضّعا ما تحت عينيّ. لهذا، وللمرة الثانية لم يتعرف عليّ هاتفي النقال.

إلى هذا الحد، كفّ الاثنان عن محاولاتهما الفاشلة، واتفقا على التخلص مني.

في حينها، آثرت الموت على تحمل المزيد من هذا التعذيب المهين. حتى لو قلت لهم أني من هذه الطائفة أو تلك فلن يتركوني. فإذا قلت لهم أني شيعي سيقتلونني فوراً، وإذا قلت لهم أني سنّي سيرددون «دولة الإسلام باقية» ثم ينتظرون مني إكمال العبارة بـ«تتمدد» لتكتمل البيعة، ولن يكتفوا بذلك، إنما سيطلبون مني إثباتات لن أقدر على الاتيان بها، لأنهما ببساطة ليسا عراقيين. إذا قلت لهم أني شيعي سأبدو مثل سنّي يكذب، وإذا قلت لهم أني سنّي سأبدو مثل شيعي يكذب.

هكذا صرت انتظر رصاصة الرحمة التي لا بد أن يثقب أحدهما رأسي بها في النهاية. وكان الشيشاني على وشك أن يطلقها لولا أن

صوتاً انبعث على نحو فجائي من مكان ما ليس بعيداً، وأوقف تنفيذ الإعدام مؤقتاً.

موطنـــي... موطنـــي!

«ما هذا الهراء؟!» كما لو أن أحداً غرز خازوقاً في دبره، صاح الشيشاني: «من أين يأتي هذا الصوت؟»

الجلال والجمال والسناء والبهاء...

«أوقف هذا البراز!» نهق الشيشاني مجدداً، فأخرج الأفغاني هاتفي النقال من جيبه وأسكت الصوت. حسنٌ أنه لم يرد على المكالمة، فربما تكون تلك أمي، أو زوجتي، أو أحد أفراد أسرتي. لا أعرف. ولم يعد مهماً أن أعرف. كما لم يعد مهماً أن أعرف الطريقة التي سأُقتل بها، أو نوع الآلة التي سينفذون بها خطة الإعدام التي قرر الاثنان تغييرها فجأة، وكأنهما ضجرا من اجترار الطريقة نفسها في القتل، فاخترعا طريقة جديدة لم تخطر على بال أحد من قبل سوى كالفينو.

«حسناً» سمعت الأفغاني يقول بصوته الأخنْ: «سنعرف إلى أي الطائفتين تنتمي أيها العجل، لكن بطريقتنا.. انتظر»

اتجه بعد ذلك إلى سيارة الدفع الرباعي التي طارداني بها حتى أمسكا بي، ثم عاد جالباً معه منشاراً كهربائياً سلّمه إلى رفيقه الشيشاني، بعد أن همس في أذنه شيئاً اتضح فيما بعد أنها الطريقة التي اختاراها للتخلص مني. تقدم بعدها نحوي، قلبني على بطني ومدد رجليّ وأسبل يديّ إلى جنبيّ، في حين أخذ الشيشاني على عاتقه المهمة الأكبر، وهي شطري إلى نصفين بواسطة تلك الآلة القاطعة.

موطنـــي.. موطنـــي..

رن الهاتف ثانية.

«اللعنة على موطنك!» كاد الشيشاني أن يفقد عقله وهو يسمع تلك النغمة مجدداً.

والحياة والنجاة والهناء والرجاء

«أسكت الهاتف اللعين وإلا....» اهتاج الشيشاني مثل ثور في بركة طين، وهو يتوعد الأفغاني الذي عكّر وجهه قائلاً:

«وإلا ماذا يا أبرص؟!»

«لا شيء» رد الشيشاني وقد خفف من هياجه البهيمي المتوحش: «أسكت الهاتف اللعين فحسب، إنه يربكني!»

فعل الأفغاني ذلك، ووقف يراقب عن قرب رفيقه الشيشاني الذي فقد كل رحمة مرجوة على هذه الأرض، وهو يشطرني إلى نصفين. كان قد بدأ من رأسي، نزولاً عبر ظهري وعلى طول عمودي الفقري، وانتهاء إلى وسطي، أي ما بين فخذيّ. وبما أنه بدأ من رأسي، لم أشعر بأسنان المنشار وهو تمضي في لحمي وعظمي وتحيلني إلى جثة مشطورة ومجهولة «الهوية»

موطنـــــي.. موطني!

رن الهاتف للمرة الثالثة.

«أقول لك شيء؟» توجه الشيشاني الذي سبح بدمي إلى رفيقه الأفغاني بعد أن أنجز المهمة وألقى المنشار جانباً: «أخرج هذا الخراء من جيبك»

فعل الأفغاني ذلك على مضض، وأخرج الهاتف النقال الذي ما زال يصدح بالنشـ..ـد الوطني:

هل أراااااك.. هل أراك

«إرمه» أمر الشيشاني صاحبه بلهجة غاضبة تشبه النباح بينما هو يسحب نابض الإرجاع في بندقيته: «إرمه قلت لك»

«حسناً.. حسناً» ردد الأفغاني ممتعضاً: «ليس هناك من داع للصراخ»

«إرمه في الهواء» طلب منه الشيشاني مجدداً، لكن بنبرة متوسلة هذه المرة: «عالياً.. عالياً!»

حينئذ، ألقى الأفغاني نظرة أخيرة على صورة بيلوتشي الفاتنة، ورمى هاتفي الذكي الذي ما زال يردد:

هل أرااااك.. في علاااك.. تبلغ الـ......!

في هذه اللحظة، انهال الشيشاني عليه بوابل من الرصاص حتى أصابه، وتهشّم إلى قطع، وتلاشى صوت النشيد، وتكسرت كلمات إبراهيم طوقان، وتبعثرت الحان محمد فليفل، ولم أعد أنا أنا، ولم يعد الوطن هو نفسه.

(٤)

ما زال نصفاي العزيزان، يسند أحدهما الآخر، بينما هما يمشيان إلى حيث لا يعلمان، لكنهما صارا يعرفان الآن أنهما اجتازا الحدود وأصبحا داخل الأراضي العراقية الغربية، وتحديداً في صحراء الرمادي. الأحرى أنهما لم يكونا يمشيان، إنما يقفزان. هذا يقفز خطوة فيتبعه الآخر بخطوة، كما لو أنهما عصفور نسي كيف ينط. وهكذا، حتى وصلا إلى مكان كان عدد من سكان البادية على وشك مغادرته، بعد أن قضوا يومهم في جمع الكمأ الذي كان في نهاية موسمه في تلك الأنحاء. اقتربا منهم ليسألا عن الطريق إلى بغداد، لكنهما أنهارا مع أول كلمة نطقاها. المسكينان نزفا دماً كثيراً، فأغمي عليهما من الإرهاق والتعب، ويبدو أن جرحيهما بدءا بالتورم ما دام أنهما لم يموتا، وسوف لن تمضي فترة طويلة على هذا حتى يبدأ التقيّح ثم التعفن، وربما يتسممان ويهلكان.

لما رأى البدو ذلك، أسرعوا إلى نجدتهما. حملوهما إلى ديارهم. أسكنوهما في بيت من بيوت الشَّعَر، وجلبوا لهما حكيماً عارفاً بأمور الطب والجراحة، ويُعالج بالأعشاب والأمصال التي يستخرج مادتها من الحيوانات والزواحف. فبدأ بتطبيبهما فوراً، واستخدم لأجل ذلك كل قدراته وما بحوزته من علاجات. وكان نسيج العنكبوت هو أول ما

استعمله لإيقاف النزيف. ولتعزيز المناعة، قام بذر مسحوق دماء التماسيح المجففة على جرحيهما، ثم دهنهما بزيتها لكي يلتئما، فضلاً عن رشهما ببول البعير اللاذع. وللوقاية من التعفّن والإنتانات والروائح الكريهة، استخدم خليطاً من عصير البصل والعسل وزيت الزيتون. كان يخلط عصير القراص مع البصل ويضيف إليه الماء، ويمزج زيت المرّ بزيت عباد الشمس أو يخلط مطحون العنزروت مع بياض البيض، وعصير الثوم مع الكحول والماء ليصنع منها مراهم لدهن وغسل جرحي النصفين. وللقروح التي كانت تملأ وجهيهما استعمل جيلاتين جلد الحيوانات، وخلاصة الصبّار للبثور التي بدأت تنمو مثل الفطر على جسديهما.

ولتلافي المضاعفات والالتهابات التي يحتمل أن تصيبهما، استعمل الحكيم:

للكبد: عسل وماء فاتر، نقيع الينسون والحبة السوداء، كركم، كمون.

الأعصاب: زنجبيل، بابونج، نقيع ورق الصفصاف.

المرارة: كركم، هندباء، شبت.

كسل الأمعاء: زيت زيتون، أكليل الجبل، مريمية، زعتر بري.

العظام: حليب اللوز، ذنب الخيل، فول الصويا، بقدونس، أفوكادو.

الجلد: خل تفاح، زيت الخروع، كبريت.

الحمى: أوراق الجوافة، تمر هندي، مخلب القط.

الرأس: كزبرة، هيل، زنجبيل، كرفس، بابونج.

العضلات: قراص، زبيب، ذنب الخيل.

المعدة: مستكة، ثوم، كرنب، حلتيت.

ارتفاع ضغط الدم: قرفة، ريحان، عصير خل التمر والنعناع.

انخفاض ضغط الدم: بنجر، العرق سوس، جزر.

القلب: كبد الحوت، عسل.

الكلى: بقدونس، ماء شعير، فجل، بذور الكتان.

ولحالتهما النفسية: لسان الثور وبردقوش.

وبالمجمل، كان الحكيم البدوي في تلك الأثناء أشبه بشيف يحشو نصفي خروف ويضيف إليهما بهاراته قبل الطهو. وكان آخر ما فعله هو أن جاء بجلدتي ماعز ورقع الجرحين وخاطهما. وبذلك، تكون عملية التضميد قد تمت بنجاح. إلا أن النصفين لم يفيقا من اغمائهما لثلاثة أيام، حتى ظن منقذوهم من البدو أنهما ماتا، أو دخلا في غيبوبة. لكن، ما أن أشرقت شمس اليوم الرابع حتى فتحا عينيهما في اللحظة نفسها. أيقظهما صوت الصحراء، تلك الريح التي كأنها تأتي من مكان مأهول بالنساء النادبات المعولات.

لبث النصفان في ديار البدو الرحل ثلاثة أشهر، هي فترة نقاهتهما التي انتهت بتعافيهما، أو هذا ما كانا يظنانه وقررا في إثره المغادرة، رافضين بود عرض القبيلة البدوية عليهما البقاء والعمل كراعيين. فارتديا ثيابهما الجديدة، وهي نصفي قميص وبنطلون كانا في حقيبتي، قامت إحدى البدويات بقصه ورقعه من مكان الشطر في المنتصف، ليستأنفها بعدها رحلتهما المتعبة نحو بغداد، مستعينان بعصاتين من الخيزران. كانت السماء هي السماء رمادية وكئيبة، والعراء هو العراء قاحلا ويبعث على الشعور بالضياع. وصلا عند الظهيرة إلى مكان نبتت فيه، على نحو

شاذ، شجرة صفصاف كبيرة، فجلسا تحتها على صخرة ملساء. كانا متعبين، محبطين، وأقرب إلى أن يكونا مسخين بسبب التشوه الفظيع الذي أحدثه المنشار الكهربائي فيهما.

لقد أدركا أثناء ذلك أنهما لا يتذكران شيئاً من الشخص الذي كاناه قبل عملية الشطر.

لقد نسياني!

«ماذا نفعل الآن؟» سأل النصف الأيمن نصفه الأيسر: «فكر معي، احتاج أن تفكر معي، لا تنس أننا نحمل المخ نفسه»

«لكنه منقسم الآن!» قال النصف الأيسر.

«نعم أعرف» أردف النصف الأيمن: «لهذا لا أستطيع أن أفكر بنصف مخ»

عندئذ، أغمض كل واحد منهما عينه وبدءا التفكير.

وبينما هما على هذا الحال، خطرت في ذهن النصف الأيسر فكرة، هي أن يفتحا حقيبتي، لعلهما يعثران على حلٍّ لمعضلتهما.

«لا أظن أن ذلك سيكون أمراً حسناً» قال النصف الأيمن معارضاً الفكرة: «ليس هناك من أحد يحمل كاتالوج فيه طريقة تركيب نصفي جثته التي انشطرت!»

«ولم لا؟» تساءل النصف الأيسر.

«نحن لم نعد هو. ألا تدرك أننا كنا هو الذي انشطر إلى نصفين هما نحن؟ إنه ببساطة الضحية. هل تلاحظ ذلك؟ كيف تريد من ضحية أن تجد حلاً لنصفين منشطرين مثلنا؟»

«نعم صحيح» هز النصف الأيسر نصف الرأس الذي يحمله: «فهمتك يا صديقي. لكن، ماذا نفعل بالحقيبة؟»

«لا أعرف» رد النصف الأيمن بصوت حزين يائس: «ربما نحملها يوماً إلى أهله. وإلى ذلك الحين، يجب علينا ألا نفتحها. لا يفترض التطفل على أشياء الضحايا، حتى لو كانوا في يوم ما نحن»

«وجدتها!» صاح النصف الأيسر بعد دقائق، وقد فرقع بأصبعيه الوسطى والسبابة، وأصدر صوتاً استعاض به عن المصباح الذي من المفترض أنه يضيء في مثل هذه الحالات، دلالة على انبثاق فكرة أو حلّ والتماعهما في الذهن فجأة: «لماذا لا نلصق أنفسنا بأنفسنا؟»

«هل سينجح الأمر؟» سأل النصف الأيمن. كان مرتاباً.

«لا بأس من المحاولة، قال النصف الأيسر وهو يحك رأس صاحبه: «لن نخسر أكثر مما خسرناه»

«لكن، علينا أن نزيح هذه الجلود أولاً. وأخشى إن فعلنا ذلك أن تندلق أحشاءنا وتفوح روائحنا ويعود النزيف. أتخيل روح ذلك الحكيم البدوي وهي تُزهق بينما هو يضمدنا ويحشونا ويتبّلنا، لهذا أفضل ألا نغامر بذلك، تبدو النتيجة غير مضمونة.. هل تفهمني؟»

«نعم بالتأكيد أفهمك» رد النصف الأيسر بخيبة أمل واضحة.

ولكي يحد من احباط صاحبه، اقترح النصف الأيمن:

«لكننا سننام ملتصقين على أية حال. سنبيت ليلتنا هنا، ونرى في الغد إن كان الأمر سينجح»

تمدد النصفان على الأرض الرملية، واقتربا من بعضهما، حتى أطبق كل نصف على صاحبه. كانت الريح في تلك الأثناء تحاكي عواء ذئب منبوذ، وربما جريح مثلهما تطارده لعائن القطيع.

«ربما نحتاج إلى لاصق» قال النصف الأيمن مفاكهاً.

كان المساء في أوله، لكنهما كانا متعبين. فأغفيا وناما نوماً قلقاً. لم يعمد أحدهما إلى إزعاج الآخر، إلا أن أموراً حدثت وكانا مجبرين على تحملها. فمثلاً كان النصف الأيسر يهرش كتف الأيمن بأظفاره، أو يغرس النصف الأيمن سبابته في فتحة الأنف خاصة النصف الأيسر ليستخرج المخاط الجاف العالق فيها. قد يشخر أحدهما ويعكر نوم الآخر، أو يرغب هذا أن ينقلب على جنبه، مما يؤدي إلى انفصالهما، قبل أن ينتبه أحدهما فيعودان إلى التحامهما الهش المؤقت.

صباح اليوم التالي، حين استيقظ النصف الأيسر لم يجد نصفه الآخر إلى جانبه.

«لكن.. أين ذهب؟» تساءل بينما هو يلتفت يميناً ويساراً: «ما زال الوقت مبكراً»

نهض من مكانه بصعوبة، التفت وراءه، حيث شجرة الصفاف، فرأى هناك صاحبه جالس على الصخرة الملساء، وبدا كأنه يحاول تذكر شيء ما. راح يقفز باتجاهه حتى وصل إليه، رآه وقد أصبح أشد كآبة من الأمس. سأله:

«هل من خطب عزيزي؟»

«ألا تتذكر كيف التصق نصفا الفسكونت؟»

نقر النصف الأيسر بسبابته على رأسه عدة نقرات محاولاً التذكر، ثم قال بيأس بعد أن تأفف:

«للأسف.. لا أتذكر» ثم أتبع جوابه، بينما هو يهم بالجلوس إلى جانب صاحبه على الصخرة: «ربما علينا العثور على الرواية»

استحسن النصف الأيمن الفكرة، لكنه سرعان ما عاد إلى اللهجة المحبطة اليائسة نفسها بعد لحظات:

«وكيف يمكننا العثور على مكتبة وسط هذه الصحراء؟!»

«لا بد من نهاية يا صديقي، حتى الموت سيموت في النهاية» قال النصف الأيسر متفائلاً، ثم مدّ يده إلى نصفه الأيمن حاثاً إياه على النهوض: «هيا.. لا تكن متذمراً هكذا»

ونهض النصفان. عادا ليسند أحدهما الآخر بتعاضد أخوي كاريكاتوري لا تنقصه الحميمية. راحا ينطان في الصحراء على غير هدى. لم تكن هناك وجهة محددة أو هدف يسيران إليه. استمرا بالمضي فحسب، تقودهما قدمان متخبطتان هزيلتان بالكاد تتحملان ثقلهما.

(٥)

لا يعرف نصفاي التائهان كم من المسافة قطعا نحو المجهول، خلال الأيام الماضية.

ما زالا لا يتذكران مني سوى جنسيتي. وباستثناء عبارة «أنا عراقي» التي كنت أرددها على مسامع الإرهابيين، والتي بقيت تطنّ في شطري رأسي المنفصلين، ليس هناك ما هو قابل لأن يتذكرانه، كاسمي مثلاً، وعمري، مهنتي، الظرف الذي أوصلني إلى أيدي أولئك القتلة، عائلتي، زوجتي، أطفالي، أمي وأبي، أخوتي، اصدقائي. لم يعد نصفاي يتذكران أي شيء يتعلق بي، باستثناء أفكاري، قراءاتي، وما اكتسبته من ثقافة على مدى العشرين عاماً الماضية.

كانا جالسين على الأرض، بين النباتات البرية، بعد انقضاء النهار. وكان النصف الأيمن ساهماً بنظرته، يمضغ رشاد البرّ بطريقة عبثية مثل ماعز ثم يبصقه أمامه.

«ما بك؟» سأله النصف الأيسر.

«لا شيء...» أجابه النصف الآخر وهو يتلفت حوله: «أظن أننا تائهان!»

قررا المبيت في المكان الذي انتهيا إليه. اضطجعا وأراحا رأسيهما

على وسادتين كوّناهما من الرمل. لم تختلف ليلتهما عن الليالي الماضية ما عدا أن النصف الأيسر كف عن نبش فتحة أنف النصف الأيمن.

في صباح اليوم الذي تلاه، خلع النصفان نصفي قميصهما لينفضاه من الحشرات التي تسللت إليها ليلاً، فلاحظ النصف الأيمن أنا هناك فتقاً في حواف الجلدة المرقوعة على جرح الأيسر. نبهه إلى ذلك، في الوقت الذي كان النصف الأيسر يحلق في جرح نصفه الأيمن قائلاً له:

«أنت أيضاً!»

وكمن سُرقت محفظته، تلمس النصف الأيمن حواف الجرح، واستل خيطاً وقرّبه من وجهه. ثم وبحركة متشنجة، وعنيفة، خلع الجلدة وألقاها، وراح يتلمس جرحه مجدداً.

«ذلك الحكيم البدوي يبدو أنه لم يتقن عمله» قال النصف الأيسر الذي نزع هو الآخر الجلدة عن جرحه وراح يتلمسه: «إننا نتورم!».

كان ثمة تورم أشبه بالغدة ذات اللون الدمويّ قد بدأ فعلاً بالنمو على طول الجرحين، وردم الفراغات وكسا العظام بشكل أظهره كما لو أنه جلداً مشوهاً. أرعبهما الأمر في البداية، رغم أن شيئاً لم يكن يؤلمهما حتى ذلك الحين. لكنهما لم يلبثا على هذا الحال وقتاً طويلاً، إذ بديا بمرور الوقت غير مكترثين للأمر. فنهضا وواصلا مسيرهما المضني الذي انتهى بهما إلى طريق معبدة بالقير، فراحا يسلكانها إلى أن وصلا، عند الظهيرة، إلى أول نقطة تفتيش عسكرية تابعة إلى الحكومة. عرفا عن نفسيهما. قالا لجنود النقطة أنهما عراقيان، لكنهما عجزا عن تقديم الإثباتات اللازمة على أنهما كما ادعيا. لم يقتنع ضابط النقطة بكلامهما، ونصحهما بالعودة من حيث أتيا، قائلاً بينما هو يفتل شاربيه:

«لسنا بحاجة إلى المزيد من الجثث المشطورة، والرؤوس

المقطوعة، والأجساد المشوّهة، والأطراف المبتورة. لدينا ما يكفي منها. كما أن لدينا من المعاقين ما فيه الكفاية للفوز بميداليات الدورات البار أولمبية لمائة عام قادمة! هل تفهمان ما أقوله أيها النصفان الغشيمان؟ والآن، اذهبا من هنا»

وطردهما.

لكنهما عادا مرة أخرى. توسلاه هذه المرة بأن يدخلهما. وكانا كلما ازدادا توسّلاً به، ازداد هو عناداً، حتى ضاق ذرعاً بهما، وأمر جنوده أن يرمونهما بعيداً.

جلسا على قارعة طريق مبلطة بالقير، لعل عجلة تمر وتقلهما.

«لكن إلى أين؟» سأل النصف الأيسر.

«لا أعرف»: أجابه النصف الأيمن ووضع الحقيبة التي يحملانها أمامه، تركة الرجل الذي كاناه يوما، ثم فتحها.

«ماذا تفعل!» صاح النصف الأيسر مذهولاً: «أليس من المفترض أن لا نفعل هذا؟»

«نعم.. من المفترض» قال النصف الأيمن بينما هو يفتّش بين محتويات الحقيبة عن «الهوية»: «أما الآن، فيجب أن نعرف من نحن»

«نعرف من نحن؟!» تساءل النصف الأيسر وبدا في حينها كما لو أنه غريق يلوّح بيأس قبل أن يهوى إلى القاع: «هل ما زلت تجهل من نحن؟ أنا أقول لك. نحن يا صديقي نصفان أبلهان. نصفان تائهان مجهولا «الهوية» يبحثان عن رواية خرافية مثل حياتنا الآن، لعلهما يتعرّفا فيها على طريقة عملية تساعدهما على الالتحام»

«لا تكن أحمقاً هكذا ويائس» نهره النصف الأيمن. بدا وهو يبحث عن «الهوية» الضائعة في الحقيبة كمن يفتش عن ابرة في وسط كومة من

القش. لا يعلم أن الإرهابي الشيشاني مزّقها وجزّأها إلى ثلاثة أوصال، ثم قذفها بوجهي، وطيّرتها ريح السموم الحدودية، حملتها إلى أقصى ما يمكن أن يبغيه طائر يائس من المجهول. وباستثناء تلك «الهوية» ليس هناك من وثيقة تعريفية أخرى بإمكانها إيصال نصفيّ إلى الحقيقة التي ستظل غائبة عنهما إلى النهاية.

ما زال النصف الأيمن يفتش عن ضالته، وكان قد أخرج محتويات الحقيبة ونشرها على الاسفلت بينه وبين النصف الأيسر الذي كان يُقلِّب في صور الألبوم، ويتأمل صوري الشخصية التي التقطت لي في مراحل عمرية مختلفة، بدءاً من سن الخامسة حتى قبل أن أُقتل بأسبوعين. إلا أن أياً من النصفين لم يتعرفا عليَّ، فقد نسياني كما أسلفت، لكنهما لا يشكان أن بطل هذا الألبوم الصوري هو نفسه الذي كانا ملتحمين فيه.

«يبدو أن صاحبنا عالم آثار» قال النصف الأيمن، وهو يتفحص تمثال الملك كوديا السومري ويشمه: «ومن يعلم، ربما كان على العكس»

«ماذا تعني؟» سأله النصف الأيسر.

«أعني أنه ربما يكون سارق آثار!» أجابه النصف الأيمن وهو يرمي التمثال نحوه، فيتلقفه هذا برفق، كما لو أنه طفل رضيع.

«لا شيء مهم!» قال النصف الأيمن متذمراً: «لا عنوان ولا وثيقة ولا حتى بطاقة «هوية» تعرّفنا من نحن»

كان النصف الأيمن في تلك الأثناء يقرأ فقرات من مفكرتي التي وضعها على ركبته وراح يبلل سبابته والإبهام من ريقه ويتصفحها باهتمام، ولا يبدو عابئاً بشكوى النصف الأيمن من عدم وجود شيء ذي أهمية في حقيبتي.

«هل تعرف؟» قال النصف الأيسر مكتشفاً: «إنه مثقف! يبدو ذلك من كتاباته»

«مثقف؟» سأله النصف الأيمن بإهمال: «هذا يعني بطبيعة الحال أني نصف مثقف الآن هأ هأ!»

«إنه يتحدث هنا عن الهوية الوطنية» أردف النصف الأيسر، وظهر كأنه نصف مثقف بالفعل، من أنصاف المثقفين الذي يحفظون الاقتباسات أكثر مما يفهمونها:

«الهوية الضائعة تحديداً» قال وتحسس، بحركة لا إرادية كأنه اعتاد عليها، الجيب الخلفي لنصف البنطلون الجينز الذي رفضا تغييره بالدشداشة حينما كانا يعيشان فترة نقاهتهما في البادية. وكما لو أنه تذكر فجأة، تابع بارتباك: «الهوية الضائعة في ظل ظروف معينة، كالحروب والاحتلال والصراعات الدينية والتناحرات السياسية والطائفية»

«لكنك في الحقيقة» فاجأه النصف الأيمن: «وبما أنك نصف مثقف أيضاً، لم تفهم معنى كل ما قرأته وحاولت أن تظهر أنك هضمته، والحقيقة أنك رددته كالببغاء»

«بل فهمت» احتج النصف الأيسر بلهجة مُراهِنة ضحك منها النصف الأيمن الذي عاد ليؤكد بنبرة هادئة:

«بل أنك لم تفهم. لاحظت ذلك. فما أن ذكرت «الهوية الضائعة» حتى تلمست مؤخرتك. لكن، ماذا وجدت يا ترى؟ بالتأكيد لم تجد سوى الضراط يا صديقي! أنت تفهم، أنا لا أشك بذلك، لكن بشكل سيء. تربط الأشياء على نحو لا علاقة له بالموضوع، مثل أي نصف مثقف آخر. الأمر أشبه بنصفين مثقفين يتكلمان عن شخص يُدعى رامبو، لكن لكل نصف مثقف منهما رامبو يعنيه، هكذا يختلط الحابل

بالنابل وتكون النتيجة في النهاية عبارة عن ديباجة هجينة تقول: «كان رامبو شاعراً فرنسياً عظيماً قتل العديد من الشيوعيين الشماليين في أدغال فيتنام ببندقيته الفتاكة!»

«هل تهزأ بي؟» أغلق النصف الأيسر المفكرة وألقاها أمامه من دون مراعاة.

«ليس تماماً» رد النصف الأيمن بعد أن رفع المفكرة من على الأرض ووضعها على فخذه: «أنا مثلك، لا أفهم في هذه الأمور المعقدة، لكني أعرف أن ليس ثمة علاقة يمكن أن تربط، بشكل وثيق كما هو شائع، بين «الهوية» التي يتحدث بها صاحبنا في المفكرة و«الهوية» التي ترافقنا حتى ونحن نتغوط»

وبينما هما يتجادلان بشأن «الهوية» وتفرعاتها، أفزعهما منبه شاحنة نوع مارسيدس تجر وراءها قاطرة من المفترض أنها محملة بالرمان من المزارع السورية.

«مرحباً أيها النصفان الشابان» أطل سائق الشاحن من نافذة القمرة ملوّحا بيده: «هلا تنحيتما جانباً من فضلكما. هذه ليست طريقة عادلة للانتحار!»

(٦)

أنا.. لم أعد أنا نفسي. أو لأقل أني لم أعد أعرف نفسي.

هل حقاً أن هذين النصفين التائهين هما أنا؟ وإذا كان الأمر كذلك، لماذا لا أشعر بانتمائهما لي؟ لماذا أتحدث عنهما كما لو أن لكل نصف منهما «أنا» خاصة به، وكما لو كانا شخصيتين في حكاية؟ لكن.. هل عليَّ حتماً أن أشعر بذلك؟ أم أن مثل هذا الأمر منوط بهما فقط، فهما من يجب عليه الشعور بالانتماء من عدمه، لأني، ببساطة، الأصل، وهما الفرعان.

لكن.. من أنا؟

هل أنا مادة؟ خيال؟ عقل؟ وعي؟ وحي؟ روح؟ نفس؟

أي شيء أنا؟

ولنفترض أن النصفين وجدا طريقة يلتصقان بواسطتها، كأن يعثرا على رواية كالفينو، فيعودان كياناً واحداً، الذي هو أنا قبل الانشطار، أين تذهب أنا كل نصف منهما اللتان كانتا بعد الانشطار؟ وأين يذهب هذا الشيء الذي هو أنا المتحدثة عنهما؟ وهل أنا قبل الانشطار وبعد الالتحام (الكيان الأوحد) نفسي أنا التي تروي عن النصفين بعد

الانشطار؟ وإذا تكرر ذلك الانشطار، أين أجد أنا المتحدثة عن النصفين على لسان الراوي العليم؟

هل هذا هو شعور المريض بالفصام؟

لا أظن ذلك، فكل أنا من «أناتيّ» هذا المريض تعرف نفسها على حدة، وتجهل أي شيء عن الأنا الأخرى. أما في حالتي، فثمة أنا ثالثة هي أنا التي لا تعرف أين هي، لكنها تعرف أنها أنا في مكان مجهول انبثق من عملية الانشطار.

لا يبدو الأمر أشبه بشخص أغمي عليه وحين استيقظ طرح السؤال التالي: من أنا؟ وما أن عاد إليه وعيه حتى سأل مجدداً: من كانت تلك الـ«أنا» التي سألت من أنا؟

وعلى هذا الأساس، أنا لستُ تلك الـ«أنا» التي خارج الوعي.

لكن، أين تذهب أنا الشخص حين يفقد ذاكرته؟ ومن أين تأتي الـ«أنا» بعد فقدانه الذاكرة، تلك التي ولدت تواً ولا تعرف أحداً وتسأل: من أنا؟

ربما حصل مع نصفيّ بعض العطب في الذاكرة بسبب الانشطار، لكن ذلك لم يحصل معي. لماذا يا ترى؟ أليس هما أنا؟ أم لكل واحد منهما «أنا» خاصة بمعزل عن أناي التي هي خارج الوعي؟ لكن أي وعي أنا خارجه، وعي النصفين؟

دائماً ما أتساءل: أين ذهبت «أنا» الفسكونت بعد الانشطار؟ لم يتحدث كالفينو عن تلك الـ«أنا» أبداً، وكأن كل همّه في تلك الأثناء هو شطر الفسكونت إلى نصفين، لكل نصف «أنا» خاصة به: «أنا» الشر و«أنا» الخير، الطيب والغرامو، في حين غيّب وأهمل الـ«أنا» المركزية،

التي هي أنا الآن. نعم أنا «أنا» مركزية، أصيلة. هذا ما فهمته. لكن أين أنا؟

يبدو أن المسألة ليست في: من أنا؟ إنما أين أنا؟

ربما أنا في الوهم.

أو ربما الوهم نفسه.

(٧)

كان الغروب ينشر ظلاله الكئيبة على الصحراء المترامية عندما أقلت شاحنة الرمان نصفيّ المنبوذين. شرحا للسائق ما حصل معهما في نقطة التفتيش، وقالا أن ليس لديهما مانعاً من أن يُحشرا تحت الرمان في القاطرة الخلفية، لكي لا يراهما حرس الحدود الحكومي. فقال لهما السائق النحيل ذو الوحمة الكبيرة البارزة على جبينه، والذي تكسو بشرته صفرة كالكركم لم تخفي علامات السعادة المزيفة البادية على وجهه الطولي ذي الملامح المذهولة، كأنها ملامح قناع أفريقي. قال أن ليس ثمة داعٍ للاختباء، فلم يفهما ذلك إلا عندما وصلت الشاحنة إلى نقطة التفتيش ومرت من دون أن يوقفها أحد أو يتحقق من جنسية سائقها ونوع الحمولة التي تنقلها الشاحنة. لم يشاهدا أحداً من حرس الحدود، لقد اختفوا جميعاً مع ضابطهم الذي رفض إدخالهما، ومضت الشاحنة في طريقها حتى بلغت أطراف بلدة صغيرة استقبلها أهلها بالتهليل والتكبير، وودعوها بالطريقة نفسها، بعد أن غمروا السائق بالقُبل والأحضان، وأغدقوا عليه بالتهاني المبكرة، راجين له زواجاً سعيداً من حوريات الجنة وعشاءاً شهياً برفقة النبي.

انصرف الأهالي كل إلى حال سبيله، ولم يلفت انتباههم وجود النصفين اللذين ارتابا منذ البداية بسائق الشاحنة واختفاء نقطة التفتيش،

والآن بهذا الحشد الذي يرفع رايات سود كُتب عليها لا إله إلا الله، الله رسول محمد.

كان الوقت فجراً عندما دخل النصفان إلى البلدة. كل شيء هادئ وساكن. وكان النسيم الذي يحمل برودة الشمال يداعب أعلام تنظيم الدولة الإسلامية المنتشرة في كل مكان، على الأبنية والمدارس، وفوق العمارات والمؤسسات الحكومية والمدنية، وفي ساحة البلدة العامة التي يبدو أنها شهدت حفلة إعدام أحدهم قبل ساعات، إذ ما تزال جثة صبي لم يتجاوز الخامسة عشرة مربوطة بأسلاك معدنية إلى عمود إنارة هناك، وكان يمسك رأسه الذي فُصل عن جسده بيديه في حجره، في حين حلّت لوحة كارتونية بيضاء مكان الرأس كُتب عليها: عميل مرتد!

ابتعد النصفان الخائفان عن الساحة العامة، وراحا يفتشان عن فندق يبيتان فيه الساعات المتبقية حتى طلوع الشمس، إلا أن كل الأبواب كانت مغلقة في البلدة، حتى مركز الشرطة والمستشفى. وكان أفراد التنظيم المسلحين قد بدأوا بالانسحاب في تلك الساعة من الفجر، إلا أن أحداً لم يوقفهما ويسألهما من هما وأين وجهتهما. استمرا بالتجوال حتى انتهيا إلى كراج مهجور. كانا خائري القوى، فاستلقيا على مصطبتين حجريتين هناك، وناما نوماً عميقاً هادئاً، ولم يزعجهما أحد باستثناء الكلاب التي كانت تنبح في أطراف البلدة. وإلى أن استيقظا في صباح اليوم التالي كان كل شيء قد تغير. اختفت الأعلام السود وحلت مكانها الأعلام العراقية بألوانها الأربعة والتكبيرة الخضراء في وسطها. في حين شغل أفراد من الشرطة الحكومية الأمكنة التي كان يشغلها أفراد تنظيم الدولة الإسلامية المسلحين. أفزعهما ذلك، خصوصاً أنهما، وعلى مدى الساعات القليلة الماضية، لم يسمعا صوت إطلاق نار. فافترضا أنهما كانا يحلمان.

بعد أقل من خمسة عشرة دقيقة، وجدا نفسيهما في السوق، وسمعا هناك الباعة يتجادلون بشأن الوضع الأمني المنفلت، قائلين أنه لن يستقر حتى وإن تطلب ذلك تدخل القبيس. وسمعا في مكان آخر متسوّلين يتنازعان على ملكية متر مربع من أحد الأرصفة، فهذا يقول أنه مكانه، وذاك يؤكد العكس، وأحدهما يقول للآخر: «حتى القبيس لن يزعزعني من مكاني هذا!» وعدا ذلك، سمعا أيضاً، حين مرا من أمام محكمة الأحوال الشخصية، رجل يقول لامرأة أنه لن يطلقها حتى وإن جاء القبيس خصيصاً لذلك. وعلى مقربة من ساحة لكرة القدم، سمعا صبياً يحرس مرماه بعناد يزعق بوجه لاعب هجوم الفريق الخصم قائلاً بتحدٍ: «لن تسجل هدفاً حتى لو نزل القبيس!» وسمعا امرأة تقول لامرأة أخرى تنتظر ابنها الأسير منذ أعوام طويلة: «حتى القبيس لن يأتي به!»

أحاديث كثيرة مشابهة سمعها النصفان بينما هما يتجولان في أنحاء البلدة وسوقها بحثاً عن مكتبة. جدالات، شجارات، معارك، ومناقشات دائما ما تفضي إلى ترديد اسم القبيس الذي يبدو أن لا نفع من مجيئه أو نزوله أو حلوله أو تدخله لفض النزاعات.

«لكن من هو القبيس؟»

سأل النصف الأيسر أحد الباعة، فهزّ هذا كتفيه من دون مبالاة وانصرف إلى شأنه. في حين قال أحد المارة استوقفه النصف الأيمن وسأله من يكون القبيس:

«لا أحد يعرف من هو القبيس!»

انتبه النصفان إلى أنهما تركا البحث عن مكتبة، وانهمكا بسؤال الناس عمن يكون القبيس. فشرعا يسألان كل من يصادفانه في الطريق عما إذا كان ثمة مكتبة في البلدة. وبالتالي، أنهك الاثنان نفسيهما، طوال

النصف الثاني من النهار، بالبحث من دون أن يعثرا على ضالتهما. فلا يوجد مكتبة في هذه البلدة الغريبة.

قررا المبيت في البلدة ليلة أخرى على أن يكملا طريقهما إلى بغداد في ساعة مبكرة من اليوم التالي. كان الظلام قد بدأ بالهبوط في ذلك الحين، وبدأت معه علامات التغيير المخيف في هذه البلدة غريبة الأطوار. فكما لو أن الأمر حدث برمشة عين، اختفى أفراد الشرطة الحكومية ورُفعت أعلام الدولة الرسمية ليحل بدلاً عن ذلك مقاتلون ملثمون ومسلحون ورايات سود مختومة بـ«الله رسول محمد» معكوسة. فقصد النصفان أحد الفنادق الرخيصة قبل أن تغلق أبوابها. وأحسا في حينها أن هناك من يتعقب أثرهما. كانا ما يزالان يحملان بعض المال في جيبهما، إذ لم يسبق للإرهابيين اللذين شطراني إلى نصفين أن استوليا على المال الذي كان في محفظتي، فقد كان كل همهما هو العثور على «هويتي». فاستأجر النصفان غرفة صغيرة تقع في الطابق الثاني، تطل نافذتها على مشهد خرب كأنه من مشاهد الخراب الذي يقولون في كتب التنجيم أنه سيصب العالم. وكانا على وشك أن يغفيا عندما طُرق باب الغرفة. ومتذمراً، قفز النصف الأيمن إلى الباب وفتحه. وجد عنده رجلاً مسناً يرتدي الأسمال، بلحية بيضاء ووجه ملأته التجاعيد والندوب.

«تفضل» قال له النصف الأيمن بلطف زائف: «هل أخدمك بشيء؟»

«نعم» رد الرجل الكهل بصوت بالكاد يسُمع: «أنا جائع»

أدخل النصف الأيمن ضيفه على مضض. أجلسه على السرير الوحيد في الغرفة وراح يوقظ النصف الأيسر الذي نهض وفرك عينيه، وحبس شتيمة كانت على طرف لسانه. في حين كان النصف الأيمن يبحث داخل ثلاجة صغيرة محشورة في إحدى الزوايا عن شيء يؤكل يقدمه للزائر

الجائع، فوجد بعض بقايا طعام يبدو أن النزلاء ممن سكنوا الغرفة قبلهما تركوه. كانت تنبعث منه رائحة العفونة، وعلى الرغم من ذلك ألتهمه الرجل المسن بنهم حتى شبع ومسح على كرشه وتجشأ، ولعله تظاهر بذلك، فالطعام ليس هدفه على أية حال. عندئذ، سأله النصف الأيسر من يكون.

«ألم تعرفاني؟» سألهما: «أنا القبيس»

«من عفواً؟» هتف النصف الأيمن مندهشاً: «القبيس؟»

«نعم أنا هو» رد الرجل مبتسماً.

«هل أنت متأكد أنك القبيس؟» سأله النصف الأيسر.

«نعم أنا هو القبيس بلحمه وعظمه ودمه»

«كنت أظن أن القبيس في هذه البلدة مثل غودو، لا أحد يعرفه»

قال له النصف الأيمن غير مصدق. فردّ الرجل بينما هو يتثاءب فظهرت أثناء ذلك أسنانه الصفر المنخورة:

«في الحقيقة أنا لم أكن شيئاً في البداية. كحال الكثير من الألفاظ التي اخترعها العراقيون، وراحوا يرددونها حتى تحولت إلى كائنات حية. وأنا يا صديقاي النصفان أحد تلك الكائنات، ولدت من كثرة الاستعمال»

عم الصمت لدقيقة حاول خلالها النصفان قبول ما ادعاه الرجل المسن على أنه حقيقة.

«هناك الكثير من الكلمات التي لا أصل لها، ولا توجد حتى في القواميس تحولت بمرور الزمن، ومن كثرة الترديد إلى كائنات حية مادية ملموسة مثلي. ألا ترىان أني حقيقة؟ أو.. لماذا أنا؟ خذا التيسي فيسي

مثلاً! هل سبق أن سمعتما بالتيسي فيسي؟ هاتين المفردتين اللتين تبدوان أسماً لكائن خرافي، هما في الواقع ليستا سوى مفردتين من بين الكثير من المفردات التي لا معنى لها، لكنها كثيراً ما تأتي في سياق الكلام الذي يُراد منه الوصول إلى أن شطر أحد الأشخاص إلى نصفين مثلاً هي عملية غير مجدية، من دون فائدة، لا يعول عليها، تيسي فيسي! هل تلاحظان ذلك؟ وقد تأتي من قبيل السخرية. لكن هذا لا يعني أنهما أداتا تحقير، أبداً، إنما... آه.. انتظرا... كيف أوصل المعنى لكما؟ حسناً. على سبيل المثال، إذا ما سمعتما أحداً يقول لآخر «أبو التيسي فيسي» فاعلما أنه يسخر منه. هل تفهمان؟»

لم يفهم النصفان شيئاً. لكنهما سألاه عما إذا كان التيسي فيسي هذا تحول هو الآخر إلى إنسان.

«مؤكد أنه تحول من كثرة الاستعمال، مثلي تماماً. لكني أنصحكما ألا تبحثان عنه، أو عن معناه. لأنكما لن تعثرا عليه أبداً، لكن في الوقت نفسه يمكنكما الاستنتاج مع ضرورة أن تجعلا استنتاجكما هذا يحتمل الصواب والخطأ. دعوا التيسي فيسي وشأنه، فربما فكر يوماً في زيارتكم كما فعلت أنا في هذه الليلة. وأود أن اروي لكم قصة بهذا الشأن إن لم تمانعا، وإذا كنتما تمانعان فسأتمنى لكما نوماً هانئاً»

لم يمانع النصفان. عندئذ، بدأ الرجل الذي يدعي أنه القبيس يروي تلك القصة على طريقة الحكواتيين الكبار.

(٨)

كان هناك رجل يدعى تحقيراً خليلو، أفنى عمره من أجل معرفة التيسي فيسي.

ففي أحد الأيام، عندما كان صغيراً سأل جدته، فأجابته هرباً من إلحاحه أن التيسي فيسي حيوان أسطوري تضرب جذوره عميقاً في الأرض، ينمو مثل كل النخيل وأشجار السدر في العراق. لكنه لا يُرى بالعين المجردة.

«ولكي تراه» قال له مرة أحد الدراويش، بينما هو يغرز مخرزاً حاداً في لهاته: «عليك أولاً أن تموت أو تصبح درويشاً!»

لم يكن خليلو متأكداً أنه يريد الموت من أجل رؤية التيسي فيسي. وأما مسألة التحوّل إلى درويش، فتلك كانت المعضلة الكبرى، إذ ما زال، وحتى فترة ليست بعيدة عندما أصيب بالإنفلونزا الصيفية الكريهة، يخاف من زرقة إبرة في عضلة مؤخرته النحيلة. فكيف يتفق الحال إذا ما صار عرضة لتبضيع سكاكين وسيوف وخناجر الدراويش الراقصين على وقع ضرب الدفوف والصنوج؟

وعلى الرغم من ذلك، والفشل الذريع الذي كان يواجهه في معرفة التيسي فيسي طوال عمره الفائت، إلا أن خليلو لم ييأس أبداً. راح

يبحث ويبحث حتى عثر على أحد العرفانيين قريباً من أحد مقامات الأولياء الصالحين.

«أرمي فألك يا بني واسأل ما شئت» قال الرجل العرفاني بصوت كأنما خرج من ناي مكسور.

«اريد معرفة ما هو التيسي فيسي» أجابه خليلو بعد أن رمى نقداً على الكوفية التي فرشها الرجل أمامه على الأرض.

«وهل تعرف معناه؟» سأله العرفاني وهو لا يزال مطأطئاً رأسه، هازاً رأسه، وينقل خرز مسبحته الطينية بين أصابعه المرتعشة.

«لا» أجابه خليلو.

«إذن، عليك أن تعرف معناه أولاً لتستدلّ عليه»

منذ ذلك اليوم وخليلو يبحث في المعاجم والقواميس عن معنى التيسي فيسي. قرأ المنجد من الغلاف إلى الغلاف، وراح يجوب أروقة الجامعات ويسأل المختصين، أساتذة، دكاترة، وبروفسورات في اللغة. إلا أن أحداً لم يرشده. بعضهم رأى التيسي فيسي مضحكة أو مثيرة للاشمئزاز بينما كان خليلو ينطقها أمامهم بالطريقة التي يخيّل للمرء أنه يمضغ معها شيئاً، أو يخوض بيديه في الخراء. لجأ إلى أساتذة الميثيولوجيا فقيل له أن التيسي فيسي هي الأفعى المارقة التي سرقت عشبة الخلود وتركت العراقيين يلطمون مع كَلكَامش طوال الدهر. لكنه لم يقتنع أيضاً، فاتجه إلى مشايخ الدين ليسألهم، لكن أحداً منهم لم يجبه سوى شيخ طُرد من الحوزة بعد أن نكح بالخطأ امرأة متزوجة، فقال له أن التيسي فيسي هو لعاب إبليس الذي خلق الله منه الكلاب. أستاذ في مركز علوم البحار أخبره أن التيسي فيسي حيوان برمائي ذكره

أحد المؤرخين، يعتاش على خُصى وأيورة الأولاد الذين يعومون في مياه الفرات أيام حزيران.

وما زال خليلو يهدر المزيد من عمره ويسأل الرائح والغادي عن ذلك الشيء مجهول المعنى والشكل، وكان قد بلغ الشيخوخة في تلك الأثناء، حتى صار يتلقى الإجابات المجانية من العتالين والعربنجية في السوق وشرطة المرور في تقاطعات الطرق، وباعة العرق وبائعات السمك والمطيرجية وعمال النظافة وسعاة البريد والنشالة والجنود. فالعتال يقول له أن التيسي فيسي ماركة شاي قديمة من سيلان. والمتسول يقول أنه دجاجة تبيض ذهباً في سوق الصابئة. والعربنجي يقول أنه اسم السوق القديم في وسط المدينة. شرطي المرور بدوره يقول أن التيسي فيسي اسم أُطلق على أول موتوكارت دخل بغداد مطلع القرن العشرين، وبائعة السمك تؤكد على أنه سمكة نصفها العلوي امرأة تزوجت من بحار جنوبي غادر معها إلى جزيرة مخفية. المطيرجي ادعى أن التيسي فيسي الذي يسأل عنه خليلو هو طائر نادر، ربما عنقاء أو تنين بجناحين جلبه الصينيون معهم من شنغهاي إلى البصرة. عمال النظافة يقولون أنه عيد العمال في عهد السلاجقة، وسعاة البريد يقولون أنه طابع بريدي أثري من زمن الدولة الأموية. أما الجنود فيقولون أن التيسي فيسي هو الحرب.

وبين قول هذا وادعاء ذاك وزحمة الأجوبة العشوائية ضاع عمر الرجل. شاخ وتهدلت ملامحه وسقطت أسنانه وماتت شهوته وحان أجله. لم يبق سوى ملك الموت ليعرف منه ما هو ومن هو ذلك الشي.

«لطفاً، هل تخبرني ما هو التيسي فيسي؟» قال خليلو بينما هو يلفظ أول أنفاسه.

فرمقه الملك بنظرة مشفقة كما لو أنه ينظر إلى حمار ينفق بهدوء، ثم سأله بدوره قائلاً:

«كم عمرك يا رجل؟»

راح خليلو يعد بأصابع يديه ورجليه. تردد كثيراً قبل أن يجيب الملك، بدا كأنه يحاول فك لغز ما. حك رأسه وقال:

«ثمانون سنة»

«ثمانون سنة قضيتها في الهباء ولم تعرف ما هو هذا الشيء؟!»

انتهت القصة. يمكنكما الآن استخلاص العبرة منها، والاستدلال من خلال ما مرّ به خليلو على أن التيسي فيسي هو ذلك النوع من الهباء الذي أشار إليه ملك الموت. هو أن يذهب عمراكما هباء، هو أن تقضيانه بالهباء، وسط هذا الخراء الذي يسمونه اللا جدوى، في هذه الحظيرة، هذه الظلمة اللزجة التي يسمونها حياة.

كان القبيس ينتظر من النصفين إطراء على قصته، إلا أن شيئاً سوى الشخير لم يصدر منهما. كانا نائمين. ولم يستيقظا إلا في وقت متأخر من صباح اليوم التالي. وكانت محفظة النقود والحقيبة هي أول شيء وقع عليه نظرهما. كانت مرمية على أرضية الغرفة. في حين لم يكن هناك أثر للحقيبة.

«سرقنا القبيس!»

(٩)

«نصفان محتالان!»

زعق مالك الفندق بوجهيهما وهو يشير بسبابته نحو باب الخروج.

لم يترك لهما الرجل الذي ادعى أنه القبيس فلساً واحداً يدفعانه له. كان النصف الأيسر يلقي باللوم على النصف الأيمن لأنه أدخل ذلك الشخص المريب إلى غرفتهما وسمح له بالاحتيال عليهما، في حين كان النصف الأيمن يرد عليه قائلاً:

«أنت أيضاً صدقته»

ولم يزل الاثنان يخوضان في شجارهما الكلامي، حتى وجدا نفسيهما خارج تلك البلدة المشؤومة التي تتغيّر ليل نهار، ويصنع أهلها من الكلمات التي ليس لها معنى ولا أصل كائنات خرافية تسرق الغرباء.

كانا مربوطين إلى بعضهما بشكل معاكس، ومحشورين في كيس كبير من الخيش، في الصندوق الخلفي لسيارة تابعة لحرس الحدود يقودها الضابط نفسه الذي طردهما قبل يومين، وها هو الآن يلقي القبض عليهما بتهمة اجتياز الحدود من دون وثيقة مرور.

«ألم أقل لكما أننا لسنا بحاجة إلى المزيد من الأنصاف؟» صرخ الضابط بوجهيهما: «بالأمس في بغداد انفجرت شاحنة ملغومة في سوق

شعبي وخلّفت المئات من الأنصاف والأثلاث والأرباع. كان من المفترض أن تلك الشاحنة محملة بالرمان، لكنها في الحقيقة، ويا للأسف، كانت محملة بمادة تي أن تي شديدة الانفجار. هل سمعتما بذلك أيها النصفان المشؤومان؟»

كاد النصف الأيمن أن يقول له: «وأين كنت أنت حين عبرت تلك الشاحنة يا مستنقع الحيامن المنوية لخنازير البر؟!»

لكنه التزم الصمت خشية أن يتهمهما بالإرهاب.

عُبّأ الاثنان بعدها في كيس الخيش الكبير، وحُملا في صندوق سيارة عسكرية أقلتهما إلى مكان بعيد لا يعلمانه، حيث أُنزلا هناك، ثم وضعا مجدداً في وسيلة نقل أخرى ظلا يجهلانها إلى أن أحسا بارتفاعهما عن الأرض وشعورهما بالغثيان.

«هل نحن في طائرة؟» سأل النصف الأيمن.

«يبدو ذلك» قال النصف الأيسر: «هل سيرمون بنا من فوق؟»

«من يظنوننا؟» قال النصف الأيمن متهكماً: «عمر المختار مثلاً؟»

فأسكتهما أحد الجنديان اللذان كانا يرافقانهما على متن الطائرة المروحية.

وبعد مسافة ليست بالقصيرة، أُلقي النصفان من علو منخفض إلى أرض صلبة، صخرية. ألقيا مثل جروين غير مرغوب بهما.

الفصل الثاني

الحدود العراقية التركية

(١)

لم تكن الطريق المعبدة التي تصل إلى الحدود العراقية التركية بعيدة عن المكان الذي أُلقي فيه النصفان. سارا إليها عبر طريق صخري وعر، بعد أن حرّرهما أحد المهربين الأتراك من ذوي الشوارب العثمانية المتعقربة. وكان قد اقترح عليهما تهريبهما مقابل مبلغ من المال، لكنهما قالا له أنهما لا يملكان فلساً واحداً، وليس بوسعهما قطع المسافات الطويلة بين الجبال وعبر الوديان والطرق التي لا تصلح حتى لسير البغال، فكيف الحال بالنسبة لنصفين نسيا كيف يكون المشي على أرض مستوية.

لم يكلفا نفسيهما عناء المسير إلى المنفذ الحدودي هذه المرة، لإقناع شرطة الحدود من أجل إدخالهما، خشية من تكرار مشهد إرجاعهما ورميهما من قبل الضابط كما حدث في المرة السابقة. لذا، وقفا على جانب الطريق المعبدة، وأخذا يلوّحان بيديهما للحافلات السياحية وشاحنات النقل البري القادمة من تركيا والمتوجهة إلى العراق عبر منفذ إبراهيم الخليل الحدودي.

كان الصباح دافئاً في ذلك اليوم من بداية شهر آب في تلك المنطقة الحدودية. جلس النصفان على جانب الطريق، وتفحص أحدهما جرح

الآخر، فلاحظا أن التورم في كلا الجرحين ما زال على حاله ولم يتضخم أكثر.

«هل يؤلمك؟» سأل النصف الأيمن نصفه الأيسر وهو يتلمس جرحه.

«يحكني فقط» أجاب النصف الأيسر وقد امتدت يده إلى جرح النصف الآخر: «يبدو أنه سيستقر على هذا الشكل ولن يتطور.. وأنت؟ هل تشعر بشيء؟»

«أبداً» رد النصف الأيمن بينما هو يحك جرحه «هذا فقط»

مرت دقائق لاحظ خلالها النصف الأيسر صاحبه شارد الذهن، فسأله عما يفكر به.

«أتساءل عن اسم ذلك الشخص»

«أي شخص؟»

«هو»

«من هو؟»

«الشخص الذي شطروه»

«آه نعم.. تقصد نحن»

«كلا.. نحن لم نعد هو»

«إذن.. هل ترى أن من المناسب أن نختار لنا إسمين؟»

«أفضل ذلك.. لا يعقل أن نبقى من دون أسماء»

اتفق النصفان على أن يختار كل واحد منهما اسماً للآخر. فاختارا في البداية اسماء تاريخية، كإسمي رومولوس وروموس، لكنهما غيّرا رأيهما، كما رفضا اسمي قابيل وهابيل للأسباب نفسها التي تتمثل

بالنهايات المأساوية لإثنين من الأشقاء الأربعة، ففي القصة الرومانية قتل رومولوس توأمه روموس، في حين قتل قابيل أخاه هابيل في الحادثة المعروفة. وعدا ذلك:

«قد نحتاج إلى ذئبة ترضعنا في القصة الأولى» قال النصف الأيمن مازحاً، وفعل مثله النصف الأيسر حين قال:

«وإلى غراب يعلم أحدنا كيف يدفن أخاه في القصة الثانية»

جربا بعدها أن يتسميا باسمي (آن) و(كي) توأما الإلهة (نمو) في أسطورة الخلق البابلية. لكن النصف الأيمن اعترض على اسم (كي) لأنه مؤنث، بالإضافة إلى أنهما لم يكونا مشطوربن، بل ملتصقين لفترة طويلة جداً قبل أن يفصل ابنهما (إنليل) بينهما بقوته الخارقة.

وبعد جملة من الأسماء التاريخية التي كانا يستعرضانها، توصل النصفان إلى حلّ وسط أرضاهما، وهو شطر اسم ميزوبوتاميا إلى نصفين. فأطلق النصف الأيمن على النصف الأيسر ميزو، والنصف الأيسر سمّى النصف الأيمن بوتاميا. وهكذا، أمضيا نحو ثلاثة ساعات من النقاش والجدل، قبل أن تتوقف لهما شاحنة تسحب حاوية أشبه بثلاجة كبيرة أُلصق على جانبيها اعلاناً تظهر فيه اسماك تونة عملاقة مرحة وسعيدة. ولحسن الحظ، كان السائق عربياً من الشام، وإلا لما استطاعا التفاهم معه، وشرح ظروفهما له، ومن ثم اقناعه بالموافقة على نقلهما إلى داخل الحدود العراقية. اشفق عليهما ووافق على تهريبهما، شريطة أن يبرّآه من التواطؤ في حال تم القبض عليهما بتهمة الدخول إلى العراق بصفة غير شرعية.

«لا تخف» قال له بوتاميا مطمئناً: «لن نورّطك»

ففتح باب الحاوية «الثلاجة» وأودعهما هناك، بين صناديق أسماك التونة المجمدة، كما يبدو من الملصق الإعلاني على جانبي الحاوية.

«اطمئنا.. لن تتجمدا» غمزهما السائق قائلاً: «ولا تعبثا بالأسماك»

فهز النصفان رأسيهما بالإيجاب وشكراه. ثم أغلق عليهما باب الحاوية، وأحسا بعدها بالشاحنة وهي تتحرك.

لم يمضِ من الوقت سوى دقائق، لم يتحرك خلالها النصفان أو ينبسان ببنت شفة، كانا ينظران إلى بعضهما البعض كأنهما يريدان التعارف لأول مرة، أو تذكر أين رأى أحدهما الآخر وما هي المناسبة. لم تمضِ سوى تلك الدقائق القليلة حتى توقفت الشاحنة، على ما يبدو أنها وصلت إلى المعبر الذي لم يكن بعيداً، فها هو باب الحاوية يُفتح، ويتناهى صريره إلى أذني النصفين على نحو ينذر بالخطر. كانا يختبئان بين صناديق الأسماك، يرتعشان من الخوف. ماذا لو قُبض عليهما مجدداً؟ ربما لن يُقذف بهما إلى ما وراء الحدود هذه المرة. ربما يُشتبه بانتمائهما إلى إحدى الجماعات الإرهابية ويُعتقلان ويُسجنان. إلا أن أيّ شيء من ذلك لم يحدث بعد، على الأقل حتى تلك اللحظة التي سمعا فيها ضابط الجمارك وهو يتحدث مع سائق الشاحنة.

«هل أنت متأكد أنها أسماك؟» سأله الضابط.

«حسب علمي إنها كذلك حضرة الضابط: «أجابه السائق منكساً رأسه: «بإمكانك التأكد»

«ليس ضرورياً» قال الضابط العراقي وثبّت نظره على السائق الملتحي الذي يعتمر قبعة رياضية وهو يُخرج من جيبه مظروفاً ويسلمه إياه. يفتحه الضابط ويعدّ محتواه في داخله، ثم يشزر السائق بعينين شريرتين متسائلتين: «لم نتفق على هذا!»

«أنا لا شأن لي بالاتفاقات يا سيدي» قال السائق بنبرة يريد منها المماطلة: «أنت ترى أني مجرد سائق يحمل أمانة»

«لا تتذاكى عليَّ أيها الشامي!» نهره الضابط.

«أتذاكى؟» ارتفع صوت السائق قليلاً: «قلت لك أني مجرد سائق، عبد مأمور، وليس لي من مصلحة في كل ذلك عدا الأجرة التي اتقاضاها. أنت تعرف أني لن أضع كل هذه الأسماك في دبري، أليس كذلك؟!»

«اصمت!» نهره الضابط مجدداً وهو يتلفت يميناً ويساراً: «ربما عليَّ أن أجز لسانك إذا تفوهت بهذه الحماقات مرة أخرى، أنسيت مع من تتحدث؟!»

«عفواً حضرة الضابط» قال السائق معتذراً لكن بنفاد صبر: «ماذا أفعل الآن؟ هل تريدني أن أعود من حيث أتيت؟»

لم يجبه الضابط. كان ينظر إليه كأنه يريد أن يبصق في وجهه، ثم قال بلهجة آمرة إن دلت فإنها تدل على عدم رضاه:

«اتبعني»

سمع النصفان في تلك الاثناء حمحمة أصدرها السائق قبل أن يهرع في إثر الضابط الغاضب. أغلق بعدها باب الحاوية، فتنفسا ملء رئتيهما، لكنهما لم يتكلما حتى تحركت الشاحنة.

«اعتقد أننا نفذنا» قال ميزو وزفر نفساً ظل محبوساً طيلة المحادثة بين ضابط الجمارك والسائق، وراح ينظر إلى بوتاميا الذي بدا مرتاباً.

«هل من خطب؟» سأله، لكنه لم يرد. يبدو مشوّشاً وربما لم يسمع ميزو الذي أمسكه من زنده وهزّه قائلاً: «هل أنت بخير عزيزي؟»

«هل تشم رائحة زفرة؟» أخيراً نطق بوتاميا سائلاً صاحبه والشك يملأ عينه الوحيدة: «قل لي هل تشم؟»

أغلق ميزو عينه، كأنه ينتظر قبلة من امرأة، وبدأ يتشمم ما حوله مثل قط، ثم قال:

«لا.. لا رائحة زفرة!» حدّق بعدها إلى بوتاميا وقرأ في عينه رغبة وشيكة بالتطفل، فقال له بلهجة تحذيرية: «إياك أن تفعل، لا تنقصنا المشاكل!»

لكن يبدو أن بوتاميا مصر على المضي بما عزم عليه، وإلا سيقتله الفضول. وفي محاولة فاشلة للحؤول دون شروعه بفتح أحد الصناديق الكارتونية، قال ميزو للأيمن مفترضاً:

«ربما فقدنا حاسة الشم؟»

«ماذا قلت؟» رد بوتاميا بتهكم: «تغوط الآن بينما أفتح أنا هذا الصندوق، وإلى أن انتهي سأخبرك إن كنت شممت رائحة برازك أم لا!» ثم بدأ بفتح أحد الصناديق، غير آبه بإلحاح ميزو الذي وبخه قائلاً:

«كف عن هذا الآن، لا شأن لنا بالأمر أياً كانت محتويات هذه الصناديق. لا تكن متطفلاً، ستجلب لنا المتاعب يا أخي!»

لكن من دون جدوى. وكأنه لم يسمعه، استمر بوتاميا بفتح الصندوق الذي وقع عليه اختياره. وها هو الآن يستلّ من داخله شيئاً مطاطياً بلون الجيلاتين القرمزي. عندذاك صاح ميزو:

«هل رأيت؟ إنه جيلاتين!»

«رأيت ماذا أيها الفطِن؟» قال بوتاميا وهو يمط بذلك الشيء الجيلاتيني مرة، ويطوح به مرة أخرى: «هذا قضيب اصطناعي وليس حلوى الجيلاتين يا مخ الغباء!»

«صدقاً؟!» لطم ميزو جبينه شاتماً: «يا أخوات القحبة!»

ناوله بوتاميا القضيب فأخذه هذا بحذر شديد، كأنه يتلافى بذلك انفجاراً محتملاً. تفحّصه، قلّبه، استغل انشغال صاحبه بإخراج المزيد من تلك الأعضاء التناسلية المعيبة من الصندوق. أعضاء مطاطية، بلاستيكية، وزجاجية، بأنواع وأحجام وألوان مختلفة، طويلة وعريضة ومحرشفة ومحببة، ومعقوفة، بخصيتين ومن دونهما. استغل انشغال ميزو بذلك، وعضّ القضيب من رأسه ليتأكد ما إذا كان عضواً حقاً أو حلوى جيلاتين كما يظن. فكّر بعضو الشخص الذي كانا ملتحمان فيه معاً في جسد واحد، أي عضوي أنا، عضو الـ«أنا» المركزية، الأصيلة، وتذكّر السؤال التهكمي الذي طرحه يوماً أحد القراء السُذّج الأغبياء عن مصير خصيتي الفيسكونت ميداردو دي ترّالبا وما إذا كان كالفينو قد شطرهما أيضاً.

«ماذا يفعلون بكل هذه الأشياء، ومن يشتريها؟» تساءل بوتاميا مندهشاً وهو يفض صندوقاً آخر ويُخرج منه مجسماً أنثوياً لمنطقة المنتصف، مصنوع من مادة السليكون الناعمة، بعانة مزغّبة وعضو يحاكي العضو الحقيقي بدرجة كبيرة، ناهيك عن الردفان المكتنزان وفتحة الشرج الوردية: «تفضّل!»

رماه نحو ميزو الذي تلقفه، وصار بحوزته عضوين، أحدهما ذكري والآخر أنثوي، عقب بعدها قائلاً وقد اطلق قهقهة بالكاد خرجت: «بإمكانهما التزاوج الآن!»

تفاعل ميزو مع تلك الدعابة وضحك، لكنه لم يصدر صوتاً، وحاول ايلاج هذا بذاك، لكنه خجل من نفسه وكفّ عن الأمر. وتساءل هو الآخر:

«أين يصنعون هذه المنتوجات؟»

«في الصين وأعتقد في أمريكا أيضاً» أجاب بوتاميا: «ويبيعونها بأثمان باهظة»

«نعم بالتأكيد» قال ميزو هازاً رأسه، محدقاً بالعضوين، مرة في هذا ومرة في ذاك: «بما أنهما القوتان الاقتصاديتان الأقوى في العالم!» ويعني الصين وأمريكا.

«هل ستكتفي بالتفرج؟» سأل بوتاميا صاحبه، داعياً إياه إلى بعض التسلية ومشاركته في فض المزيد من الصناديق الكرتونية: «تعال ساعدني»

(٢)

ما زال النصفان المذهولان، يعبثان بتلك البضاعة المهربة مثل طفلين محرومين من الدمى والألعاب. نسيا نفسيهما وتحذير سائق الشاحنة لهما، نسيا أنهما مُهَرَّبان كأي عضو تناسلي من هذه الأعضاء، في داخل حاوية من المفترض أنها تحمل إلى العراقيين أسماكاً مجمدة. استمرا في فضّ الصناديق، واحداً تلو آخر، وفي كل مرة يكتشفان منتجاً جديداً يُذهلان أكثر وتزداد اللهجة الفضائحية السوقية والنكت الجنسية التي راحا يطلقانها بإلهام من تلك المواد، التي سبق وأن رأيتها مرة أو مرتين في عام ٢٠١٢، وكانت معروضة للبيع في سوق الشورجة وباب المعظم في بغداد.

وبالإضافة إلى تلك المجسمات والنماذج الصغيرة، كانت بعض الصناديق تحتوي على دمى كاملة بأعضاء جنسية وأطراف ورأس وشعر، وبأنماط وتركيبات متعددة تصل إلى ثماني عشرة تركيبة جسدية بخمس درجات لونية ووجوه مختلفة وجلود زرقاء وحمراء وخضراء تحتوي على حراشف بألوان متنوعة، وأنياب قططية، وآذان شيطانية، فضلاً عن وجود نماذج كاملة لدمى ذكرية، وأخرى أنثوية بأعضاء ذكرية، بالإضافة إلى منشطات ومنتجات جنسية أخرى مثل مراهم وعقاقير تطويل

وتضخيم وتضييق وتصغير الأعضاء والأثداء والأرداف، وتحاميل إعادة غشاء البكارة.

لا يعرف النصفان كم مضى من الوقت وهما محشوران في حاوية الدمى والأعضاء الجنسية تلك، لكنهما شعرا بالإعياء، فتوسدا ردفي دمية، وكانا على وشك أن يغفيا عندما شعرا بارتطام عنيف تلته اهتزازات وتشقلبات عديدة، وكأن الشاحنة راحت تتدحرج من علوٍّ في ذلك الحين.

«ما الذي حدث؟!» جاء صوت ميزو من مكان ما وسط الظلمة، وراح ينادي على بوتاميا: «هل أنت حي؟ هل أنت بخير؟ أين أنت؟»

كرر نداءه عدة مرات، وكان على وشك أن ينعى رفيقه لولا أنه استجاب لندائه في اللحظة الأخيرة.

«أنا هنا يا صديقي» صاح بوتاميا أخيراً بصوت مخنوق، وأزاح عنه الدمى والأعضاء الجنسية المكومة فوقه. كان الظلام شديداً، وثمة ريح باردة تسللت عبر باب الحاوية الذي فُتح بفعل الارتطامات: «أين نحن؟»

«لا أعلم» رد ميزو: «لقد انقلبت الشاحنة»

امتدت يد كل منهما في الظلمة الرطبة، وسط فوضى الأعضاء الكريهة، حتى أمسك أحدهما بالآخر، وراحا يخوضان بين كتل السليكون، مبللان بمادة هلامية بيضاء ذات رائحة أشبه برائحة بودرة الأطفال حديثي الولادة، يبدو أن مبتكري هذه الدمى والأعضاء استعاضوا بها عن السوائل المنوية. تقيأتهما الحاوية المطعوجة ووجدا نفسيهما تحت سماء صافية مزينة بالنجوم. شما رائحة زهر لا يعرفان نوعه، وسمعا نعيب بومة وخرير ماء في الجوار. يبدو أنهما في أحد

وديان كوردستان، حيث تنشط الدببة التي تختطف الرجال كما يروى على ألسنة الجنود أثناء الحرب مع إيران. تخيلا أنهما برفقة أنثى دب شبقة في أحد الكهوف. أرعبهما هذا المشهد التخيلي ونسيا تفقد سائق الشاحنة، وإلى أن تذكرا كان هناك أضواء تهبط باتجاههما، فلاذا بالفرار، يعين أحدهما الآخر في طريق متعرج وعر لا يعرفان إلى أين يؤدي في النهاية. وبعد أن سارا مسافة واطمأنا إلى أن أحداً لم يكن يتبعهما، استلقيا على أرض معشبة وغطا في النوم مثل جثتين.

أول من استيقظ في صباح اليوم التالي هو ميزو، وجد نفسه مستلقياً إلى جانب نصفه الآخر، في أحد الأخاديد الصخرية التي تحاذي جبل سنجار، بين المئات من العوائل، نساء، رجال، أطفال، وشيوخ، ومعاقين، ومجانين؟ ظن أنه في حلم، فعاد ووضع رأسه على الحجر الذي توسده مع رفيقه منذ الليلة الماضية، وأغمض عينيه، على أمل أن يفيق ثانية، ليجد نفسه في الواقع هذه المرة. أيقظه بوتاميا بصوت ذاهل كما لو أنه جاء لينبئ عن حدوث كارثة إنسانية.

«ما الذي حدث؟» تساءل ميزو الذي ما زال يدعك عينه الوحيدة ويعود ليفتحها على سعتها، غير مصدق: «هل جاء يوم القيامة؟!»

وعندما نظر إلى ما حوله بتمعّن، حيث يمكنه سماع عويل النساء وصراخ الأطفال، وأنين المرضى، وبكاء العجائز، ويرى الدخان المتصاعد من تحت القدور التي نصبتها النساء فوق أغصان مشتعلة تحاكي في احتراقها قلوبهن التي ستظل تندب إلى الأبد مكاناً اسمه سنجار. عندما أدرك النصف الأيسر، وهو يحول نظره هنا وهناك، أنه لم يكن يحلم عند افاقته الأولى، قال متفجّعاً:

«حتى في الكوابيس لا يوجد مثل هذا المشهد!»

«ماذا نفعل؟» سأله بوتاميا وهو يهرش جرحه المتورم الذي بدأ يحكه، وكذلك كان يفعل ميزو: «هل نغادر؟»

في تلك الأثناء، لاحظ النصفان نهوضاً جماعياً لحشود الأهالي الهاربين وتهيّئهم لصعود الجبل، وإكمال مسيرة الفرار التي بدأت من سنجار والقرى المتاخمة لها في ساعة متأخرة من الليلة الفائتة، بعد اجتياحها من قبل أفراد تنظيم الدولة الإسلامية، التي أشاعت في ديارهم القتل والنهب والسبي والدمار، في أكبر حملة تشهدها المنطقة منذ الفتوحات الإسلامية الأولى.

لم يكن أمام النصفين من خيار سوى أن يزجا نفسيهما بين الأهالي الهاربين، إلا أن هناك صعوبة بدأت تواجههما منذ البداية، بسبب عوقهما الفظيع. إذ كانا يقطعان نحو الأعلى مسافة قصيرة، مستعينين ببعضهما، أو مستندين على عصيٍّ كلٍ على حدة، قبل أن يخلدا إلى الراحة، وعادة ما تكون فترة راحتهما أطول من الزمن الذي يقضيانه في الصعود. وكان أولئك الأهالي قد حملوا معهم أثناء نزوحهم الجماعي الحاجات الضرورية التي التقطوها على وجه السرعة وهربوا باتجاه الجبل، كي لا تطولهم بنادق الإرهابيين. فهذا يحمل غذاء، وتلك تحمل ماء، وآخرون يحملون ثياباً وأغطية. وأما النساء فأغلبهن كن يحملن أطفالهن، وبعض الرجال حملوا آباءهم وأمهاتهم ممن بلغوا عمراً جعلهم غير قادرين على المشي. وقلة هم من هربوا بجلودهم فقط.

وفي غمرة الفوضى التي كانت تعم المكان، وانهماك الأهالي بالصعود، لاحظ النصفان امرأة ترتدي الزي الإيزيدي التقليدي، تجر كيساً ثقيلاً من الخيش المقوى تارة، وتدحرجه صعوداً تارة أخرى.

وكانت كلما تقدمت وزاد انحدار الأرض الجبلية، أفلت الكيس منها وتدحرج مثل صخرة سيزيفية، فتهرع هي في إثرة لتعيد المحاولة من جديد. كانت تفعل ذلك كما لو أنها في لعبة تحدي، فإما تتمكن من الصعود بالكيس أو تموت دونه، وقد بلغت من المجهود حداً أشعر النصفين بالشفقة إزاءها. فكشف أحدهما للآخر عن رغبته بمساعدة تلك المرأة التي لا يبدو أنها تنوي ترك الكيس الثقيل الغامض، حتى لو اضطرت إلى تسليم نفسها إلى الإرهابيين الذي كانوا في إثر الأهالي وقتها.

اتجها صوبها.

قال بوتاميا:

«قوّاك الله أيتها المرأة الطيبة»

وردّد ميزو بعده: «هل تسمحين لنا بمساعدتك؟»

نظرت المرأة إليهما بعينين سوداوين جميلتين رغم الهالتين الداكنتين اللتين أحاطتا بهما، والوجه المغبر، والشعر المجعد المائل إلى شقرة محترقة بفعل الشمس التي زادت في ذلك اليوم من معاناة الأهالي الهاربين. لم تكن مرتابة منهما، لكنها بدت كأنها ترثي لحالهما أكثر من رثائها لنفسها.

«هل نفعل ذلك أيتها السيدة؟» سألها ميزو مجدداً. لكنها لم ترد أيضاً، كانت تنظر إليهما بعين تردد كلمات آرثر رامبو: ربماً كان لي الشقاء، تلك النظرة الحائرة، الملتاعة، والمؤلمة في الوقت نفسه. عندئذ، باشر النصفان مهمتها المضنية، وظهرا في تلك الأثناء، بينما هما يدفعان الكيس، كنصفي خنفسانة راحت تدحرج أمامها كرة ثقيلة من الروث، تساعدهما المرأة بسحبه من الأعلى.

كان الكيس ثقيلاً فعلاً، كأنه عُبأ بالحديد، أو جثة حازت على ذلك القدر الغامض من الثقل الذي عادة ما يمتاز به الموتى. وكانا كلما تقدما متراً نحو الأعلى ازداد ثقل الكيس وخارت قواهما. لهذا كان تقدمهما بطيئاً كسلحفاة. أحس النصفان بالتعب، وأشفقت عليهما المرأة التي لا تبدو أنها تعبأ بالموت كثيراً، مما دفعها إلى الكلام أخيراً، فقالت:

«اتركاني هنا أيها النصفان الطيبان، أنتما ضعيفان، بالكاد تعينا نفسيكما، ولا قدرة لكما على هذه الأحمال»

ورجتهما أن يتركانها.

نظر النصفان إلى بعضهما البعض وأوشكا على البكاء وهما يسمعان المرأة تكمل ما بدأته بصوت أمومي حميم:

«انصرفا إلى شأنكما، لا يقوى على حمل الأثقال سوى أهلها. إن بلغت قمة الجبل كان ذلك خيراً على خير، وإن لم أستطيع فربما كان الموت بالنسبة لي أرحم من هذه الحياة التي ترونها!»

فقال بوتاميا بنبرة أقرب إلى الشفقة:

«لماذا لا تتركين هذا الكيس وتنجين بنفسك؟»

«لا أستطيع أن أتركه» ردت المرأة وسالت دمعة من عينها اليمنى: «إن فيه ذكرى عزيزة عليّ.. لا أستطيع»

في تلك اللحظة، وبينما كان النصفان يحاولان اقناع المرأة بالصعود معهما، فاجأهما صوت أجش جاء من الأعلى على مبعدة أمتار قليلة:

«إلى متى تظلين حاملة أحجارك اللعينة هذه يا خوخي؟!» صاح الرجل في الأعلى ثم وجه كلامه إلى النصفين: «إنها مجنونة، لا تعبئا بها وانفذا بجلدكما أيها النصفان الغريبان!»

جاء بعدها رجل وامرأة يبدو أنهما من أقاربها، كانا يحملان أمتعة وطفليهما. حاولا اقناعها بترك الأحجار وصعود الجبل. خوّفاها بالقتل والاغتصاب، لكن من دون جدوى، فتركاها عند هذا الحد وأكملا صعودهما.

«أحجار؟!» صاح بوتاميا بالمرأة غير مصدق: «ما قصة هذه الأحجار؟!»

«يبدو أنها مجنونة حقاً» ردد ميزو هامساً في أذن صاحبه، ثم توجه بالكلام إلى خوخي قائلاً: «هل تعلمين؟ لقد رأينا قبل قليل أحدهم يترك ابنه المعاق في الأسفل، وآخر ترك أمه العاجزة. فما حاجتك أنتِ بهذه الأحجار يا امرأة؟!»

«أنا أقول لكما» قالت خوخي، وكأنها انتظرت كل تلك الأعوام الطويلة لتجد مبرراً يجعلها تروي قصتها: «لكن عداني ألا ترويان ذلك لأحد إلا إذا متّ»

(٣)

وعد النصفان المرأة بألاّ يحدثا أحداً بقصتها، وراحا يصغيان لها وهي تتحدث بصوت عالٍ لكي لا يضيع بين لغط الهاربين ووقع أقدامهم التي أثارت المزيد من الغبار في تلك الظهيرة القائظة، وكأنها احدى نساء الديكاميرون اللائي يروين حكايات مسلية بينما الناس يموتون بالطاعون في الجوار، لكن الفرق الوحيد هو ان قصة خوخي لم تكن مسلية.

«إنها أحجار حبيبي!» قالت خوخي وراحت تضغط أصابعها المتشققة على باطن كفها، وتطأطئ رأسها، فيظهر على وجهها ما يشبه الحياء، كما لو أن أحداً سألها إن كانت تقبل بالزواج منه، ثم سرعان ما عادت إلى لهجتها الجادة قائلة: «كان اسمه خالد، وكان مسلماً من عرب الموصل. كنا متحابين. كان هو ما يزال في سنته الأولى في الجامعة، وكنت أنا أسبقه بمرحلة عندما وقع احدنا في غرام الآخر. ومثل هذه العلاقات تُعد جناية قد تصل عقوبتها إلى قتل المرأة في حال اكتشفتها الطائفة التي لا تتهاون أبداً في مسألة التزوج من غير الإيزيدي.

عندما أنهيت دراستي الجامعية، كان خالد ما يزال في سنته الدراسية الأخيرة، مما أدى إلى انقطاعنا عن بعضنا، ولم أعد أراه إلا لماماً، إذ صار يتردد على بيت عمه في سنجار ذات الأغلبية الإيزيدية، والتي لا

تخلو من بعض البيوتات العربية في أطرافها، ومن ضمنها بيت عم خالد. فكان ينتهز فرصة تواجده هناك بحجة زيارتهم ليمر من أمام بيتنا ويرمي خلسة رسائله المزينة والمعطرة والمكتوبة بخط منمق إلى شرفتي. فأتلقفها أنا واقرأها بفرح غامر مثل طفلة صغيرة، في حين أحتفظ بالحجارة التي كانت تحملها.

مضت قرابة خمسة سنوات ونحن نتواصل بهذه الطريقة التي لا تخلو من خطورة، إلا أن الحب أعمى كما تعرفان. وحدث أن حالت الأسباب الدينية والعرقية والقومية دون استمرارنا، خصوصاً بعد حادثة إعدام فتاة ايزيدية على أيدي أبناء الطائفة، بعد أن اكتشفوا أمر علاقتها بشاب مسلم. هشموا رأسها بالحجارة من دون رحمة إلى إن ماتت المسكينة. فافترقنا عند هذا الحد، ولم يعد أحدنا يرى الآخر أبداً. سمعت بعدها أنه سافر إلى خارج العراق، فلم أتحر أخباره، وبقيت أجتر ذكرياتي معه طيلة الأعوام الماضية، واحتفظ برسائله وأحجاره التي ملأت منها هذا الكيس الذي يبدو بحجم صخرة ثقيلة، هي ذكرى خمسة أعوام من الحب»

وبينما كانت خوخي تنهي قصتها على هذا النحو، حدثت دربكة مخيفة، وثمة إطلاق نار يأتي من الأسفل، وعلى ما يبدو أن أفراداً من تنظيم الدولة أصبحوا قريبين.

«انهضي!» صاح بوتاميا بخوخي: «هيا يا ابنة الناس!»

أراد النصفان أن يُنهضانها، لكنهما عجزا حتى عن تحريكها. كانت تحتضن كيس الأحجار، صخرة الحب الثقيلة تلك، بإصرار سيزيفي عنيد وهي تصرخ بنبرة وحشية:

«اتركاني وشأني!»

كان اطلاق النار قد ازداد حدة في تلك الأثناء، وسقط بعض الأشخاص وتدحرجوا نحو الأسفل مخضبين بدمائهم، يتبعهم عويل نسائهم وصراخ أطفالهم، وندب أمهاتهم. حينذاك، لم يكن أمام النصفين سوى الهروب نحو الأعلى. فعلا ذلك رغماً عنهما، باكيين، متعجبين من وفاء المرأة التي تُدعى خوخي. وصلا إلى أعلى الجبل متأخرين كحال الكثير من المعاقين وكبار السن والعجزة في مثل هذه الظروف. لبثا على الجبل ثلاثة أيام قبل أن تسنح لهما الفرصة في الهبوط منه، مع عدة آلاف من النازحين، عبر الجانب الغربي الذي عبروا منه سهلاً إلى الحدود السورية، ومنها دخلوا إلى إقليم كردستان.

هناك في كردستان، ارتاب بعض أفراد البيشمركَة بالنصفين اللذين كانا يتعاطيان مع الأحداث كما لو أنهما نازحان فعلاً. ومنذ أن استجوبوهما للمرة الأولى، وهما يخططان للخروج من مخيم النازحين. كانوا يرسلون في طلبهما بشكل يومي، على مدى الأيام السبعة التي قضياها في ذلك المخيم، ويوجهون لهما أسئلة لا يألفها سوى الغرباء. ما اسميكما؟ هل أنتما نازحان؟ أين تسكنان؟ هل أنتما إيزيديان؟

«نحن عراقيان» قال بوتاميا، أخرج منديلاً من جيبه التقطه حين كانا يصعدان الجبل، مخط فيه، ثم عاد لينبش أنفه: «أنا اسمي بوتاميا وهذا رفيقي ميزو»

«عراقيان؟» قال الضابط الذي يجلس إلى مكتبه خلف علم الأقليم، وضع يديه على مسندي الكرسي كأنه يريد النهوض، وأكمل: «وهل نبدو لكما خلقا من الجن؟» في إشارة إلى فتوى المرجع الشيعي محسن الحكيم التي قال فيها أن الكورد معشرٌ من الجنّ. ثم طلب منهما «هويتهما»

«عفواً أيها الضابط: «تدخل ميزو بطريقة دوبلوماسية تعجب منها بوتاميا: «نحن عراقيان إيزيديان.. هذا ما يعنيه رفيقي. لكن للأسف الشديد ليس بحوزتنا الآن ما يثبت ذلك. لقد هربنا بجلودنا كما ترى، ولم نجلب معنا «هوياتنا».

ألقى عليها الضابط نظرة جاحظة وقال لهما أنهما سيخضعان للمراقبة، حتى تثبت صحة ادعاءهما. ولما كانا يعلمان بأنهم سيعرفون حقيقتهما من خلال أهالي سنجار الذين سينكرونهما بالتأكيد، عزم النصفان على الهروب من المخيم في أقرب وقت ممكن. وفعلا ذلك في اليوم نفسه، تسللا ليلاً من خلال إحدى الثغرات التي انطلقا منها وتاها من جديد في سهول كردستان وبين وديانها وجبالها. هبط عليهما الليل، فلاذا في أحد حقول الخشخاش السرية، لكنهما وجدا هناك من يطردهما بعد ساعة. واصلا بعدها المسير بمساعدة عصاتين من الصنوبر وجداها في الطريق وشذّباها، حتى انتهيا إلى مكان رأيا أنه مناسب للتخييم. لكنهما قرّرا ألا يناما. كانا يخشيان أن تأكلهما الذئاب. فأوقدا ناراً على مقربة من أحد الجداول، ولم يغمض لهما جفن حتى ساعة متأخرة من الليل، وحين هوّمت عيناهما بالنعاس خطرت لهما فكرة، وهي النوم على طريقة الذئاب. أي، يغفو أحدهما، في حين يبقى النصف الآخر يقظاً، وهكذا. تصرفا كما لو أنهما رجلان وليسا نصفي رجل مشطور.

استيقظ النصفان في ضحى اليوم التالي على صوت بكاء آتٍ من مكان ما ليس بعيداً، فنهضا من مكانهما، حيث كانا نائمين، وراحا يتبعان الصوت حتى عثرا على مصدره قريباً من منحدر يفضي إلى إحدى القرى. هناك، حيث وجدا شاباً كردياً يجلس على صخرة تظللها شجرة

بلوط، وكان يجهش بالبكاء مثل طفل تائه، وهذا ما ظناه في البداية، قبل أن يسألاه:

«ما الذي يبكيك يا فتى؟»

رفع رأسه. كانت عيناه محمرتين من شدة البكاء. أجابهما بلغته الكردية التي لم يفهما منها شيئاً. وبعد دقيقة من الصمت والبكاء استأنف كلامه، لكن هذه المرة بالعربية التي يجيدها الكثير من الأكراد العراقيين على نحو جيد بحكم اختلاطهم الوثيق بالعرب. قال أن اسمه جومرد، وأنه يبكي على بغله الذي انتحر:

«رمى نفسه من فوق المنحدر، قتل نفسه. مسكين بغلي، ماذا أقول لأبي الآن؟»

وطفق يبكي مجدداً.

وبما أن النصفين كانا يعرفان السبب وراء انتحار البغال بهذه الطريقة، قالا له بينما هما يواسيانه بالطبطبة على كتفيه:

«كان عليك ألا تحمله فوق طاقته أيها الشاب»

«لم أفعل» قال الشاب وهو يمسح دموعه: «بل بالعكس كنت رفيقاً به، واعتنيت به كأب وليس كبغل. هل تصدقاني أيها النصفان الطيبان؟»

هزّا رأسيهما، وجلسا إلى جانبيه على الصخرة ليصغيا إليه وهو يروي قصته مع البغل.

(٤)

كان أبي ويُدعى خوكر بائعاً جوالاً، يبيع مختلف الحاجيات على سكان الجبال والوديان في كردستان العراق. ويستخدم لأجل ذلك بغلاً قوياً وجميلاً، يعتني به، لا يحمله أحمالاً زائدة، ويزينه بطريقة عادة ما تكون محط إعجاب الزبائن. فينجذبون إلى زينته أكثر من انجذابهم للسلع التي يحملها.

عندما بلغ أبي السبعين من عمره، وأيقن أن هذه هي نهاية المشوار، وأن عليه قضاء ما تبقى من عمره في النوم والراحة، أراد أن يورث أحد ولديه مهنته كبائع متجول. فاختارني لأجل هذه المهمة، لكرمي وأمانتي وتفانيٍّ من أجل العمل. مؤثراً إياي على شقيقي الأكبر دلسَخت عديم الرحمة، الذي يسيء معاملة البغال على الدوام. لقد سلخ ظهر أحدها يوماً بالماء الساخن وراح يسوّطه ويتشفى بآلامه ليسرع، ويحمله فوق طاقته مما دفعه إلى الانتحار. سحقاً له من أخ، كم هو قاس وبلا قلب!

أوصاني أبي قائلاً:

ـ تنتحر البغال عندما تُحملها فوق طاقتها. فرفقاً بالبغل يا ولدي، وتحمّله أنت أيضاً، فقد قيل: من يسوق البغل يتحمل ضراطه!

فجر اليوم التالي، أي قبل ساعات، انطلقت مع بغلي الحبيب في

أول رحلة عمل. تذكرت وصية والدي بشأن البغل، بينما نحن نصعد جبلاً لنبلغ قرية هناك.

قلت للبغل وأنا أمسّد بيدي على عنقه:

ـ لا بأس عليك أيها البغل اللطيف، سأخفف عنك بعض الأحمال

وترجلت من ظهره، وحملت عنه كيسين مليئين بأدوات الزينة النسائية. وعندما بلغنا ربع المسافة، أطعمته، ثم حملت عنه باقي الأحمال.

كنت أقول له:

ـ لا عليك أيها البغل الطيب. اشكر ربك أن أبي لم يسلمك إلى أخي الأكبر، لكنت الآن جثة في أحد الوديان، تأكل لحمك الذئاب. إذ سيجبرك على الانتحار عاجلاً أم آجلاً. لكنك معي على أية حال. أرجو أن تطمئن. هل تعبت؟

كنا قد قطعنا نصف المسافة صعوداً، عندما قلت للبغل: حان الآن وقت الطعام.

«لكن.. هل تسمح لي؟» قاطعه بوتاميا قائلاً: «لو كنت مكان ذلك البغل، لقلت لك: لم يمضِ الكثير من الوقت منذ أن أطعمتني يا عزيزي جومرد!»

«لا أعرف، ربما أراد أن يقول ما قلته الآن، لكنه لم يجد السبيل إلى ذلك» أردف جومرد ثم راح يكمل قصته:

«في حينها، أخرجت كيساً مليئاً بقشور البطيخ وأفرغتها أمام البغل، الذي لا يبدو أنه جائع في تلك الأثناء. ولا يبدو عليه الرضا مما يجري. ولا أعرف السبب.

وبخته، لكن برفق:

ـ لم تأكل شيئاً أيها البغل الصالح! حسناً، لقد أوصاني أبي أن أحتمل ضراطك. كدت أن أساله إن كانت البغال تضرط، لكن يبدو أنه قصد بذلك العناد!

استأنفنا المسير حتى بلغنا ربية عسكرية على الطريق، وطلبت ماء من الجنود المرابطين هناك، مقابل علبتي سجائر، لأحمم به البغل.

«تحممه؟!» قاطعه ميزو: «عذراً، لكني أجزم أن البغل المسكين تمنى وقتذاك لو كان تحت رحمة شقيقك الاتكالي، المتذمر وسيء المعاملة، بدلاً من هذا التدليل الذي لا بد أنه كان يشعره بالغربة الروحية!»

«ماذا قلت؟» سأله جومرد.

«لا شيء» أجاب ميزو وهو يطرد ذبابة: «أكمل من فضلك»

«نعم» قال جومرد وتابع حديثه من حيث توقف: «استأنفنا المسير مرة أخرى، وكنا كلما بلغنا محلاً به ماء أو نبات، أطلقت البغل، متمنياً له وقتاً سعيداً، وبدوت في تلك الساعة كما لو أني أرعى بقرة وليس بغلاً، حتى وصلنا إلى هذا المنحدر، فتوقفنا هنا. نظرت إلى البغل نظرة إشفاق. اقتربت منه. انحنيت حتى صرت تحته وحاولت حمله...»

«حاولت حمله؟!» قاطعه النصفان في الوقت نفسه، ثم عقّب بوتاميا قائلاً وهو يضحك: «لا بد أن البغل قال في سره: ماذا تظن نفسك فاعل أيها الشاب الأبله جومرد؟!»

«أنتما تسخران مني؟» قال جومرد وقد ضيّق عيناه وهو يتنقل بنظراته يميناً ويساراً حيث يجلسان.

«لا أبداً» هتف ميزو: «أكمل من فضلك وقل لنا هل حملته؟»

«لا.. لم أستطع حمله. حاولت ذلك مراراً ولم أقدر. كان ثقيلاً جداً. وبينما أنا على هذا الحال، وإذا بالبغل المسكين يفلت مني ويركض باتجاه المنحدر، ويلقي نفسه في الوادي!»

وما أن انهى جومرد قصته مع البغل، حتى عاد إلى البكاء، وعاد النصفان لمواساته. قال له ميزو مهوّناً عليه الأمر:

«أنت طيب يا صديقي، وبلا قلب»

فألقى بوتاميا على صاحبه نظرة متوعدة، قائلاً: «ماذا تعني؟»

«لا شيء!» رد ميزو، وراح يطرد غيمة مشاجرة وشيكة خيّمت عليهما في ذلك الحين. وكما لو أنهما كانا ينتظران منه ذلك، لم يجد النصفان مانعاً حين شكرهما جومرد، ثم دعاهما إلى بيته كضيفين.

(٥)

«أبله! زعق الأب خوكر بوجه ابنه جومرد موبخاً إياه: «ألم أقل لك ألاّ تحمل البغل فوق طاقته؟!»

لكنه فعل العكس على أية حال، حمّله فوق طاقته كحيوان. عامله كإنسان، مما أشعره بالغربة عن حيوانات جنسه. ومثلما أنه مسخر لحمل كمية محدودة من الأثقال، كذلك أظهر ذلك البغل أن لا شيء يمكن أن يميّزه إذا ما عامله جومرد كإنسان، فالتعامل معه بهذه الطريقة هو بمثابة الحمل الزائد الذي طالما دفع البغال إلى الانتحار. كأنه يقول لجومرد في تلك الأثناء: أنا حيوان، ارفق بي، لكن عاملني كبغل. وبمعنى أقرب: نعم، أنا بحاجة ماسة إلى الطعام والراحة، لكنني لم أولد لأرعى كبقرة!

وبما أن الزيادة كالنقصان، فعادة ما تقود الشيء الذي تُثقل كاهله إلى الهلاك، في الوقت الذي ما زالت تُشعر المتسبب بها، وهو الشخص الطيب والساذج وربما الأبله في نهاية المطاف، بفداحة الخسارة والإحساس بالندم. ويحدث العكس بالنسبة لشخص عديم الرحمة، الذي تزداد لا مبالاته وتتضاعف قسوته وتشفّيه بآلام الآخرين كلما ارتفع معدل الضحايا ممن يسقطون بسبب أحماله الزائدة. وإذا ما أردنا تعريفاً يتلاءم مع ما نريد سرده في الصفحات القادمة، فيمكن القول أن الحمل الزائد هو عبارة عن بلاهة جومرد المتأتية من طيبته وحسن نيته واندفاعه

المفرط لعمل الخير، وهو أيضاً قسوة دلسخت، وفظاظته، وسوء نيته، واندفاعه المفرط لارتكاب الشرور. فالحمل الزائد هو ما دفع البغلين إلى الانتحار، بغل جومرد وبغل دلسخت، ثم أشعر هذين الشقيقين، الأول بالحزن وفداحة ما خسره بسبب تدليله الزائد للبغل، والثاني بالتباهي وعدم لا مبالاته بما خسره بسبب استخدامه المفرط للقسوة ضد بغله. وبتعبير أدق: جومرد بلا قلب كما وصفه ميزو، لأنه تعامل مع البغل كما لو أنه إنسان. ودلسخت هو الآخر بلا قلب حسب تعبير جومرد، لأنه عذّب بغله وحمله على الانتحار. وبتعبير أكثر دقة: حينما يغضب جومرد من دلسخت يتوقع الأب أن يتصالحان بسرعة لأن جومرد طيب وابله وبلا قلب.. وعندما يغضب دلسخت من جومرد فعادة ما يكون ذلك مدعاة للقلق لأن دلسخت شرير وانتهازي وبلا قلب أيضاً. فالذين لا قلوب لهم اما ان يكونوا شياطين أو ملائكة.

في الوقت الذي كان الأب خوكر يوبخ ابنه الأصغر جومرد، كان الابن الأكبر دلسخت يقف جانباً ويكتم ضحكته بيده، وعيناه تنضحان شماتة بأخيه. في حين جلس النصفان على تخت في غرفة الضيوف، وكانا متعبين ويبغيان الراحة في مثل هذه الساعة من الليل، بعد أن أنهكهما المسير طوال الساعات الماضية، حتى وصلا برفقة جومرد إلى بيت الحاج خوكر. لكنهما آثرا قضاء بعض الوقت مع الأب وابنيه، وكانا سيسألونهم عما إذا كانت هناك مكتبة قريبة يستطيعان ارتيادها في الغد. إلا أن ثمة من قطع عليهما ذلك، وكان هذا دلسخت:

«هل سمعتم الخبر؟ يقال أن البيشمركَة يبحثون عن رجلين يُشك بأنهما إرهابيان كانا مندسين مع النازحين في المخيم التي أقامته الحكومة لهم، لكنهما اختفيا فجأة، ولم يُعثر لهما على أثر حتى الآن»

«صدقاً؟» علّق الأب خوكر ثم عاد ليجلس بعد أن وقف ما أن تلا دلسخت الخبر عن الرجلين. وكان هذا الأخير ينظر إلى النصفين شزراً، كما لو أنه على وشك القبض عليهما.

«نحن لسنا رجلين يا سادة!» صاح بوتاميا فجأة فانتبه إليه الجميع ما عدا الأب خوكر الذي لا يبدو عابئاً في تلك اللحظة إلا بخبر الرجلين اللذين يُشك أنهما إرهابيان. ولم تنفع الحمحمة التي أطلقها ميزو بقصد التنبيه ومنع رفيقه من مواصلة الحماقة التي تفوّه بها:

«نحن نصفا رجلٍ كما ترون، وليس لنا شغل مع الإرهاب!»

وكأنه لم يسمع شيئاً، تثاءب الأب خوكر ثم قال:

«رحماك يا رب أجرنا! تُرى أي طريق يسلك بنا هذا البلد؟» لعلكما سمعتما أيها النصفان العزيزان بما حل بالإيزيديين في سنجار»

فهزّ النصفان رأسيهما بأسفٍ وتوقعا حديثاً وشيكاً للأب خوكر بهذا الشأن، لكنهما لم يتذمرا، إنما بديا مهتمين لسماع ما بدأ به الأب فعلاً في ذلك الحين:

«حدثت قصص كثيرة مؤلمة ومحزنة، وهذه واحدة منها، رواها لي أحد الناجين من براثن تنظيم الدولة الإسلامية في سنجار.

القصة تتحدث عن امرأة من قريباته. هذه المرأة كانت مجنونة على ما يبدو، ففي الوقت الذي كان الجميع من أبناء جلدتها الهاربين إلى أعلى الجبل، يحملون معهم أمتعتهم وأطفالهم وعجائزهم ومعاقيهم، كانت هي تدحرج كيساً مليئاً بالأحجار. نعم أحجار! لكن ما الذي تفعله بهذه الأحجار وما هي قصتها معها، لا أحد يعلم. فهي مجنونة لا عقل لها. ساذجة وطيبة وغبية بلا قلب. وقصة هذه الأحجار ليست بجديدة عليها. فقد اعتادت على حملها أينما ذهبت، وفعلت ذلك على مدى

الأعوام الخمسة عشر الماضية، حتى يئس منها أهلها، واستعصت حالتها على أطباء النفس والسحرة والعرفانيين، قبل أن يقتنع الجميع أنها فقدت عقلها، فالجنون فنون كما يقول المثل، وجنون هذه المرأة انصب على الأحجار. هل ترون ذلك؟ الحمد لله الذي لم يبتلِنا بما ابتلى به هذه المرأة المسكينة.

على أية حال، لم تفلح المرأة المجنونة من بلوغ أعلى الجبل لتعبر بعدها إلى بر الأمان. كانت تدحرج كيس الأحجار بمشقة كبيرة، باذلة من أجل ذلك أقصى جهدها وقوتها. لكنها، وفي كل مرة توشك على الوصول، تنهار قواها، وتفلت الكيس، فيتدحرج إلى الأسفل، لتعيد المحاولة من جديد. وبالتالي، استطاع الإرهابيين، الذين كانوا يطاردون النازحين، من اللحاق بها والقبض عليها ومن ثم اقتيادها مع كيس أحجارها إلى مكان أعد سلفاً لاحتجاز الرهائن.

يقول قريبها الناجي من الموت المحقق أنهم فصلوا النساء عن الرجال. فأما الرجال فإلى الإعدام نحراً، أو اعتناقهم الإسلام. في حين سيقت النساء إلى سوق النخاسة في الموصل لبيعهن هناك. ومن ترفض يكون مصيرها الرجم طبقاً للشريعة. الأمر الذي لم تعد امرأة الأحجار تعبأ به كثيراً»

لم يكد الأب خوكر ينهي حديثه عن امرأة الأحجار المجنونة، حتى سُمع شخير دلسخت الذي كان يميل برأسه جانباً كل حين ليلامس كتف شقيقه جومرد قبل أن يعود إلى وضعه السابق، فيبدو كما لو أنه تلقى صعقة كهربائية. انصرف الجميع بعدها إلى النوم، بما فيهم النصفان اللذان تلمسا طريقهما إلى غرفة حجرية مؤثثة على الطراز التقليدي في مدن شمال العراق.

«تظن إنها هي؟ خوخي؟»

قال ميزو من مكانه، حيث يرقد على سرير لصق الجدار من جهة اليمين، في حين كان بوتاميا يرقد على السرير الآخر في الجانب الأيسر، وبينهما مساحة أقل من المترين مفروشة بسجادة كاشان عتيقة. وثمة نافذة بإمكان المرء أن يطل منها على فناء خارجي مكشوف، وأبريق ماء مع قدح وضعا على طاولة بين السريرين.

«لو لم أر تلك المرأة بعينيّ لكذبت هذه القصة» قال بوتاميا.

«هل تبدو قصة غير مألوفة؟» سأله ميزو.

«ربما» قال بوتاميا بصوت كسير كأنه انطلق بعد طول عناء: «كما أنها تبدو ناقصة»

رفع ميزو رأسه قائلاً: «كيف؟»

«لا أعرف» قال بوتاميا: «لكن بودي لو أعرف ماذا حدث لها بعد ذلك»

«وماذا يمكن أن يحدث لمعزة بين الذناب؟» قال ميزو وهو يدس يده تحت رأسه ويحدق بالسقف، ورفع قدمه ليضعها على القدم الأخرى فجاءت في الفراغ، إذ فاته أنه ما زال نصفاً، ثم ردد بصوت مثقل بالنعاس: «مسكينة خوخي وطيبة وغبية»

«نعم» قال بوتاميا وكأنه يتهجّد:

«وبلا قلب.. مثلي!»

أخرج بعدها مفكرتي من الحقيبة، وراح يقرأ. أما ميزو فقد غط في نوم عميق، ويبدو أنه يحلم الآن.

(٦)

دائما ما أتساءل: لماذا وُضع القلب، وهو الذي من المفترض أن يكون ملكاً للأعضاء، والمحرك الأساسي في جسد الإنسان، والمضخة التي رهن الله حياة البشر بعملها طوال الوقت. لماذا حُشر في الجهة اليسرى، الجهة الأضعف والأقل فعالية في أغلب الأحيان؟ في حين أن مركز القوة دائماً ما يكون في جهة اليمين الخالية إلا من الأنسجة والعضلات. أكثر هدافي كرة القدم يسجلون الأهداف بالقدم اليمنى. ورماة الرماح والأقراص والأثقال يرمون باليد اليمنى. أعظم الروايات كُتبت باليد اليمنى قبل اختراع الآلة الكاتبة والحاسوب. الغريق يرسل تلويحته الأخيرة باليد اليمنى. تناول الطعام، ودق المسامير، والعزف على الكمان، والضغط على الزناد، وإطلاق النار، والطعن بالسيوف والخناجر والسكاكين، توقيع تصاريح إلقاء القنابل النووية على المدن المأهولة، والضغط على زر إطلاق تلك القنابل، الضربات القاضية، ومصارعة الأذرع، ورمي كرات البولينغ. كل ذلك يجري بفعل الجانب الأيمن، وفق ما يمتلكه من رقة وبطش، خير وشر، محبة وكراهية، سلمية وعدوانية.

بعد كل هذا، ماذا يفعل جهاز السيطرة النوعية الذي يُسمى قلباً على

الضفة الأخرى، العاطلة، التي لا يبدو أن ثمة خير يرتجى منها؟ حتى أننا لا نجد من يكتب باليد اليسرى سوى قلة ضئيلة قياساً بمليارات الأشخاص ممن يكتبون ويأكلون ويشيرون ويركلون ويحركون الأشياء وينقلون بيادق الشطرنج، ويقتلون باليمنى.

اليد اليمنى هي الأقوى. إنها الآلة الباطشة على مر الزمن، ولا أظن أن قابيل قتل هابيل من دون أن يستعمل يده اليمنى، أو أن كَلكَامش صرع خمبابا عفريت غابة الأرز بيده اليسرى التي عادة ما تقضي أوقاتها في شطف المؤخرات بعد التغوط، ونبش الأنف لاستخراج المخاط، وممارسة العادة السرية، وطرد الذباب.

لقد جعل كالفينو قيمة الشر في نصف الفسكونت الأيمن، معتمداً بذلك على خلوّه من القلب، في وقت ما زلنا نردد أن فلان من الناس بلا قلب، أي أنه ساذج وسطحي، وربما طيب إلى درجة تقترب من البلاهة أحياناً، لأنه وببساطة مفرط في التسامح، ناء عن الشرور، يحمل وصية يسوع في جيبه طوال الوقت، وخداه متورمان من كثرة الصفع، لكنه يحاول أن يظهرهما كما لو كانا متوردين.

إذن.. هل هو الانحياز الذي تفرضه الآيديولوجيا هو من دفع كالفينو إلى وضع وزن الشر بأكمله في نصف الفيسكونت الأيمن؟ أم أن المسألة تقتصر على خلو الجهة اليمنى من القلب فحسب؟ آخذين بنظر الاعتبار التعبير المجازي الآخر، ونحن نصف القتلة وعديمي الرحمة بأنهم بلا قلوب أيضاً؟ وهذا يوصلنا بطبيعة الحال إلى أن هناك نوعين من عديمي القلوب، أو الخالين من القلوب، أو بصريح العبارة: الذين بلا قلوب. لكنهما متناقضان أخلاقياً وعاطفياً.

شخص بلا قلب، لكنه ساذج، طيب وبالتالي أبله.

شخص بلا قلب، لكنه قاتل، سادي، ومصاص دماء.

فأنا حينما يتم استغلالي من قبل أحد الأصدقاء للمرة الألف، سرعان ما أهدأ، ويزول غضبي، واتقبل اعتذار ذلك الصديق برحابة صدر، كأن شيئاً لم يكن، ثم أقف على أهبة الاستعداد، بانتظار أن أُستغل من جديد، ومن الشخص نفسه، ومن دون أن يرف لي جفن. لأنني، ببساطة وعلى سبيل المجاز بلا قلب. في حين هناك من يعود إلى الجثة نفسها مرات عديدة لينكّل بصاحبها، وبأبشع الطرق، لأنه، وعلى سبيل المجاز أيضاً، بلا قلب.

أنا عديم الدراية والفراسة، وهو عديم الرحمة. وكلانا بلا قلب.

أتذكر بهذا الشأن قصة شعبية تتداولها الأمهات العراقيات ما أن يشعرن بالخطر ويلاحظن البوادر الأولى لتبدّل طباع أولادهن بعد الأسبوع الأول من الزواج، ويردن بذلك تذكير أولئك الأبناء بأن من حملن بهم، وأنجبنهم وأرضعنهم، وقمن بتربيتهم والاعتناء بهم والسهر على راحتهم، وإطعامهم، وإكسائهم، وتحمل عفاطهم وضراطهم وبرازهم كل تلك السنين، هنّ الأمهات لا غيرهن وليس الزوجات.

تحكي القصة عن رجل بلا قلب، حسب التعبير المجازي للقساة قلوبهم، قتل أمه بتحريض من زوجته، كانت بلا قلب هي الأخرى، والتي لم تكتفي بذلك، إنما طلبت منه أن ينتزع قلب الأم المسكينة ويأتيها به. وقد فعل الزوج ما طلبته زوجته، اقتاد أمه في ليلة ظلماء إلى مكان ناء خلف أحد التلال، حيث قام بقتلها هناك وانتزاع قلبها. وما ان انتهى كل ذلك وأراد الانصراف تاركاً وراءه أمه بلا قلب، حتى تعثر

بحجر ووقع. فسمع صوتاً مألوفاً جاء من خلفه، صوتاً حميماً، رخيماً، طالما سمعه منذ أن كان في بداية تعلّمه المشي، حين كان يمشي خطوة ثم يقع أرضاً، فينهض، ويمشي خطوة أخرى، ويقع مجدداً، وفي كل مرة يقع يأتي ذلك الصوت الحنون ليحط في أذنه قائلاً:

«اسم الله!»

ولا عجب أن يصدر ذلك الصوت من جثة تلك الأم في حينها، فهي بلا قلب أيضاً. بلا قلب ليس لأنه انتزع قلبها، بل إنها بلا قلب كونها ما زالت تظن حتى تلك اللحظة أن هذا الوغد، القاتل، وعديم الرحمة هو ابنها، فتعقّب على سقوطه بتلك العبارة الرحيمة: اسم الله!

لقد ضخّ كالفينو في نصف الفيسكونت الأيمن كل شرور اليمينيين، الذين بلا قلوب، القتلة، الساديين، المتشددين، ومصاصي الدماء. فنصف الفيسكونت الأيمن هو الآخر قاتل، متسلط، يحكم على الفلاحين بالإعدام لأتفه الأسباب، يحرق المجذومين، ويطارد الحسناء باميللا، ويعمد إلى قتل الطائر الذي يحبه والده، وهو يعلم أنه كان يقتل الأب نفسه. ومن جانب آخر، يجعل كالفينو وزن الخير بأكمله في نصف الفسكونت الأيسر، الذي يصل في طيبته المفرطة إلى أقصى حدود البلاهة والسذاجة. لكن لماذا يا تُرى؟ هل لأنه وعاء القلب فقط، أم أن الأمر كما ألمحنا آنفاً، يتعلق بالآيديولوجيات. وإذا كان الأمر متعلق بهذا الجانب، فلماذا جعل الكاتب نصف الفسكونت الأيسر يبدو ساذجاً وأبلهاً من فرط طيبته؟ لأنه، وببساطة أيضاً، أراد محاكاة غباء اليسار وانتقاد الكثير من مواقفه الغامضة. لكنه لم يحاول بعد انتقاد ما هو أكثر من كونه مجرد غباء أو سذاجة أو حسن نية تتحول بمرور

الوقت إلى بلاهة محضة، كما تحولت لدينا عندما اندمج اليسار العراقي مع حزب البعث الحاكم ضمن جبهة واحدة اطلقوا عليها اتحاد الجبهة الوطنية في السبعينات.

لكن، هل حقاً أن كالفينو لم يلاحظ أن هناك يساريين بلا قلوب أيضاً؟ قتلة، ساديون، متشددون ومصاصو دماء. يسار ستاليني، يسار تشاوشيسكوي، يسار ماوي، فهؤلاء الذين ينتمون إلى الجهة التي كان من المفترض أن تحمل قلب العالم كما أراد ماركس وانجلز ولينين، هم في الحقيقة عديمو الرحمة، وعلى سبيل المجاز: بلا قلوب»

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل حينما قرر بوتاميا أن يترك المفكرة وينام. فالأنصاف مثله لا يشعرون بالأشياء فطرياً، وليس للغريزة عليهم من سلطان. إنهم يقررون، ولا يشعرون. حتى عندما يفكر أحدهم بالحب فهو يقرر، ما فعل الفسكونت ميداردو حين قرر أن يعشق باميللا.

وضع الجانب السليم من رأسه على الوسادة، وقبل أن ينام فكر بدلسخت، فهو الآخر بلا قلب، ويمكن أن يفتعل أمراً شريراً، كأن يشي بهم مثلاً، وهو ما حدث على أية حال. ففي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، اقتادت مجموعة من قوات البيشمركَة النصفين إلى إحدى المؤسسات الأمنية، وحُقق معهما، ولبثا هناك ثلاثة أيام، ثم وضِعا في كيس وحُملا في طائرة هليكوبتر وأُلقيا على الحدود من جديد، لكن هذه المرة على الحدود العراقية الإيرانية.

حاولا الدخول إلى إيران، والبحث هناك عن رواية الفيسكونت المشطور لكالفينو لينهيا بها هذه القصة، لكنهما لم يقدرا. ففي كل مرة

يعبران الحدود إلى إحدى المدن الإيرانية على طول الشريط الحدودي يُضبطان، ويرسلان إلى التحقيق، ويُحبسان يوماً أو يومين ثم يُعبآن من جديد في كيس كبير ويلقى بهما على الحدود الفاصلة بين البلدين. كانا يتنقلان من مخفر حدودي إلى مخفر آخر، يتوسلان شرطة الحدود والجمارك ليسمحوا لهما بالعبور إلى الجانب العراقي، لكن من دون فائدة، حتى انتهيا أخيراً إلى منفذ الشلامجة الحدودي في البصرة.

الفصل الثالث

الحدود العراقية الإيرانية

(١)

لم يقتنع أفراد شرطة الحدود في منفذ الشلامجة، بالحجج التي قدّمها النصفان المأزومان بهويتهما، من أجل الدخول إلى العراق. قالوا لهما أنهم يتعاملون مع الوافدين وفق ضوابط قانونية صارمة، تتطلب منهم ابراز وثائق رسمية تؤكد صحة ما يدعيانه. وإلا فإن عليهما العودة من حيث أتيا.

«لكننا لسنا وافدين!» قال بوتاميا، وتلاه ميزو بصوت حاول قدر الإمكان ألا يبدو أنه صادر من شخص بدأ الغيظ يعتمل في صدره: «نحن من أهل هذا البلد، ألا ترى بعينك؟»

«نعم أرى» قال ضابط المنفذ ساخراً: «مجرد نصفين مجهولي الهوية، الله أعلم من أين جئتما لتفسدا ما تبقى من هذا البلد!» ثم سألهما إن كانا يحملان معهما مخدرات، وأمر حراسه بتفتيشهما.

«لكننا عراقيان أيها الضابط!» صاح الاثنان معاً، حين صار الحراس يجرونهما بعيداً عن المنفذ.

«اذهبا من هنا» كان هذا رد الضابط المتعجرف الذي يربي شارباً غطى كامل فمه: «أرويا هذه الحماقة على خالتكما يا أبناء الخائبة!»

يئس النصفان من إمكانية الدخول بصفة قانونية، وفي مثل هذا

الحال، لن يكون أمامهما من حل سوى ما قاما به من قبل وهو التهريب. لكن حتى هذا بدا صعباً جداً إن لم يكن مستحيلاً في حينها. إذ لم يزل الاثنان، وعلى مدى ثلاثة أيام بلياليها، وهما يقفان على جانب الطريق المؤدية إلى المنفذ، ويحاولان العثور على شاحنة تقلهما إلى داخل البصرة. لكن ذلك لم يحصل إلا في صباح اليوم الرابع، عندما توقفت شاحنة تسحب حاوية كبيرة محملة بالدجاج المجمد، وترجل منها سائقها ليتبول، بينما هو يدخن سيجارة ويغني أغنية لكَوكَوش، فرآهما واقفين هناك، كجنيين خرجا لتوهما من تحت الأرض.

«من يبيع من؟» قال السائق المرح مازحاً: «أنا مستعد لشرائكما معاً، لكن في هذه الحالة، من يبيعني إياكما؟»

وأخذ يضحك ويهتزّ كرشه مثل كتلة مائعة من السليكون. سألهما بعدها كما لو أنه يتحرى عن نعّامتين هاربتين:

«هل أنتما تائهان أيها النصفان؟»

«نحن غريبان» ردّا في الوقت نفسه: «ونريد العودة إلى ديارنا»

ثم راحا يرويان له قصتهما من الألف إلى الياء، حتى كاد الرجل أن يبكي، وقرر المخاطرة بتهريبهما.

«اسمعا أيها النصفان المسكينان» قال لهما بصوت خفيض كما لو أنه يخشى أن يسمعه أحد: «سأقلكما معي، لكن تأكدا في البداية أنكما لا تحملا ممنوعات» ثم صمت لينظر في عين كل واحد منهما كأنه يتأكد إن كانا حقاً يحملان معهما تلك الممنوعات التي راح يرددها على مسمعهما قائلاً:

«مثل العلك المر، أقراص الباندول، عبوات العطر وسوائل غسل الصحون. أفضل أن تحملا سلاحاً بدل هذه الأشياء. يا سبحان الله!

كأنهم اخترعوا جهاز كشف المتفجرات فقط من أجل كشف هذه الأشياء والعثور عليها. وهكذا، سنتأخر كثيراً في الدخول.. هل فهمتما ما أعني يا عزيزاي النصفان؟»

هزّ النصفان رأسيهما، وبديا في حينها كأنهما نصفا نعامة حقاً وليسا نصفي إنسان. وقد فهما ما قاله السائق بشأن جهاز كشف المتفجرات الذي لا يكشف في النهاية سوى العلك المر وأقراص الباندول وعبوات العطور وسوائل غسل الصحون، في حين تمرّ في اليوم الواحد عشرات السيارات المفخخة إلى البلد، من دون أن يشغل ذلك الجهاز الكاشف عقله، ويميل برأسه قليلاً، بالقدر الذي يوفّر نسبة قليلة من الشك في أن هذه السيارة أو ذلك الصهريج يحمل المتفجرات.

فتح السائق باب الحاوية المُجمِّدة وأدخلهما.

«اختبئا جيداً» أوصاهما: «ولا تعبثا بالدجاج، سيغرمني المستورد عن كل دجاجة تالفة، في حين أني أعيل أسرة بعدد هذا الدجاج الذي تريانه!»

أيضاً، هزّ النصفان رأسيهما بالإيجاب بحركة آلية، كأن ثمة من يتحكم بها من فوق. قالا:

«اطمئن أيها السائق العطوف»

وأغلق عليهما باب الحاوية.

مضى الوقت سريعاً، ووصلت الشاحنة إلى المنفذ الحدودي. كان هناك الكثير من الشاحنات تنتظر دورها في العبور، وهي محملة بمختلف المواد والسلع والمنتوجات والمزروعات، التي لا تخضع عادة لقياس السيطرة النوعية، وكان العراق قد كفّ عن تصنيعها أو زراعتها، بما فيها الملح منذ عام ٢٠٠٣. وتحول إلى دولة ريعية كسولة. وعلى

الرغم من الزحام الذي يشهده المنفذ، إلا أن هناك من كان مهتماً بأمر شاحنة الدجاج المجمّد الذي احتكرت استيراده تقريباً، بالإضافة إلى اللحوم الحمراء، بعض الشركات التابعة للأحزاب الحاكمة والمزكاة من قبل رجال الدين. وكما لو أن هناك توصية خاصة، فُسح المجال للشاحنة بالوصول إلى منطقة العبور من دون أن تضطر إلى الانتظار حتى يحين دورها. فوجد النصفان أنهما في الموقف نفسه الذي مرّا به في شاحنة السمك المجمّد على الحدود العراقية التركية، عندما فُتح باب الحاوية المُجمِّدة، وسمعا الحديث الغامض بين ضابط الجمارك وسائق الشاحنة. وكانا في تلك الأثناء خائفين ومرتعشين وأكثر تجمّداً من الدجاج نفسه.

«مهمتي تنتهي عند هذا الحد، وكل ما يحصل بعد اجتيازك هذه الحدود لا علاقة لي به» قال الضباط بلهجة تهديد لكنها متواطئة نوعا ما: «كن فطناً وخذ حذرك، ولا تذكر اسمي إذا ما حدث شيء، لأني سأشوي على هاتين الأذنين الكنغريتين بصلاً وقتها، هل فهمت؟»

«فهمت يا سيدي» رد السائق وبدا خائفاً رغم أنه يعلم أن كل شيء مخطط له، وسيمر على خير ما يرام إلى أن يصل إلى المورّد. ثم ناول الضابط كيساً أسود، وأغلق باب الحاوية مجدداً.

وما أن تحركت الشاحنة من جديد، حتى بدأت الوساوس تراود بوتاميا بعد سماعه الحوار المقتضب بين الضابط والسائق. وكان قد ثبّت نظره على ميزو الذي استشفّ من تلك النظرة أمراً لا يرجو حدوثه، لكنه حدث على أية حال، وكانت أولى بوادره هي تلك النظرة الشكّاكة دائماً، ثم الشمّ، فقد طلب بوتاميا من رفيقه أن يستعمل أنفه ليشم ما حوله ويخبره بعدها إن كان ثمة رائحة غير طبيعية، رائحة دجاج فاسد

ومنتهي الصلاحية مثلاً. وعندما لاحظ أن ميزو لم يبتّ بمسألة فساد ذلك الدجاج من عدمه، عمد إلى فضّ أحد الصناديق الكارتونية، من دون أن يعبأ باحتجاج صاحبه.

«هل أنت فضولي هكذا دائماً؟» صاح به: «متى تكف عن دس أنفك فيما لا يعنيك؟»

«ما لا يعنيني؟!» قال بوتاميا بما يشبه الصراخ: «هذا أنت الذي تحمل قلباً تقول ذلك؟ إذن لماذا نلوم أولئك الذين بلا قلوب، ممن ينهبون، ويسرقون، ويقتلون، ويذبحون، ويهربون الدجاج الفاسد ومن يشطرون الناس إلى نصفين؟ هاا؟ قل لي لماذا نلومهم؟!»

«ومن قال لك أن هذا الدجاج فاسد؟» أخرج ميزو دجاجة من الصندوق الذي فضّه بوتاميا، وانتزع منها الكيس بأسنانه، وراح يشمّها، بل أنه نهشها بأسنانه واقتطع شيئاً منها، ثم قال: «خذ تفضّل وجرب بنفسك، سترى كما لو أنها ذُبحت للتو...» ثم قال على سبيل المبالغة بينما هو يضعها على خده: «حتى أن حوصلتها ما تزال دافئة!»

(٢)

لم يكتفي بوتاميا بفض صندوق واحد ليتأكد من أن الدجاج منتهي الصلاحية، إنما فض صندوقاً ثانياً، وثالثاً، ورابعاً، وفي كل مرة يفعل ذلك لا يجد شيئاً مما دار في خلده، بل على العكس، يبدو نوع الدجاج المستورد هذا ممتازاً، ولم يمضِ عليه الكثير منذ أن خرج من الجزارة. ثم خطرت له فكرة، هي أن يفتح بطون الدجاج، فشكلها الخارجي ليس دليلاً كافياً على عدم انتهاء صلاحيتها:

«هؤلاء التجار أذكياء ومحتالون، ألم يخلطوا الرمل بالطحين والبطاطا بالسمن وباعوه لنا في أيام الحصار؟ أم أنك نسيت»

ثم تناول دجاجة، وطلب من ميزو أن يمسك فخذاً، بينما هو يمسك بالفخذ الآخر، ليتمكنا من شطرها من المنتصف. فعلا ذلك بصعوبة وكل نصف منهما يعض شفته السفلى بأسنانه، وهنا تحديداً حدثت المفاجأة.

«ما هذا الشيء؟!» تناول ميزو كيساً صغيراً مليئاً ببودرة بيضاء كان قد وقع بينهما ما إن شطرا الدجاجة: «هيرويين!!»

«ألم أقل لك؟!» صاح بوتاميا في الوقت الذي توقفت فيه الشاحنة. وما هي إلا لحظات حتى تناهى صوت قرقعة الأقفال وهي تُفتح إلى سمع النصفين المتوجسين، المترقبين، اللذين لم يسعهما الوقت لكي

يتخيلا ردة فعل السائق إزاء الفوضى التي أحدثاها في شاحنته، فقد فتح باب الحاوية في تلك اللحظة وهتف بوجهيهما بعلو صوته:

«أهلا بكم في الزريبة الخلفية!»

عندئذ، ذرّ النصفان في وجهه تلك البودرة البيضاء المخدرة، ثم انقضا عليه في حركة مباغتة، وأوقعاه أرضاً لاذا بعدها بالفرار، كلاً في وجهة، مما جعل السائق يحار أي النصفين يطارد. لكنه لن يفعل ذلك ما دام أنهما لم يأخذا شيئاً من البضاعة المخبأة عدا محتوى الكيس الذي ذرّاه في وجهه، فراح يلعنهما ويكيل لهما الشتائم بالفارسية، ويبصق وراءهما إلى أن استقل شاحنته وغادر.

كان الوقت ظهراً، والمكان يبدو قاحلاً وموحشاً، والجو حاراً ومغبراً، كأن ملاك العذاب كان يرمي حمماً جحيمية من مسدسه. وكان بوتاميا الذي هرب إلى جهة اليسار قد اختبأ في خندق يبدو أنه ما زال هناك منذ الحرب العراقية الإيرانية، في حين كان ميزو الذي هرب باتجاه اليمين يختبئ وراء كومة من الجذوع المتيبسة، هو كل ما تبقى من نخيل هذه الأرض التي كانت إحدى جنائن البساتين، قبل أن تحيلها الحرب إلى أطلال.

اجتمع النصفان مرة أخرى على الطريق المعبدة.

«هل سمعت ما قاله مهرب المخدرات ذاك في جملته الترحيبية؟» قال بوتاميا وهو يطوّح بحصى كبيرة التقطها من الأرض قبل أن يقذفها في إثر الشاحنة التي تلاشت وسط الغبار.

«ماذا قال؟» سأله ميزو.

«قال: أهلا بكم في الزريبة الخلفية!» كما لو أننا حماران وليس نصفين بشريين!»

«تُرى ماذا يعني بالزريبة الخلفية؟»

تساءل ميزو. كان يحك رأسه بينما هو يفكر في معنى تلك الجملة، فعثر على قملة كبيرة بدلاً من الفكرة التي يبحث عنها. أما بوتاميا فقد كان يظلل عينه بيده وينظر باتجاه الحدود الشرقية، حيث لمح من بعيد سيارة قادمة من هناك، فأمِل في أن تقلهما إلى المدينة، حيث يكون بإمكانهما ايجاد مكتبة يعثران فيها على رواية الفيسكونت المشطور، فلا يعقل أن تختفي هذه الرواية أيضاً في مدينة أدب وفن كالبصرة. إلا أن شيئاً لم يكن يتمنيانه ظهر في تلك اللحظة، هو القاذفة الرشاشة المثبتة فوق سيارة الدفع الرباعي العسكرية التابعة إلى شرطة الحدود.

لم ينتظر النصفان أن تقترب تلك السيارة منهما، وتتوقف، ويترجل منها ضابط المجموعة، التي ملأ أفرادها الصندوق الخلفي، لاستجوابهما، فيدخلان في سين وجيم التحقيق الذي لن ينتهي، وقد يطلب ذلك الضابط أوراقهما الثبوتية، وربما يعتقلهما في النهاية بتهمة اجتياز الحدود بطريقة غير شرعية. وإذا حدث وكان الضابط هو نفسه الذي استجوبهما في المنفذ الحدودي، فلا شك أنه سيعود لاتهامهما بحيازة المخدرات. حينئذ، أسند أحدهما الآخر، وأسرعا باتجاه الخندق الحربي الذي اختبأ فيه بوتاميا قبل قليل من الوقت. لبثا هناك حتى ذهبت سيارة الدورية إلى حال سبيلها، لكنهما لم يعودا إلى الطريق المعبد الذي يوصل إلى المدينة، إنما قررا أن يسلكا طريق البرّ رغم معرفتهما بالمخاطر التي قد يواجهانها، لكنهما فضلا ذلك لكي يتحاشيان دوريات شرطة الحدود. عثرا لهما على عصاتين تعينهما على السير، وبدءا رحلة جديدة، يحدوهما الأمل في بلوغ غايتهما وهي الطريقة التي يمكنهما من خلالها العودة إلى الالتحام من جديد، الطريقة التي نسياها، ولا توجد في مكان سوى رواية كالفينو.

كانت تلك البقعة الحدودية الملحية من أرض البصرة ميداناً للمعارك الشرسة والوحشية خلال الحرب، سقط فيها عشرات الآلاف من الجنود العراقيين والإيرانيين، حتى إنها تضم إلى الآن رفات الكثير من اولئك الجنود، من كلا الطرفين، وما تزال ميدان اشتغال منظمة الصليب الأحمر التي ما زالت تبحث تحت الأرض عن ذلك الرفات للجنود المفقودين، إلا أن ثمة ما يعيق عملها على الدوام. تلك هي الألغام التي عجزت الحكومات المتعاقبة عن رفعها، بسبب مطالبة المجلس المحلي وباقي الجهات الحكومية ذات العلاقة كوزارة البيئة ووزارة البلديات وغيرها نسبة خمسة بالمائة من الأرباح التي يمكن أن تتحصل عليها شركة إزالة الألغام الراغبة بالتعاقد، وكأن هذه الشركة جاءت لتستثمر في بناء مدينة ألعاب وليس لرفع أكثر من عشرة ملايين لغم في البصرة.

وكان كلما توغل النصفان في تلك الأرض، كلما ازدادت ملوحتها، حتى وصلا إلى مكان يبدو أن حياة جديدة على وشك أن تنمو فيه. ذلك أن رجلاً من أحفاد مالكي هذه الأراضي المخربة عاد ليُحيي أرض الأجداد، ومسقط رأسه الذي قضت أرضة الحرب عليه وحولته إلى سباخ ملحية، فقد غطى الملح كل شبر من تلك الأرض، ولم يتبق فيها أثر للنخيل الذي كان يظلل بسعفه مساحات واسعة مزدانة بمختلف المزروعات.

تعرف النصفان على الرجل. كان ودوداً كحال الأغلبية من أهالي البصرة، طيب إلى حد السذاجة وبلا قلب أيضاً، إلى درجة أنه صدّق مخيلته التي كان يرى من خلالها هذه الأرض البور وقد عادت خضراء مجدداً. لكن النصفين لم يحاولا إثباط عزيمته، وقررا مساعدته، بما أنه رحب بهما وضيّفهما في بيته الذي يقع على بعد خمسة عشر كيلو متر، في قرية لا تبعد كثيراً عن شط البصرة، حيث قضيا ليلتهما هناك، وفي

صباح اليوم التالي اصطحبهما الفلاح البصري إلى البقعة التي وجداه فيها بالأمس، وقاما بمساعدته حسب القابلية التي يمكن توفرها لدى شخصين معاقين بشكل كبير، فعلا ذلك لأكثر من ثلاثة أسابيع نسيا خلالها أن يقتنيا رواية الفيسكونت المشطور من إحدى المكتبات الكثيرة في مدينة البصرة التي تقع على الضفة الأخرى من الشط.

أول عمل قام به الثلاثة هو كشط الملح عن سطح الأرض، ثم حرثها، ثم تنقية التربة وقلبها وتسميدها، ثم شرعوا بنثر البذور، وثبّتوا فزاعات مليئة بالتبن وألبسوها ثياب الموتى التي عادة ما تُرمى، ووقفوا هناك يتخيلون ازدهار الأرض بأصناف معينة من الخضراوات التي كانت تُزرع فيها قبل أربعة عقود، طماطم، خيار، بطاطا، سبانخ، لوبيا، سلق. لم يتبق سوى مرحلة السقي، وأما هذه فقد فكر الفلاح البصري بجلب المياه العذبة بواسطة مركبات حوضية كبيرة الأرض. الأمر الذي لم يكن مستحيلاً بقدر ما هو مكلف، لكن إرادة الفلاح البصري، الذي ناهز الستين من العمر، كانت أقوى من أن تنتكس بسهولة. وبالفعل، اتجهت في اليوم التالي خمسة عشر سيارة حوضية تقل الماء العذب إلى الأرض، وقام الثلاثة بالإشراف على سقيها حتى فاضت وارتوت وكادت أن تنطق بذلك.

حينما جاء اليوم التالي، وهرع الثلاثة إلى الأرض، فوجئوا فور وصولهم بأمر لم يكن في الحسبان، ولم يفكر به الفلاح البصري الطيب، رغم علمه أن هذه البقعة كانت مسرحاً لمعارك طاحنة بين العراقيين والإيرانيين في الثمانينات، لكنه لم يتخيل يوماً أن ينهض فصيل من الجنود المفقودين من تحت الأرض، ليغادروها إلى مكان آخر.

أجفل الفلاح البصري وأحس بالذنب يأكل قلبه، كما لو أنه طردهم

من بيته وليس من أرضه. وضع يديه فوق رأسه وراح يولول وسط دهشة وذهول النصفين مما شاهداه وظنا للحظات أنه مشهد مقتطع من فيلم، أو لوحة سريالية، أو رواية لغارسيا ماركيز. ركض الفلاح في إثر الجنود حتى لحق بهم. كانوا أربعة عشر جندياً مثقلين بالأوحال وتراكم الزمن. لم يتعرف على هويتهم، ولم يكن ذلك همه. استوقفهم وراح يتوسلهم بالعودة إلى أرضه.

«عفواً أيها الجنود المساكين» قال لهم: «لم أقصد إزعاجكم، ولو كنت أعلم أنكم تسكنون باطن هذه الأرض، لما تجرأت على ايقاظكم!»

«لا تحاول يا شيخ» قال أحدهم وهو يعيد فص عينه اليمنى الذي انزلق من محجرها فجأة: «ليس لنا مكان في هذه الأرض بعد الآن»

«لماذا؟» سأله الفلاح البصري بتوسل: «أين ترومون الذهاب؟»

«إلى مكان آخر» أجابه جندي آخر بينما هو ينتزع رصاصة صدئة من رأسه: «مكان يتوفر فيه الملح على نحو كافٍ»

«ملح؟!» صاح الفلاح كما لو أنه أصيب بصعقة: «وما حاجتكم للملح؟»

كان النصفان يسمعان هذا الحوار المثير بين الفلاح البصري المذعور وفصيل الجنود القتلى المطيّنين، فقد كانا يقفان متكئين أحدهما على الآخر، قريباً منهم وقد فغرا نصفي فمهما.

«هل أنت غشيم يا شيخ، أم أنك تتغابى؟» قال أحد الجنود وهو يبصق شظية كانت مستقرة في حلقه. وينظر إلى الفلاح البصري تارة، وإلى النصفين اللذين يظن، بسبب شكلهما، أنهما خرجا قبلهم من تحت الأرض.

«أنا أقول لك لماذا سنغادر أرضك» قال جندي آخر وهو يعيد احشاءه المتيبسة من خلل الشق الذي أحدثته قنبلة في بطنه: «بعد أن كشطت الملح عن سطح هذه الأرض، وبعد كل هذه الكميات الكبيرة من المياه العذبة التي غمرتم بها عظامنا، أحسسنا أن موتنا لم يعد له طعم!»

«نعم أيها الشيخ» أكد أحد الجنود الأربعة عشر بصوت مبحوح، وهو يعالج تفاحة آدم في نحره كي لا تقع ويشير ببندقيته القناص المتآكلة نحو النصفين المتفرجين: «بسببك أنت وبسبب هذين المسخين الأحمقين، لم يعد لموتنا طعم أبداً!»

وغادر فصيل الجنود وهم يتمتمون بكلمات مبهمة. أما الفلاح البصري، فقد ودّع النصفين، ثم استقل سيارته البيك آب المتداعية وقفل عائداً إلى بيته، عازماً أمره على عدم العودة إلى تلك الأرض، والكف عن ازعاج الموتى بمشاريعه الحمقاء الفاشلة.

«هل قال ذلك الجندي القناص أننا مسخان أحمقان؟» سأل بوتاميا صاحبه ميزو وهما يغادران المكان، متكئين على عكازين اهداهما لهما الفلاح البصري.

«نعم» رد ميزو: «أظن أنه قال ذلك»

«حقاً؟» قال بوتاميا ساخراً: «وماذا يظن نفسه؟ سيمو هايا؟»

«لا.. ربما فاسيلي زايتسيف هأ هأ!»

(٣)

أكمل النصفان رحلتهما من المكان الذي انتهيا إليه آخر مرة، وهي تلك البقعة من السباخ الحدودية، التي أراد الفلاح البصري أن يعيدها إلى الحياة. كانت ما تزال خلفهما، إذ لم يبتعدا عنها كثيراً، فخطر للنصفين أن يلتفتا نحوها، كما لو أنهما رغبا بتوديعها، بعد أن قضيا فيها أوقاتاً، وإن كانت مرهقة، لكنها بدت سعيدة برفقة الفلاح البصري. وعندما فعلا ذلك لم يرَيا شيئاً. ففرك كل واحد منهما عينه، وحدقا من جديد، إلا أن شيئاً لم يظهر في تلك البقعة يدل على أن ثمة من وطأها من قبل. لم يريا سوى السباخ نفسها، والملح، والغبار. حتى الفزاعات اختفت ولم يعد لها من أثر هناك.

سأل أحدهما الآخر إن كانا يحلمان، فخشيا من الجواب. لكنهما لم يرغبا بالعودة إلى تلك الأرض ليتأكدا ما إذا كان ذلك سراباً أو حقيقة. كان يعلمان أن ذلك يشبه نبش القبور، وسيزعجهما في نهاية الأمر أنهما لن يجدا سوى رائحة الموت وهي تزكم أنفهما. لم يكن ينقصهما المزيد من الأسئلة الغامضة التي تحفل بها هذه الحياة، ولا يملكان لها جواباً في أغلب الأحيان، ولعل أكثر هذه الأسئلة إلحاحاً هو: لماذا شطروهما إلى نصفين؟ ربما لا يبدو السؤال غامضاً إلى هذه الحد، لكنهما ما أن يبدءا بالبحث والتقصي حتى تبدو الأجوبة، إن وجدت، هي الأخرى

أكثر غموضاً من الأسئلة. فأكملا رحلتهما، وراحا يسرحان في أرض البصرة الواسعة من جهة الحدود الشرقية. وبعد أن قطعا مسافة لا بأس بها، بالنسبة لمن هم في حالتهما، جلسا على جذع نخلة مطروح ليستريحا في مكان محاط بالأسلاك الشائكة الصدئة، ومأهول بالهياكل العظمية، وصلا إليه بعد أن اجتازا نهراً جافاً وسلكا طريقاً أشبه بالطريق الذي سلكه بيدرو باراموﷺ المكان يبدو كحقل لكن من دون مزروعات. هناك فقط عدد لا يحصى من الأجسام الغريبة الناتئة من تحت الأرض، وفزاعة ترتدي ثياباً عسكرية كاكية، يبدو أنها ما زالت شاخصة وسط الحقل منذ فترة طويلة. وعلى الرغم من ذلك، فإن عثورهما على هذا المكان أشعرهما بالأمل وعزز ثقتهما بشأن الوصول إلى مكان آخر مأهول بالناس، بدلاً من تلك الهياكل العظمية البليدة. هناك عدد من الغربان تفلي ريشها بمناقيرها على جذوع النخل القائم بلا رؤوس، وفئران تطل برؤوسها من الجحور المنتشرة بين الأعشاب البرية كل حين، وخنفساءات تدحرج كرات الروث، ونمل فارسي كثيف يرتطم في مسيره بالعظام البشرية والحيوانية المتفرقة، وعدد لا يحصى من العقبان تحوم على علو منخفض، تذكر باللقالق التي تطير فوق ساحة المعركة في رواية كالفينو، ودائماً ما يسأل الفيسكونت ترّالبا حامل الدرع عنها قائلاً «لم كل هذه اللقالق؟ إلى أين تذهب؟»

«هل تعلم؟» قال بوتاميا مخاطباً صاحبه: «أحياناً أشعر أننا بطلان في حلم شخص ميت. لا أعلم أين يمكن أن يكون الآن، وهل دُفن أو نهشته العقبان، وما تبقى منه فطيسة تكالبت عليها الغربان. أعرف فحسب أنه في عالم الأموات، ويحلم بنا الآن»

«غريب!» قال ميزو سائلاً رفيق رحلته: «وهل يحلم الموتى؟»

«لا أعرف» أجابه بوتاميا رافعاً كتفه، ماطاً شفتيه المشطورتين،

مظهراً باطنهما: «لكن، هذا ما أشعر به بالضبط، وهو أننا بطلا حلم لشخص ميت. وبما أنه ميت، فلا بد أن يكون مكان حلمه هو هذا العالم الواقعي. ألا ترى أننا لم نأكل شيئاً منذ فترة طويلة من دون أن نشعر بالجوع؟ ونرى ما لا يراه الآخرون؟ كفصيل الجنود القتلى؟ فكما أن الأحياء يحلمون بعالم الموتى، فلا بد أن يحلم الموتى بعالم الأحياء. إذا ماذا يمكن أن يتمنى الميت سوى عودته إلى الحياة؟ إذن، نحن الآن في عالم الأحياء، أي في العالم الواقعي، لكننا من جهة أخرى مجرد نصفين في حلم. هل فهمت عزيزي؟»

حك ميزو رأسه إشارة إلى عدم فهم ما قاله بوتاميا ويقترب كثيراً من الهلوسة إلى درجة دفعت هذا الأخير إلى سؤاله بصوت أظهره كما لو أنه مصاب بعسر العظم:

«هل شممت شيئاً من الهيروويين في شاحنة الدجاج المجمد؟»

«حسناً» قال بوتاميا بخيبة أمل لم يخفها: «أنت لا تفهمني، أو أنك تتظاهر بأنك لا تفهم ما قلته»

«ليكن» قال ميزو كأنه على وشك التفوّه بحماقة لكي يساير رفيقه المحبط: «لنفترض ذلك، لكن ماذا بشأن كل الذين التقيناهم، كالقبيس وجومرد صاحب البغل وأبيه وأخيه، وسائقي شاحنتي السمك والدجاج المجمدين والفلاح البصري مؤخراً وغيرهم؟ هل هم شركاؤنا في هذا الحلم الذي تزعم أننا فيه الآن، ومكانه هو هذه الخرابة التي يسمونها عالماً واقعياً؟»

«ربما نعم» قال بوتاميا وكأنه غير متيقن من جوابه: «أو ربما لا. أو قد يكون كل الذين التقيناهم، ورأيناهم، أو تكلمنا معهم. وكل الناس الذين رأونا وتبادلوا معنا الحديث، وردوا على أسئلتنا، ربما يكون كل

هؤلاء مزيجاً من شخصيات الحلم الذي نحن فيه، وشخصيات الواقع التي تنتمي إلى هذا العالم المادي الحقيقي الذي جعله الشخص الميت مسرحاً لأحداث حلمه»

«وكيف يمكن لشخص ينتمي إلى هذا العالم الواقعي أن يرى نصفي شخص مشطور يتحركان ويمشيان ويتكلمان من دون أن يُصاب بالذعر أو حتى يُغمى عليه؟!» سأله ميزو الذي لا يبدو مقتنعاً بنظرية رفيقه.

«ربما لأن الواقع صار أكثر غرائبية وسريالية وفنطازية من الخيال نفسه. فبعض الناس في هذا العالم أصبحوا يرون أشياء تكاد أن تكون غير واقعية، لكنها تتحدى المنطق، وتحدث، وتمضي كأي حدث عادي. ففي الحروب والأزمات والكوارث والتناحرات الطائفية يحدث ما لا يخطر على بال الرواة والمردة والشياطين. وفيما مضى، كان بإمكان المرء أن يقرأ عن أشياء غير منطقية ولا يتقبلها العقل، لكن الآن صار البعض يرى أو يدعي أنه رأى تلك الأشياء بالعين المجردة. وأنا هنا لا أتكلم عن الخرافات، أو خوارق العادات، أو السحر، لا أبدا. أنا أتحدث عمّا يمكن أن يكون حقيقة في حين أنه لا يُصدق»

«الحقيقة هي الحقيقة يا صديقي، إلا إذا أفسدها الخيال الذي بدوره سيحفز الطاقات الخبيئة سواء كانت سلبية أو ايجابية. عندئذ، تكون عصية على التصديق» عقّب ميزو: «أما إذا أردت اقناعي بأن هذه الفزاعة البليدة التي أمامنا الآن، وترتدي الآن ثياباً كاكية وخوذة حربية وبسطالاً ثقيلاً هي في الحقيقة جندي ما زال يقف هنا لأكثر من ثلاثين عاماً، فهذا ما يسمونه فساء المخيلة يا عزيزي بوتاميا»

«ممتاز!» قال بوتاميا وهو ينظر بعين خيّل لصاحبه أن حدقتها على وشك أن تنط من محجرها بينما هو ينظر إليه: «إذن، أنت لا تُصدّق أن

هذه الفزاعة يمكن أن تكون جندياً متروكاً هنا منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لكنك تصدق في الوقت نفسه أنك نصف رجل ما زال على قيد الحياة؟!»

«كف عن هذا الخراء الآن» صاح ميزو بوجه رفيقه. وكاد الاثنان أن يتشاجران، لولا أنهما سمعا صوتاً بشرياً أفزعهما فنهضا وارتطما ببعضهما. راحا يلتفتان في كل الاتجاهات، من دون أن يحددا مصدر ذلك الصوت الذي خُيّل لهما كما لو أن أحدهم أطلقه من بندقية لتخويف الطيور. وكانا على وشك مغادرة المكان لولا أن بوتاميا انتبه أخيراً إلى مصدر الصوت وحدده قائلاً:

«هناك... الجندي الفزاعة!»

(٤)

اقترب النصفان من الفزاعة، وأوشكا أن يقعا أرضاً، بينما هما ينطان نحوها، ليقطعا المسافة الفاصلة بينها وبين الجذع الذي اتخذاه مجلساً لاستراحتهما. وقد تكرر تعثرهما بتلك النتوءات الصدئة المغروسة في الأرض، حتى وصلا إلى الفزاعة ذات الثياب الكاكية التي كفّت عن اصدار الصوت الذي أفزعهما بداية، وقالت:

«ماذا تفعلان هنا أيها النصفان؟»

«عفواً أيتها الفزاعة الطيبة» بادر بوتاميا قائلاً بتودد مزيف: «نحن نبحث عن مكتبة، ألا يوجد مكتبة في الجوار؟»

«لا يوجد مكتبة هنا أيها الضالان» ردت الفزاعة: «ألا تعرفان أين أنتما الآن؟»

«أين» جاء سؤال النصفين بالتزامن.

«وسط حقل للألغام!»

نظر النصفان إلى بعضهما، وأفزعهما منظرهما أكثر من المعلومة التي سمعاها من الفزاعة.

«صدقاً؟» ميزو: «حقل ألغام؟!»

«أجل» تجشأت الفزاعة جوابها بحدة: «أنتما في حقل ألغام أيها

السيدان النصفان، وأنصحكما بالخروج منه فوراً، لا أريد المزيد من هذه...»

وأشارت إلى الهياكل العظمية. هياكل وجماجم وعظام بشرية وحيوانية لخراف وبعران وكلاب وذئاب وخنازير برية وعُقبان. فأومأ ميزو لصاحبه قائلاً:

«هيا لنخرج!»

إلا أن بوتاميا كان فضولياً كالمعتاد، أمسكه من يده، وحثّه على قضاء بعض الوقت برفقة هذه الفزاعة المجنّدة.

«ماذا تنتظران؟!» صاحت الفزاعة بوجهيهما: «هيا أخرجا من حقلي»

«سنخرج» قال بوتاميا وأبدى رغبته بالحديث: «لكن بودنا أن نسألكِ أيتها الفزاعة الطيبة، منذ متى وأنتِ هنا؟ لا بد أن أعواماً طويلة مضت على وقوفك هذا، حتى برزت عظامك وتشقق جلدك وتمزقت ثيابك وكست الطيور سطح خوذتك بذروقها!»

«أنا لست ذلك الشيء الذي تقولانه» صاحت الفزاعة كأنها تنهرهما: «ألا تريان جيداً يا نصفا البلاهة؟»

كان النصفان ينظران إليها فعلاً، وفي عين كل واحد منهما السؤال نفسه:

«إذن؟»

«أنا جندي عراقي»

«صدقاً؟!» هتف ميزو بذهول الأطفال، أتبعه بوتاميا قائلاً وهو يهز نصف الرأس الذي يحمله:

«عذراً أيها الجندي، لم نعرف ذلك إلا منك، رغم أنك تبدو من ثيابك الكاكية وخوذتك العسكرية وبسطالك الثقيل جندياً حقاً»

«لكن لم تقل لنا أيها الجندي المسكين، منذ متى وأنت نابت هنا، تحرس هذه الألغام البليدة؟» قال ميزو بعد فترة من الوجوم ومحاولة تصديق أن هذا الكائن هو جندي وليس فزاعة في حقل ألغام.

«لقد انتهت الحرب منذ فترة طويلة» عقّب بوتاميا: «لماذا لا تعود إلى أهلك؟»

عاد ميزو بعدها ليسأله:

«ما حكايتك أيها الجندي؟»

فنكس الجندي الفزاعة رأسه وقال بنبرة هادئة ويائسة:

«سأرويها لكما»

وشرع بسرد قصته على النصفين:

«في واحدة من حروبنا الكثيرة، وهي الحرب العراقية الإيرانية على ما أتذكر، ، كنا فصيلاً من الجنود المشاة، خرجنا في مهمة استطلاعية. وحدث أن دخلنا في حقل للألغام من دون أن نعلم. ولم نكتشف ذلك إلا بعد أن داس جندي من الفصيل على أحد تلك الألغام.

هذا الجندي كان أنا مثلما ترون.

أصيب الجميع بالذعر، لكنهم لم يتركوني وحيداً، خلال النهار الأول على الأقل، ثم بدأوا بعدها بالانسحاب، واحداً في إثر الآخر، بداعي جلب المساعدة أو الماء أو الطعام، وكان كلما غادر أحدهم لا يعود أبداً. بقيت وحيداً، لكني لم أجرؤ على التحرك من مكاني أبداً،

خشية أن ينفجر اللغم ويبتر ساقيّ في أقل التقديرات، هذا إن لم يُحلْني إلى أشلاء.

مرت عليّ الأعوام ثقيلة وكئيبة من دون تسلية، ما عدا عزف الرعاة الذين عادة ما يؤنسوني بأنغام ناياتهم الشجيّة، قبل أن يتركوا المكان بسبب المجازر التي ترتكبها تلك الألغام بحق أغنامهم عندما تتسلل إلى الحقل طمعاً بالعشب الذي ينمو حولي في فصول الربيع. انتهت الحرب، واندلعت بعدها حربين أخريين، وانتهيا أيضاً، ما عدا الحرب الطائفية التي تدور رحاها الآن كما سمعت، وأنا ما زلت مسمّراً هنا طوال الوقت مثل أي قطعة صدئة من مخلفات المعارك التي حدثت هنا، في هذه الأرض التي جار عليها الزمن وحولها إلى خرائب.

تم تحديد المنطقة، التي وجدت نفسي نابت فيها، بالأسلاك الشائكة والعلامات التحذيرية التي تسترعي انتباه المارة إلى وجود ألغام أرضية. إلا أن الحيوانات لا تفهم، فمات الكثير منها وتقطع إلى أشلاء وعظام: خراف، جِمال، كلاب، سحالي، ذئاب، وكل من له القدرة على إحداث ذلك الصوت المبهم، الذي يشبه صوت أحدهم وهو يسحق بقدمه برازاً، وما أن يرفع تلك القدم حتى يجد نفسه وقد تحول إلى نصف أو ثلث أو ثلاثة أرباع. أكثر الحيوانات كانت تهزأ بي حين أبدأ بطردها، لكنها ما أن تدوس لغماً وتقع في الورطة حتى تنظر إليّ بعين دامعة وإلى نفسها بعين الحسرة والندم. حينذاك تحدث الكارثة: بمممممم!

لم يمض الكثير من الوقت حتى عاد المزارعون إلى حقولهم، وعمّروها وزرعوها بشتى أصناف المزروعات، وجعلوا فيها فزاعات بشعة تحرسها من الطيور، قبل أن تدمرها الحرب مرة ثانية. بعد هذا كله

صرت أُعرف من قبل تلك الفزاعات في الحقول المجاورة بفزاعة حقل الألغام، فقد رأتني أطرد الكلاب السائبة لكي لا تصل إلى عظام أفراد الفصيل المتناثرة من حولي منذ سنوات طويلة»

للحظة، ظن بوتاميا أن هذا الجندي قد يكون أحد أفراد الفصيل الذين غادروا أرض الفلاح البصري، فأراد أن يسأله عن عدد أفراد فصيله، لكنه كفّ عن ذلك أخيراً. في حين تفاعل ميزو مع قصة الجندي بشكل كان مدعاة لشعوره بالشفقة تجاهه. حتى أن دمعة يمكن رؤيتها وهي تلتمع في عينه وهو يسأله:

«هل يعني أن السبب وراء عدم عودة الجنود لإنقاذك كانت الألغام أيضاً؟»

«أجل» رد الجندي ومسح دمعة سالت من عينه اليمنى: «ماتوا جميعاً وهذه هي عظامهم. انفجر عدد من تلك الألغام اللعينة تحت أقدامهم وتطايرت أشلاؤهم في الهواء»

(٥)

كالعادة، أسند نصفاي التائهان أحدهما الآخر، وهمّا بمغادرة حقل الألغام، بعد أن واسيا الجندي الفزّاعة، ووعدا بزيارته ما أن تسنح الفرصة لذلك. لكنهما توقفا عند ثالث أو رابع قفزة قفزها ميزو، إذ أحس هذا الأخير بشيء يتراخى تحت قدمه.

«لغم!» صرخ مولولاً كامرأة أُخبرت للتو بموت زوجها: «دست على لغم!»

«صدقاً؟!» لطم بوتاميا جبينه موبخاً صاحبه: «أبله! كان الأجدر بك أن تنتبه»

لم يبتعدا كثيراً عن الجندي الفزاعة الذي كان يراقبهما.

«ما الأمر؟» صاح حارس الحقل بنبرة من يتوجس خطراً: «هل كل شيء على ما يرام؟»

«الأخ هنا داس على لغم!» قال بوتاميا وتخصر في مكانه حائراً، من دون أن يلتفت خشية أن يربك صاحبه فيسقط هذا وينفجر اللغم»: «ما العمل الآن؟»

وبما أنه صار خبيراً بحكم الفترة الطويلة جداً التي قضاها واقفاً في هذا المكان الموحش والنائي، سألهما الجندي الفزاعة إن كانا سمعا

صوتاً غريباً أثناء ذلك، حتى يتاح له البتّ في ما إذا كان ذلك الشيء لغماً أم لا.

«نعم» أجابه ميزو بصوت مرتعش. عندئذ، طلب منه الجندي أن يصف له الصوت.

«إنه...» تردد قبل أن يجد وصفاً مناسباً للصوت الذي صدر من تحت قدمه: «حسناً... كان أشبه بالصوت الذي يصدر حينما تسحق شيئاً ليّناً، طرياً»

«بمعنى آخر..» جاء صوت بوتاميا كأنه خرج للتو من بالوعة:

«كما لو أن أحدهم سحق برازاً»

«حذار...» زعق الجندي الفزاعة بأعلى صوته الأجش: «حذار.. إنه لغم.. لغم!»

في ذلك الحين، كان بوتاميا يتشمم ما تحته باشمئزاز واضح. ثم فجأة، وبحركة مباغتة، أفلت نفسه من يد نصفه الآخر، وصار وراءه، ثم رفسه على ردفه بقوة أزاحته عن موضع اللغم. وكان الجندي الفزاعة في تلك الأثناء يراقب المشهد بقلق، فدس سبابتيه في أذنيه وأغمض عينيه لكي لا يرى ما سبق أن رآه طوال الأعوام الطويلة الماضية، وهو طيران جثة ميزو. إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث. ففتح الجندي عينيه، وبدلاً من رؤية أشلاء النصف الأيسر سيء الحظ كما كان يظن، رأى النصفان معاً وهما يتفحصان بأعواد القصب اللغم الذي لم ينفجر، وكل واحد منهما يضغط على نصف الأنف في نصف الوجه خاصته. وما هي إلا دقيقة حتى اعترى النصفان موجة خرقاء من الضحك الهيستيري المتواصل.

كانا يضحكان بطريقة استفزت الجندي الفزاعة إلى الحد الذي كاد

أن يدفعه لترك مكانه والتحرك نحوهما، وإكمال ما بدأه الإرهابيان الشيشاني والأفغاني، وذلك بتجزئتهما إلى أرباع وأثلاث وأسداس. لكنه لم يفعل خشية انفجار اللغم. فآثر أن يشفي غليه بالشتائم بدلاً من ذلك. انهال عليهما بالبصاق والشتائم النابية، إلى أن كفا عن الضحك، وتساعدا على النهوض، واقتربا من الجندي، ثم صارا وراءه. أومأ بوتاميا إلى صاحبه برأسه ففهم هذا الإشارة. رفع قدمه وأرجعها إلى الوراء ثم ركل مؤخرة حارس الحقل الهزيلة، ركلة قوية رفعته عن الأرض قليلاً وأكبته على وجهه في الأرض. وعلى ما يبدو أن الجندي الفزاعة فقد وعيه في حينها، وإلى أن أفاق من أغماءه كان النصفان قد غادرا الحقل. في حين انهمك هو بتفحص جسده ليتأكد إن كان تفرّق إلى أشلاء، أو صار نصفاً هو الآخر. وبينما هو يفعل ذلك، وقعت عيناه على أثر بسطاله الغائر منذ أعوام طويلة في اللغم الخرائي.

في البراز.

براز الحرب!

(٦)

من المفكرة:

طالما تخيلتُ كالفينو وهو منهمك بكتابة الفسكونت المشطور، وبين حين وآخر، أراه يطرد ذباباً غير مرئي يطنّ فوق مسودته، فهو يكتب بيده على الورق لا بالآلة الكاتبة، ويجري الكثير من التعديلات، إلى الحد الذي طالما أمكنه من القول بأنه كان يشطب أكثر مما يكتب، أحياناً بخط صغير يضطره إلى قضاء بعض الوقت، مستخدماً لهذا الغرض عدسة مكبرة، من أجل فك شفرة ما كتبه وهو في حالة عقلية مشوبة بالشك، على العكس من كتابته بالخط الكبير في أحيان أخرى، فتلك تعد دلالة على شعوره الغامر بالثقة مما كتبه.

أراه يطرد ذلك الذباب اللا مرئي، ذباب أولئك الذين «يسألون عن اللقيط من أبوه!» كما يقول المثل العراقي. الذين يقرأون «يوليسيس» جيمس جويس من خلال الآخرين، ويقرأون «الحرب والسلم» من خلال خلاصة عنها في ويكيبيديا، ويجترون الأحكام المسبقة، ويتعاملون مع الخيال بواقعية بليدة، ويلغطون طوال الوقت في جدالاتهم الكافكوية بشأن المخلوق الذي تحول إليه غريغوري سامسا، وما إذا كان خنفساء أو صرصور، ويتساءلون مع هولدن كولفيلد: أين يذهب البط عندما تتجمد البحيرة؟

Tele: @Arab_Books

لا أعلم إن كان كالفينو قد تلقى أسئلة ساذجة من قبيل:

«ماذا بشأن خصيتي الفيسكونت ميداردو دي ترّالبا هل شطرتهما أيضاً؟ ولنفترض جدلاً أنك فعلتها، ماذا بشأن قضيبه؟ كيف يتبول؟ والسرة؟ والشرج؟ هل فكرت كيف يمكن أن يتغوط الفيسكونت المسكين؟»

«وأنت.. ماذا تقول يا سيد كالفينو؟» سألته فأجابني بابتسامته المعهودة، تلك التي نراها في صوره وهي تحمل كل تلك اللا مبالاة إزاء أولئك الذين لا يتمتعون ولو بقدر ضئيل من الخيال، الذين لا يدعون الأمور تحدث، ويتعاملون مع كل شيء بجدية صارمة ومتشنجة:

«مثل هؤلاء، لا ينفع احاطتهم علماً أن الفيسكونت لم يأكل أو يشرب طيلة زمن الرواية، لأنهم سيسألون مجدداً: «يا إلهي! هكذا سيموت من الجوع والعطش؟»

إن عالم هؤلاء لا يريد أن يفهم أن عنصر الاقناع في الكتابة ليس هو نفسه في ١+١= ٢ فالمسألة ليست حسابية، أو فلكية كما في كروية الأرض، أو فيزيائية كما في قانون نيوتن للجاذبية، فهذه الأمور كانت تحتاج في حينها إلى قرائن وإثباتات وأدلة علمية، فلكي يثبت غاليلو أن الأرض غير مسطحة إنما كروية كان يحتاج إلى أدلة لكي يدفع عنه تهمة الهرطقة وإعدامه حرقاً، ونيوتن حينما قال (لكل قوة فعل قوة رد فعل، مساوية له في المقدار ومضادة له في الاتجاه) كان بحاجة إلى قرائن يقنع بها الآخرين، أما في الرواية، فلا يوجد قرائن ولا إثباتات ولا أدلة. لهذا، لم يكن كالفينو مجبراً على تقديم كل هذا، لأنه وببساطة لا يريد أن يجعل من عنصر الإقناع أداة تدفع القراء إلى التصديق بأن الفيسكونت بقي على قيد الحياة رغم انشطاره إلى نصفين، بقدر ما يريد أن ينسيهم

ذلك الانشطار، ويقنعهم بمواصلة القراءة والاستمتاع بالكذبة، من دون أن تعكر الأسئلة الساذجة والمُحبِطة أوقاتهم، وتنغص عليهم متعتهم.

وليست الواقعية هي المعنية بالذباب اللا مرئي الذي رأيت كالفينو يطرده بيده في مخيلتي، بينما هو يكتب الفيسكونت المشطور. فالواقعية ليست مثلبة. كيف تكون كذلك وهي التي انتشلت الرواية من قمقم رومانسية القرن التاسع عشر، حينما كان فلوبير يضع اللمسات الأخيرة لمدام بوفاري، طارداً بذلك آخر ذبابة كانت تحاول الهبوط على مسودته، لتترك فضلاتها على شكل اسئلة حول الأحداث اللامنطقية وغير المعقولة من وجهة نظر أولئك الذين ما زالوا يتساءلون: أين تذهب النجوم في الظهيرة؟ بماذا تحلم البراكين الخامدة؟ ويرددون على لسان الفيسكونت: لم كل هذه اللقالق؟ أين تذهب؟

(٧)

بحلول الليل، وصل النصفان إلى الجزء المظلم من الضفة اليسرى لشط البصرة. جلسا فوق إحدى الزوارق المقلوبة على جنبها، يتأملان من هناك المدينة الغارقة في الكآبة، رغم الأنوار التي تلتمع في واجهات البنايات الكبيرة والفنادق الضخمة ودولاب الهواء العملاق عند مدخل نهر العشار، على الضفة الأخرى، وتنعكس على صفحة المياه الساكنة في مثل هذا الوقت، وترجها مجاذيف الصيادين الذين يخوضون في النهر بزوارقهم، فتبدو تماماً كما وصفها بدر شاكر السياب في أنشودة المطر.

داعبت نسمات الهواء الشمالية نصفي وجهيهما، وداهمهما النعاس. ثمة أغنية فلكلورية بحرية انبعثت من مسجلة في مكان ليس بعيداً، وأنين جرو اختلط بتنهدات أنثوية وغنج، وكلمات بذيئة راح يطلقها سكير في مكان ما.

«سننام الليلة هنا» قال بوتاميا: «وغداً صباحاً نعبر إلى المدينة ونبحث عن مكتبة»

«نعم» وافقه ميزو متثائباً: «لن نبقى هكذا إلى الأبد»

تمددا، وكانا على وشك الإغفاء عندما سمعا جلبة وراءهما، فالتفتا ورأيا شبحاً يقترب منهما يحمل مصباحاً يدوياً سلّط ضوءه في وجهيهما.

«مرحباً أيها الرجلان!» قال بلهجة أهل البصرة الودودة. فرد عليه ميزو معترضاً:

«نحن نصفا رجل وليس رجلين»

وقال الآخر وهو يضع يده على عينه: «هلّا تكرمت وأطفأت هذا المصباح من فضلك؟»

اعتذر الرجل، لكنه لم يطفئ المصباح، إنما جلس على مؤخرته ووضعه إلى جانبه باتجاه مياه الشط، وقال: «كلنا أنصاف في هذه الحياة الناقصة»

كان يرتدي دشداشة بيضاء متسخة، ويلف حول رأسه يشماغ، ويحمل معه قصبة مربوطة بخيط وصنارة، وكيس يبدو أنه يضع فيه صيده من الأسماك. سأله ميزو:

«هل تصيد السمك؟»

«كلا» أجابه الصياد بسرعة بينما هو يثبت طعماً في رأس الصنارة ويلقيها في الماء: «أصيد الضفادع»

«ضفادع يا رجل؟» سأله بوتاميا باشمئزاز: «هل تأكلون الضفادع؟»

«كلا» قال الصياد مبتسماً: «بل أبيعها.. لكنها قلّت في الفترة الأخيرة. لا أعرف ماذا أصابها، لقد اختفت!»

«ومن تراه يشتري الضفادع؟» سأله ميزو وكان ما يزال يتثاءب.

عندئذ، بدأ الصياد يروي للنصفين عن كيفية اهتدائه إلى فكرة صيد الضفادع:

«في أحد الأيام، بينما كنت أبحث عن حاجتي في إحدى العارضات المُجمِّدة، في السوبر ماركت، رأيت بالصدفة لحوماً غريبة مجهولة

المصدر، كانت مغلفة بعناية ومخبأة تحت أفخاذ الدجاج المكدسة في تلك العارضة، وعرفت فيما بعد أنها ضفادع، لكنها لا تشبه ضفادعنا، إذ تبدو كبيرة وسمينة كما لو أن أحدهم عبأها بالهواء.

سجّلت شكوى في دائرة الرقابة الصحية، وجاء فريق منها في اليوم التالي للتفتيش، فعثروا على كميات كبيرة من تلك اللحوم المقززة. لكني فوجئت أن المفرزة الصحية لم تصادر شيئاً منها. وحينما سألتُ عن السبب، قيل له أنها مرخصة، ومعروضة للبيع، بالإضافة إلى لحوم الأخطبوطات والقروش الصغيرة، والسلاحف، للعاملين الصينيين والفلبينيين في حقول النفط المتاخمة للحدود. وعلى الرغم من ذلك، كان على صاحب السوبر ماركت أن يدفع غرامة مالية، بسبب سوء التخزين.

في طريق عودتي إلى البيت، شاهدت بعض الصبية في الشارع وهم يعبثون بالضفادع، ويتراشقون بها فيما بينهم. حينئذ، نبتت في رأسي فكرة.

«سأبيع الضفادع الطازجة» قلت لزوجتي وافتعلت فرقعة احتفائية بإبهامي والأصبع الوسطى: «ستكون تجارة رابحة»

حملت في اليوم التالي عدة الصيد التي صنعتها من قصبة وخيط وصنارة وقطعة فلين، وعدد من الديدان طعماً للضفادع، إلى أحد الأنهار المهملة، الآسنة، المتفرعة من شط البصرة، حيث تكثر الضفادع هناك. اصطدت منها الكثير. وشرعت بتقطيعها وتغليفها، بمساعدة زوجتي التي انقادت لمشروعي التجاري، إذ وعدتها بنسبة محترمة من الأرباح، التي فاقت التوقعات، بعد بيعي الوجبة الأولى من تلك

الضفادع إلى الصينيين والفلبينيين العاملين في حقلي مجنون والرميلة النفطيين.

استمررت في عملي المربح هذا لفترة من الزمن لم تكن طويلة، حتى جاء يوم لم اصطد فيه سوى ضفدع واحد كل يوم، فقد اختفت الضفادع فجأة كما قلت لكما مسبقاً. ربما فطن آخرين إلى ما كنت أقوم به، فحذوا حذوي، أو أن وباء غامضاً فتك بها على حين غفلة. لكني لم أيأس رغم ذلك، وها أنا كما ترياني ألقي صنارتي في هذا النهر الكبير، لعلي اصطاد المزيد من الضفادع»

استأنس النصفان بحديث الصياد الذي يشبه ماركو فالدو*. طار نعاسهما، فجلسا يستمعان إلى مغامراته الطريفة. وإلى أن أشرقت شمس اليوم التالي، كان ذلك الصياد قد أخرج من النهر أكثر من عشرة بساطيل عسكرية:

«يبدو أن معركة حربية طاحنة حدثت هنا» قال وهو في غاية الاستياء: «وإلا ما كل هذه البساطيل يا إلهي!»

وكان النصفان يتهيآن للمغادرة، عندما علق بالصنارة شيئاً لا يبدو أنه بسطال آخر، فقد امتلك من القوة والثقل ما جعل الصياد يتحرك من مكانه على قدر ياردة، مما استدعى مساعدة النصفين اللذين تشبّثا بثيابه، وراحا يجران معه الخيط حتى تمكنوا جميعاً من سحب الشيء العالق بالصنارة، والذي أتضح فيما بعد، حينما طفا مستسلماً على سطح الماء، أنه ضفدع بشري هائل ومخيف بينما هو على تلك الحال، يرتدي بزة الغوص السوداء، وقد أكل السمك ملامحه، أنفه وشفتيه وأذنيه وأصابعه، باستثناء العينين اللتين انتفختا على نحو مخيف حتى التصقتا بعدستي النظارة الواقية التي كان يرتديها.

«من أنتم؟!»

قال الضفدع البشري، الذي ما زال يختبئ في النهر منذ الحرب العراقية الإيرانية، بينما هو يلتفت حوله في كل الجهات، وقد ظلل عينيه بكفه المليئة بالطحالب والثآليل ليكف عنهما أشعة الشمس:

«هل انتهت الحرب؟»

عاد بعدها ليغطس تحت الماء من جديد.

ترك النصفان الصياد في مكانه يضحك من غرابة الموقف. راحا يمشيان بعكازيهما بمحاذاة النهر حتى وصلا إلى الجسر الذي يربط بين الضفتين من دون أن يلتفتا وراءهما. ومن فرط ذهولهما مما شاهداه، لم ينتبها إلى نقطة التفتيش في بداية الجسر، فأوقفهما أحد الشرطيين المتعجرفين هناك قائلاً:

«هويتكما لو سمحتما»

فضحك بوتاميا قائلاً:

«نحن نصفان مجهولا الهوية أيها الشرطي»

واعتُقلا في ذلك اليوم.

ووجدا نفسيهما مجدداً، تائهين، غريبين، مسلوبي الإرادة والانتماء، على الحدود العراقية الكويتية.

الفصل الرابع

الحدود العراقية الكويتية

(١)

في أحد الأيام منتصف شهر آب ١٩٩٠، كنتُ في «ساحة سعد» التي تقع خارج مركز مدينة البصرة، وهي عبارة عن ساحة عامة ينتصب في وسطها «نصب الحوت» كما يسميه البصريون، وهو في الحقيقة تمثال من البرونز يجسد قرشاً ضخماً يعتليه جندي يحمل سيفاً ويمسك بيده الأخرى سارية علم، ويرمز إلى الحرب العراقية الإيرانية.

يقع في هذه الساحة مفترق طرق أربعة، من ضمنها الطريق الذي سلكته دبابات الحرس الجمهوري باتجاه سفوان وأم قصر الحدوديتين لاجتياح دولة الكويت الصغيرة والغنية بالبترول، التي، وإن تعددت الأسباب الأخرى لكنها، بدت وكأنها السبب الرئيس وراء سقوط ثلاث أنظمة عراقية قوية، بدءاً من نظام الحكم الملكي، مروراً بنظام الحكم الجمهوري القاسمي، وانتهاء بنظام الحكم البعثي.

فعندما رغبت المملكة المتحدة يوماً، في ضم الأردن إلى العراق، ليكونا مملكة موحدة تحت ظل الحكم الهاشمي العربي لذرية الشريف الحسين بن علي، طالب في حينها رئيس الوزراء العراقي نوري سعيد باشا بضم الكويت أيضاً، لكي لا يثقل الأردن كاهل العراق الاقتصادي، خصوصاً أنها دولة ريعية، على العكس من الكويت الغنية بالنفط. متناسياً أن الملك غازي كان قد صُفّي في حادثة السير المزعومة بعد مطالبته

بالكويت، وإشاعة ذلك عبر إذاعة قصر الزهور، واستقباله المعارضة الكويتية التي كانت تؤيد ضم الكويت إلى العراق في عام ١٩٣٨. وهكذا، سيتمكن العراق من إعالة الشريك العربي الهاشمي الجديد. فوافقت المملكة المتحدة على مضض، وكان الاندماج سيتحقق، لولا الانقلاب الدموي المفاجئ الذي قام به الضباط الأحرار في عام ١٩٥٨ بقيادة العميد عبد الكريم قاسم، وقُتل في إثره الملك فيصل الثاني مع أفراد عائلته بالطريقة نفسها التي صُفّي بها قيصر روسيا نقولاي الثاني وعائلته على أيدي البلاشفة في عام ١٩١٨، كما قُتل رئيس الوزراء نوري سعيد بطريقة بشعة وسُحل في الطرقات، لتبدأ بعدها مرحلة جديدة من تاريخ العراق السياسي، لم تخلُ هي الأخرى من المطالبة بالكويت، لكن بصورة علنية مشفوعة بلهجة شديدة تقترب من التهديد، الذي كان عبد الكريم قاسم يوجهه بنفسه عبر الاعلام المسموع والمرئي. إلا أن الأمر لم يدم لأكثر من خمسة أعوام، حتى أُطيح بعبد الكريم قاسم من قبل البعثيين والقوميين، فظنت الكويت أنها تخلصت من كابوس المطالبة الذي بدأه الملك فيصل الأول في عام ١٩٢٤، حتى جاء صدام حسين لينفّذ ما لم يتسنى لفيصل وغازي ونوري سعيد وقاسم تنفيذه، وهو اجتياح دولة الكويت في يوم ١٩٩٠/٨/٢. الخطوة التي أربكت العالم بأسره، ومنطقة الشرق الأوسط على وجه الخصوص، قبل أن تُطيح بحكم البعث الذي امتد لأربعين عاماً.

كنت أريد القول أني كنتُ في ذلك المكان، ساحة سعد بن ابي وقاص في البصرة، عندما رأيت مجموعة كبيرة من الكويتيين، ممن لم تتح لهم الفرصة بالهروب عبر الحدود السعودية، يعرضون ممتلكاتهم الشخصية للبيع: أجهزة كهربائية، موبليات، تحف، سيارات، ومواد منزلية مختلفة، وحتى الثياب، ليحصلوا على العملة العراقية، بعد أن لم

يعد للعملة الكويتية من قيمة تُذكر في ظل الاحتلال العراقي لبلدهم الصغير والسعيد. ومن لم تمتد يداه، من العراقيين، إلى الممتلكات العامة والشخصية في الكويت أثناء احتلالها، راح يملأ بيته من تلك الممتلكات التي باعها أصحابها الكويتيون بأبخس الأثمان، ليحصلوا على عملة عراقية كانت قد تهاوت إلى الحضيض بعد أن كانت تساوي ما قيمته ثلاث دولارات.

وكانت الكتب من جملة تلك الممتلكات التي باعها الكويتيون المنكوبون، وكان هناك رجل لم يتجاوز العقد الرابع من عمره، يعرض على أحد الأرصفة مكتبته الشخصية في ساحة سعد، على مقربة من الكراج، إلى جانب باعة أجهزة الفيديو، والغسالات، والخلاطات، ومسجلات ستيريو، والدراجات الهوائية، وأغراض أخرى. الأحرى أنهم لم يكونوا باعة، إنما مواطنين كويتيين مهددين بالجوع إن لم يحصلوا على العملة العراقية. لذا لن أسمي ذلك الشخص الكويتي بائع كتب، إنما صاحب الكتب.

كانت عناوين الكتب المعروضة نوعية ومختلفة ومغرية. كان بودي لو اقتني المكتبة بأكملها، لكني لم أكن أملك سوى ثمن كتاب أو كتابين. كنت وقتها في الثامنة عشرة من عمري، ولم تمضِ فترة طويلة منذ أن بدأت القراءة، وكانت رواية الفيسكونت المشطور من ضمن الكتب القليلة التي قرأتها حتى ذلك الحين وانبهرت بها على نحو طفولي. لكني، وكما لو أن هناك من كان يدفعني إلى ذلك، ما أن أرى نسخة من تلك الرواية معروضة في مكتبة أو على رصيف، حتى أسارع إلى اقتنائها. وكانت النسخة التي وجدتها على الرصيف، بين كتب ذلك الكويتي هي الثانية. ثم اقتنيت بعدها الكثير من النسخ، وبعدة طبعات وترجمات ولغات، ابتعتها من مكتبات وأمكنة مختلفة في العراق وفي

الدول العربية والغربية التي زرتها. حتى أصبح لدي، بفضل هذا الهوس الغريب الذي لم أجد له تفسيراً سوى انبهاري المبكر والمفرط بعوالم كالفينو الغرائبية، رفّاً كاملاً لرواية الفيسكونت المشطور بعدة لغات، رغم أني لا أجيد سوى العربية والانكليزية.

في عام ٢٠٠٣، بعد الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني للعراق، وإسقاط نظام صدام، عادت تلك الممتلكات إلى التدفق عبر الحدود العراقية الكويتية، لكن بصيغة أخرى، ليس عن طريق نهبها من قبل العراقيين، أو بيعها من قبل الكويتيين المعوزين المُحتَلين، إنما من خلال جيش من السماسرة وتجار العتيق الذين أفرغوا دولة كاملة صغيرة من نفاياتها الأنيقة ليغرقوا بها بلداً محتلاً، بعد أن كان غازياً قبل ثلاثة عشر عاماً، ويحيلونه إلى أكبر حاوية للأزبال في الشرق الأوسط.

لكن الكويتيين هذه المرة لم يبيعوا ممتلكاتهم بدافع العوز، بل لأنها كانت فائضة عن الحاجة، وأيضاً لكي يتخلصوا منها ويستبدلونها بممتلكات جديدة. ولهذا، لم تختلف كثيراً عن النفايات الأنيقة، التي بدأت بالتدفق إلى العراق من كل أنحاء العالم، بما في ذلك اسرائيل. وعلى الرغم من السيول الجارفة لتلك النفايات الأنيقة التي انهالت من جهة الكويت، إلا أنها خلت، ويا للأسف، من الكتب التي يمكن للنصفين العثور بينها على رواية الفيسكونت المشطور في منطقة سفوان الحدودية، حيث تغص الأرصفة والمخازن هناك بتلك النفايات الأنيقة والثمينة أحياناً.

(٢)

لم يوضع النصفان في كيس من الخيش هذه المرة، إنما رُبطا إلى بعضهما فحسب، من موضع الشطر. لم يتسنى لهما معرفة إن كانوا سيعيدونهما إلى المكان نفسه الذي هُرّبا منه في شاحنة دجاج الهيرويين عبر الحدود العراقية الإيرانية، فقد حقنوهما بالعضلة بمادة كيتامين حتى غابا عن الوعي، فحُملا في عجلة تابعة لحرس الحدود أقلتهما صوب الحدود العراقية الكويتية، حيث أُلقيا هناك، على مسافة لا تبعد كثيراً عن منفذ سفوان الحدودي.

حدث ذلك في ظهيرة يوم، كان الجو فيه حاراً على نحو لا يبدو أن الصيف قد بدأ يلملم بقايا نزواته الجحيمية في تلك الحدود المقفرة. وبينما هما كذلك، مربوطين ومرميين على الكثبان الرملية الساخنة، مثل عجلين منبوذين لم يعد مرحباً بهما في تلك الزريبة الخلفية، كما أسماها مهرب الهيرويين الإيراني، وإذا بأحد ما، عابر سبيل أو بدوي من تلك البقاع أو أحد أو ربما قاطع طريق، يحاول إيقاظهم بسطل من الماء البارد رشه على وجههما كما يفعل أحدهم مع إطار سيارة موحل.

عندئذ.. أفقت!

نعم أفقت. يبدو ذلك. إذ ليس ثمة أثر للنصفين. صرت أنا واحدة، وليس اثنتين. اختفت الأنا الثالثة، أنا الروح، الوعي، العقل، أو ربما

الوهم. أنا الكذبة! وحتى الراوي العليم اختفى، فعلى ما يبدو أنه مرتبط بتلك الأنا الثالثة المركزية. وها أنا ذا أروي عن نفسي، لا عن نصفين.

لكن.. كيف حدث ذلك؟!

سألت نفسي مغتبطاً، لكني سرعان ما تذكرت: آه سحقاً، إنه الحبل!

لكن لو افترضنا أن الأنا الثالثة هي من اختفت، من الذي يروي الآن؟ خصوصاً وأن النصفين عادا كلاً واحداً هو أنا. فتلاشت أناهما أو أنا كل واحد منهما. في حين عادت إليّ أناي.

أناي؟

وأين كانت تلك الـ«أنا» التي أدعي الآن أنها أناي؟ وإذا لم تكن هي نفسها الأنا الثالثة، من تكون يا ترى؟ هل يعني أن هناك «أنا» رابعة عادت بمجرد أن عاد النصفان إلى الالتحام؟ أم إنها «أنا» مشوّهة، هجينة، تشكلت من الالتحام الركيك بين أنا النصف الأيمن وأنا النصف الأيسر من خلال ذلك الوثاق؟

«حسناً، ليس ثمة داعٍ لكل هذا الهراء الآن»

«من المتكلم لطفاً؟»

«أنا»

«من أنت؟»

«الأنا الثالثة»

«لكن من أين تتكلمين؟»

«من مكان ما لا أعرفه»

«ومن أنا؟ هل تعرفينني؟»

«لا أعرف.. لكني أعرف أنكِ على وشك التلاشي ما أن ينتهي هذا الرجل من فك وثاق.. ذاك الرجل»

«ومن هو الرجل؟»

«أي رجل تقصدين؟ هذا أم ذاك؟»

«ذاك»

«لا أعرف أيضاً، لكنه من المفترض أن يكون نحن جميعاً. لكنه سيعود إلى نصفين بعد لحظات، وسأعود أنا لأروي عنهما»

«وأنا؟»

«أنت ستختفين إلى الأبد هذه المرة»

«لكن من أنا؟»

«لا أعرف.. والآن اذهبي، وشكراً لوقتك.. اذهبي فحسب.. هيا.. هش!»

(٣)

حين استعاد النصفان وعيهما، مبللين، مغبرين، كأنهما أُنقذا للتوّ من تحت الرمال المتحركة، وجدا أنهما عادا مشطورين من جديد. وعلى ما يبدو أن هناك من فكّ وثاقهما فعلاً، وها هو الآن يجلس إزاءهما متربعاً، وقد وضع نعليه الجلديين المستهلكين أمامه. يشفط دخاناً غليظاً من سيجارة سميكة بين أصبعيه وينظر إلى جمرتها مرة، وينظر إليهما، لكن ليس بريبة إنما بتساؤل، مرة أخرى. كان ذو سمرة معتدلة وشاربين كثيفين ولحية مهملة اختلط فيها الشعر الأشيب بالأسود، ليكونا انطباعاً عن عمره الذي لم يتعد الستين. وكان قد مرّ بتلك النواحي من أجل القنص.

«من نحن؟» سألاه كليهما في الوقت نفسه. وكان من المفترض أن يسألا: «أين نحن؟» لكن يبدو أن الفوضى التي خلّفتها» الأنات المتعددة عندما كانا ملتصقين ومربوطين إلى بعضهما البعض، قد أربكتهما. وشيئاً فشيئاً، كمن تعود إليه ذاكرته بالتدريج، استعادا الوضع السابق الذي ألفاه طوال الفترة الماضية، وتذكرا أنهما نصفان. حينئذ، سأل بوتاميا قائلاً:

«أين نحن؟»

«على الحدود العراقية الكويتية» أجاب الرجل وهو يرمي عقب سيجارته.

«ومن أنت؟» سأله ميزو.

«أليس من المفترض أن أبادر أنا بسؤالكما: من أنتم؟» قال الرجل مبتسماً، كمن يحاول أن يبدو ظريفاً.

«نحن؟» نظر النصفان أحدهما إلى الآخر بحيرة، قبل أن يقولا: «نحن نصفان مجولا الهوية»

ضحك الرجل رافعاً رأسه كتنبل يريد أن يستقبل تمرة وقعت من أعلى نخلة، فلاحظا في حينها أن ليس هناك تفاحة آدم في نحره: «أرجو ألا تخشيا شيئاً بهذا الخصوص، فأنا الآخر مجهول الهوية، لكني لم أُشطر إلى نصفين بعد»

«لم نفهم» قال بوتاميا. كان يتكئ على نصفه الأيسر، الذي يبدو أقل إنهاكاً وأكثر توقداً.

فقال الرجل:

«هل سمعتم بالبدون؟»

«ربما» أجابه ميزو ـ ظاناً البدون مثل القبيس وأن هذا الرجل سيحتال عليهما: «ليس كثيراً على أية حال»

«أنا أشرح لكما باختصار» قال الرجل وقد هم بإشعال سيجارة أخرى: «هناك فئتان من البدون لكني سأحدثكم عن الفئة التي انتمي إليها» توقف لحظات راح يعالج بلغماً في بلعومه إلى أن بصقه ثم استأنف حديثه قائلاً:

«قبل اكتشاف النفط كنا كويتيين، وبعد اكتشاف النفط صرنا كويتيين لكن من البادية، أي صحراويين، ثم تحولنا بقدرة قادرة وبحيلة السياسة إلى غير كويتيين، ثم بمرور الوقت تحولنا إلى غير محددي الهوية، ثم

إلى مقيمين بصورة قانونية، ثم إلى مقيمين بصورة غير قانونية، إلى أن انتهينا إلى «بدون هوية» وحالياً يجري بيعنا إلى جزر القمر!»

«أنت تمزح أليس كذلك؟» سأله ميزو: «بشأن جزر القمر؟»

«لا أبداً» أجابه الرجل وهو ينفث دخاناً كثيفا خانقاً نحو الأعلى: «لكي يسمحوا لنا بالإقامة الدائمة والاستفادة من التعليم المجاني والرعاية الصحية والحق في العمل وبقية الضمانات الاجتماعية، صار لزاماً علينا التقدم بطلب المواطنة الاقتصادية لجزر القمر، وبذلك نصبح قمريين، تصوروا ذلك!»

وكما لو أنه انتهى من رواية نكتة، طفق الرجل يضحك، لكن بمرارة حاول ألا يظهرها.

هبت ريح كتلك التي صادفاها على الحدود العراقية السورية، التي تُسمى فسوة الواوي، الريح اللولبية، الزوبعة التي تحاكي في شكلها الإعصار، وأثارت في النصفين حنيناً غامضاً لشيء يبدو مجهولاً، رغم أن لا شيء سوى الغثيان يثيره الفساء.

«ما الذي تبحثان عنه في هذا البر القاحل ايها النصفان المسكينان؟» سألهما الرجل وبدا كأنه يشفق عليهما، فقالا له:

«نبحث عن كتاب»

وعندما سألهما ما الذي يفعلانه به لم يجيبانه، هزّا كتفيهما قائلين:

«نريده فقط، فهل يمكنك أن تجلبه لنا؟»

«كتاب!» قال الرجل، بينما هو يغرز أصابعه في لحيته، ويبدو أثناء ذلك كمن سُئل عن جرعة كوكايين: «حسناً، اسمعا. لقد سبق أن عملت في سلك الشرطة، شرطة الحدود تحديداً، وكان ذلك قبل الغزو العراقي للكويت. ما أريد قوله هو أنهم يمنعون مرور الكتب هنا أكثر من

المخدرات. لكن إذا كان هناك خدمة أخرى يمكنني تقديمها لكما، فسيكون ذلك من دواعي سروري»

«شكراً أيها..» قال بوتاميا بصوت مرهق وتوقف فجأة، في حين أكمل ميزو العبارة بقوله: «أيها البدون الطيب!»

فابتسم الرجل، ركب سيارته البيك أب الحمراء وودعهما قائلاً: «الطريق المعبدة ليست بعيدة من هنا.. هل أوصلكما؟»

شكره النصفان، ولبثا في مكانهما أكثر من ساعة، ثم نهضا وراحا يقطعان المسافة إلى الطريق المعبدة، يعين أحدهما الآخر، حتى وصلا مع الغروب. وعلى الرغم من كثرة السيارات والشاحنات المارة من هناك، جيئة وذهاباً، إلا أنهما انتظرا حتى منتصف الليل، عندما توقفت شاحنة تسحب مقطورة كبيرة محملة بقطع الأثاث المستعملة. ترجل السائق وفي يده مصباح يدوي، ويبدو أنه لم يرهما، فقد اتجه إلى أحد الصناديق أسفل الجانب الأيمن من الشاحنة وفتحه. أخرج منه طاولة وكرسياً صغيرين ومصباح لوكس أشعله، قبل أن يشرع بتحضير وجبة عشاء متأخرة وسريعة، بينما هو يتمتم بكلام مبهم بالهندية.

لم يستغرق تحضير سندويتش الهمبرغر الضخم المشبع بالتوابل والشطة الحارة على نحو مفرط سوى دقائق. استدار بعدها السائق بالتزامن مع أول عضة نالها ذلك الهمبرغر المسكين، لتحدث المفاجأة غير السارة. وكما لو أن هناك من ألقى تحت ساقيه المفرقات على غفلة منه، أجفل السائق فزعاً، وطار سندويتشه في الهواء. تراجع إلى الوراء حتى ارتطم بالشاحنة، وقد نطط عيناه متمتماً بالهندية، مبحلقاً أمامه كما لو أنه يحدق بيوم القيامة، حيث يقف النصفان اللذان حاولا تهدئته، وبديا في ذلك الحين كأنهما يروضان خنزيراً بريّاً هلعاً. وكانا كلما تقدما

نحوه بدا أنه سيتسلق الشاحنة. فربما ظنَّ أنهما طنطلان(*) من تلك التي يُروى أنها تسكن البراري والغابات، وتمتطي الإنسان وتقوده حين تشاء. الأمر الذي لم يعد بوسعه تحمله فأُغمي عليه كما يُغمى على بعير رأى سكيناً.

بعد مضي ما يقارب عشرة دقائق، أفاق سائق الشاحنة من أغماءه بعد أن رش النصفان الماء على وجهه وراحا يصفعانه برفق، لكنه ما أن رآهما ثانية حتى زحف على مؤخرته إلى الوراء، لكنهما استطاعا ترويضه هذه المرة، فأخذ يطمئن شيئاً فشيئاً، إلى أن بدأ يصدق أنهما نصفان بشريان.

«ماذا كنت تظننا؟» قالا.

«كنت أظن أنكما طنطلان!» أجابهما.

«هل هذا هو ما أخافك؟» سألاه: «ظنك بأننا طنطلان، وليس لأننا نصفا إنسان منفصلان؟»

«نعم» أجابهما السائق وهو يمسح العرق من جبينه: «أظن ذلك»

أجلساه على كرسيه الصغير أمام الطاولة، في حين جلسا هما على الأرض متكئين على بعضهما ظهراً لظهر، وكانا ما زالا يطمئنان السائق المذعور الذي اصفرّ وجهه، وفي عينيه كانت هناك بقايا ريبة. سألهما من يكونا، فردا عليه كما في كل مرة عندما يُسألان السؤال نفسه:

«نحن نصفان مجهولا الهوية»

أعادا عليه الأسطوانة المشروخة نفسها التي بدأت عند الحدود العراقية السورية، حتى وافق على تهريبهما إلى داخل العراق من جهة

(*) شبحان.

البصرة، لكنه قال لهما أنه لن يتحرك قبل شروق الشمس، فأغدق النصفان عليه بالشكر الجزيل. ثم سألاه:

«هل أنت هندي؟»

«بإمكانكما أن تقولا ذلك» أجاب السائق الهندي.

«لكنك تتكلم مثلنا تماماً!» قال بوتاميا مستغرباً.

«نعم» علّق الهندي ذو البشرة السمراء الداكنة والوجه الحليق والشعر السبط المثبّت على طريقة شاروخان: «في الحقيقة أنا لم أكن هندياً حتى عام ١٩٩١»

«وماذا حدث في عام ١٩٩١؟» سأله ميزو.

«لن تصدقا حكايتي» قال لهما الهندي وهو يرمي عود ثقاب أشعل به سيجارته.

«وما هي حكايتك؟» سأله بوتاميا، فأجابه السائق، وكان قد نهض من مكانه ليحضر وجبة سريعة وجديدة، بعد أن أصبح سندويتشه غذاء للنمل.

«هل تودان أن تسمعانها؟» قال لهما، فهز النصفان رأسيهما برضا، كالعادة، مثل طفلين وُجّه لهما السؤال نفسه. حينئذ، شرع بسرد تلك الحكاية بأسلوب طريف مرة وتراجيدي مرة أخرى.

(٥)

«ما زلت أتذكر ذلك على الرغم من صغر سني في حينها، فقد كنت في الثانية من عمري، وكنا نسكن مدينة البصرة. غافلت أمي على الغداء وأكلت إصبع فلفل حار. تفلفل فمي، ودعكت عينيّ حتى كادتا أن تحترقان، آلمني لذع الحرارة، إلى حدّ تصور معه أبي مَوَعان البُن الذي يكسوهما، فغطس رأسي في طشت فيه ماء، وأجبرني على فتحهما، لكن من دون جدوى. هذا قبل أن تعثر جدتي على طريقة أقل عنفاً لتبريدهما، فقد وضعت فص ثلج في قماشة وراحت تمسح به على جفنيّ وتنفخ عليهما، بينما هي تقرأ: «يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» وكمن يلهو عن خوفه بِعدّ الخراف، كنت أنشج مترنماً بالكلمات التي رافقت خطواتي الأولى المتأخرة:

«تاتي.. توَّاتي»

تكررت الحالة في سنتي الثالثة مرتين، الأولى مع أصبع فلفل أخضر، والثانية مع شطة فلفل أحمر. إلا أن هاتين المرتين كانتا أقل تضرراً. في حين صرت أقرب إلى الاعتياد في المرات التي تلتها. غير أن العلامات الأولى لنهمي إزاء الأكل الحار ظهرت في أحد الأيام، حينما بلغت العاشرة من عمري، التهمت سندويتش فلافل، كان رفيقاي قد دسا فيه ستة أصابع فلفل حارقة، آملين أن تُلهب فمي، ويكون ذلك

مقلباً لن أنساه مدى الحياة. إلا أن شيئاً لم يحدث لي، حتى أني لم ألحظ أن السندويتش ملغوم بتلك الكمية التي تكاد أن تكون كافية، لجعل الدخان يتصاعد من رأسي وأذنيَّ. لقد أكلته بمتعة كبيرة، كما لو أن الحياة صارت أجمل، بينما هي تحترق من فمي حتى فتحة شرجي. وحين سألاني رفيقاي إن كان ثمة شيء يحترق في بطني تجشأت بوجهيهما وخلت أن ملامحهما عطبت من تلك الجشأة.

بمرور الوقت، صرت لا أجلس إلى مائدة تخلو من الطعام الحار. وقد أكسبني ولعي بالفلفل ومشتقاته لقب «الهندي» الذي صرت أُنادى به حتى في البيت، من قبل أفراد اسرتي، فضلاً عن المدرسة وساحة الكرة، أو حينما أعوم مع زملائي في مياه النهر. الأمر الذي لم يكن ليثير استيائي أبداً، أو يقلل من كوني عراقي الأم والأب، وسليل أجداد ضربت جذور عراقيتهم في أرض البصرة منذ مئات السنين. فكما يناديني الآخرون بهذا اللقب ـ الذي لا يدعي نسبته إلى الهند بقدر ما يؤكد ذلك على نهمته غير الطبيعية تجاه الأكل المفرط بالحرارة ـ فإن هناك الكثير غيري ممن يُنبزون بألقاب أخرى، كـ«بُلّة الصيني» الذي لا يقتني سوى السلع الصينية الرخيصة، و«عباس النرويجي» الذي كان مقيماً في النرويج وطُرد منها بعد خروجه من السجن، حيث أمضى عقوبته هناك بتهمة التحرش الجنسي بالأطفال، و«سعد الأفريقي» الذي يدعي أنه يستورد مساحيق التنشيط الجنسي من أفريقيا.

وحدث بعد أعوام، في ليلة من ليالي آذار الباردة، بعد حرب الخليج الثانية، وتحديداً أثناء انتفاضة ١٩٩١ ضد نظام صدام، كنت برفقة ثلاثة من أصدقائي. وكنا نجلس حول جذع نخلة مشتعل، قريباً من النهر. وكان هناك عيارات نارية بالكاد يسمع صوتها في الجوار، فكل

شيء مسيطر عليه تقريباً من قبل الثوار، كما كانت تشيع ذلك إذاعة العراق الحر على الموجة القصيرة، بين فترة وأخرى.

«هل تعلمون؟» كنت أفاكههم قائلاً:

«لو لم تفعل أمريكا شيئاً سوى صناعة الشطة، لكان ذلك أفضل إنجازاتها!»

فيضحك الأصدقاء الملتحفين بقمصلات عسكَرية كان لفيف من الجنود المنسحبين من الكويت تركوها على ضفة الشط ولاذوا بالفرار:

«وحتى القنبلتان النوويتان اللتان ألقاهما الأمريكان على هيروشيما وناكازاكي هما بالحقيقة عبوتا شطّة حارة ماركة الديك الأحمر من لويزيانا!»

أحياناً، أخرج عن الإطار الكوميدياني وأنا أروي يومياتي الهزلية عن الشطّة والأكل الحار، بطريقة تفتقر إلى الحرفية، فأجنح نحو الجدية، وافصح عن أمنيتي للمرة الألف، بالهجرة إلى أمريكا، والعمل في مصانع لويزيانا الشهيرة، وأعيش هناك عيشة رغيدة، قريباً من روائح التوابل الحارة والشطة اللذيذة والأشهر في العالم.

«لماذا لا تذهب إلى الهند؟» يسألني أحدهم مازحاً بمرح: «هناك حتى الآيس الكريم حار، من المؤكد أنك ستتحول إلى تنين يا صديقي»

في تلك الليلة الآذارية، تفرقنا كل إلى بيته تحت سماء تلتمع فيها الإطلاقات النارية وتخبو سريعاً. واستيقظتُ في صباح اليوم التالي على صوت لغط في الشارع، قبل أن أفهم من أحد أخوتي أن الثوار فتحوا مخازن المؤن على ضفة الشط للناس، لكي يأخذوا من الأغذية المخزنة فيها، والتي نُهبت من الكويت في وقت سابق، بعد احتلالها من الجيش العراقي. فكّرت بالذهاب إلى هناك، لعلي أحصل على صندوق من

الشطة، أو كمية من التوابل الحارة، لا بد أن تكون مخزونة في ذلك المكان. هرعت إلى هناك، ووصلت سريعاً، إذ لم تكن المسافة بين المخازن وبيتنا طويلة. حشرت نفسي بين حشود الناس الذين راحوا يتناهبون مختلف السلع الغذائية، رز، طحين، فاصولياء، عدس، بُن، حليب، نشاء، سمك معلب، زيتون، مخلل، صابون، مساحيق تنظيف، شوكولا، علكة. كل تلك الأشياء لم ترق لي، فأهملتها ورحت أبحث عن ضالتي حتى عثرت عليها أخيراً في أحد المخازن، وهي ذلك النوع المعتق من الشطة الحارة التي يبول منها الحمار دماً.

وفضلاً عن صناديق الشطة، كان هناك الكثير من التوابل الحارة المستوردة من الهند، وصناديق كجب حار، وفلفل أخضر معلب نقلتُ منها إلى البيت كميات كبيرة أثارت حنق والديّ، ففي الوقت الذي كان الأبناء ينقلون إلى بيوتهم الرز والطحين والعدس والسمن، كنت أنا، المخبول في نظرهم، أقضي النهار كله بنقل نيران الأمعاء تلك، وأملأ بها البيت الذي أصبح بقعة متبّلة من جهنم، حسب إفادة جارنا التي أدلى بها في مديرية الأمن العامة، حينما اعتقلتُ بعد استعادة المدينة من الثوار بتهمة المشاركة في انتفاضة آذار ١٩٩١.

«تكلم هيييي!» كان ضابط التحقيق في المعتقل يزعق بوجهي الذي اختفت ملامحه خلف فوضى الدم والشقوق وآثار بوكسات الحديد: «أنت عراقي؟»

أقسمت له بالمقدسات والأولياء الصالحين أني عراقي، ووالدي عراقي، وأمي عراقية، وأن عراقيتي تجتاز جدي السابع عشر إلى كَلكَامش. كنت أحشر رأسي بين ركبتيّ، لأتحاشى المزيد من بوكسات الجلّاد الذي كان يكرر كلمة: «اعترف كلب» مع كل بوكس ودمغة ورفسة يومئ مرؤوسه بتوجيهها.

«بماذا أعترف؟»

«بأنك هندي» يجيبني الضابط بلهجة آمرة لا تخلو من وعيد بتهشيم أسناني إذا ما انكرت هذه المرة بأني هندي جلف جاء من وراء البحار، من بلاد القرود والفيلة والتوابل الحارة، وملء مساماته رائحة ثوم زنخة يريد أن ينتن بها البلد: «اعترافك سيوفر لك محاكمة عادلة، بدل أن تموت هنا مثل كلب.. أعدك»

كنت أتساءل في نفسي: هل يمزحون معي يا ترى؟ أم يضحكون على عقلي، لكي أقول لهم أني هندي فعلاً، ثم يسوقوني إلى المشنقة بعد ذلك، ومن أجل ماذا؟ من أجل شطة وتوابل لعينة مهمتها في هذه الحياة هي تقريح المعدات، وإحراق الأمعاء والشروج، وتحميص البواسير. فطوال حياتي، بدلاً من أن ألهث وراء النساء، مثلي مثل أغلب الذكور، رحت أعشق الشطة. وإذا أعجبتني امرأة وصفتها بأنها حارة مثل شطة، كأني أصف ظهيرة تموزية من ظهيرات البصرة القائظة، وليس امرأة جميلة غمزت لي، فكان من سوء الحظ الذي رافقها في ذلك اليوم، أن شخصاً نعتها بذلك الوصف، فأحست كما لو أن لذعاً اخترق طبلتي أذنيها بإحساس لاهب.

قلت لذلك الضابط بصوت يائس منهك خرج من بين ساقي: «لكني لست هندياً!»

ابتكر جلادي طريقة جديدة بالتعذيب:

«سأرى إن كنت هندياً حقيقياً أم مزيفاً يا عبد القضيب» يقول لي الجلاد.

«هل ستشنقني؟» أسأله.

«لا، سأقيس هنديتك فقط» يرد وملء فمه قهقهة خبيثة.

كان يحدث جروحاً في جسدي ويمرر عليها اصابع فلفل شديد الحرارة، وعادة ما تكون تلك الجروح في ظهري، لكي لا يطول لساني طعم الفلفل فيها. الأمر الذي كان عذابه أمض عليّ من تبضيع ظهري بموس عمليات جراحية، فقد كنت أبكي حسرة لمجرد أني لا أستطيع لعق جراحي، والحصول على تلك اللذة الفتاكة التي توفرها حرارة الفلفل.

«الآن، أثبتت أنك هندي بمعنى الكلمة!»

بعد عام قضيته في السجن، قُتل خلاله أغلب المعتقلين الذين كانوا معي من دون محاكمات، أو ماتوا من فرط التعذيب، صدر بحقي حكماً بالإعدام شنقاً حتى الموت. مرضت، نحلت، وبرزت عظام وجهي على نحو ما يبدو عليه ضحايا المجاعات. أشفق عليّ السجانين وتوقعوا موتي قبل أن أصل إلى حبل المشنقة. لم يزرني أحد من أهلي طوال فترة السجن، باستثناء أمي التي كما لو أنها تكلفت عناء تلك الزيارة لا لأجل شيء، سوى سماع وصيتي المتكررة بالحفاظ على كنزي الجهنمي، سائل الجحيم ومساحيقه الكريهة، عشقي الأول والأخير الذي أخلصت له وتفانيت من أجله، وها هو الآن يقذفني بذروق التنانين الملتهب. وهي منذ ذلك اليوم لم تعد لزيارتي أبداً.

قضيت ليلتي الأخيرة في زنزانة تضم محكومين آخرين بالإعدام. سمعت أحدهم يرتل بصوت متهجد: «يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» كما لو أنهم سيقتادونه إلى المحرقة، وليس إلى حبل يتدلى من علوّ وينتهي بأرجوحة الموت التي تسمى شناطة. تذكرت جدتي، والمرة الأولى التي أحرق فيها الفلفل حلقي وعينيّ، وكمادة الثلج التي كانت تمررها على جفنيّ وهي تقرأ تلك الآية القرآنية. دمعت عيناي، تمنيت

لو يتوقف قلبي في تلك اللحظة، وكانت أمنيتي الأخيرة أن أتذوق من شريحة مانجا حارة متبلة بالخردل. فاجئني صوت جهوري حاد وهو ينادي اسم السجين الذي كان يطلب بتوسل من النار أن تكون برداً وسلاما على إبراهيم، إلا أن اسمه لم يكن إبراهيم. نهض متثاقلاً، واقتاده حارسان عبر الممشى المبلط بكونكريت صقيل إلى غرفة الإعدام. لم أكن أعرف وقتها رقم تسلسلي في قائمة الإعدام، وربما لم أكن أعبأ كثيراً بذلك ما دام أني سأموت في النهاية. لكني، وبعد أقل من ثلاثين دقيقة، سمعت صوت المنادي نفسه يتلفظ اسمي بنبرة إعلانية، كأنه يكشف بذلك اسم أحد الفائزين بقرعة.

اقتادني نفس الحارسين. كانا يمسكاني من ذراعيّ، في حين كنت أنا متهالك القوى، بالكاد أتنفس، أسح قدميَّ على أرض الممشى المفضي إلى غرفة الإعدام.

«أشكر ربك يا رجل» قال المنادي بأسماء المحكومين. كان يمشي ورائي بكامل قيافته، حليق الذقن، كث الشارب، تنبعث من ثيابه رائحة قولونيا لاذعة: «أشكر معبودتك البقرة أن لكم بلاداً تحترم الإنسان مثل الهند، وتقدر مواطنيها إلى هذه الدرجة. فعلى الرغم من عدد نفوسها الهائل ـ مليار؟ أليس كذلك يا عبد البقرة؟ ـ لكنها طالبت بحياتك. لا بد أنك شخصية مهمة، لكي يطالب بك رئيس وزراء بلد عظيم مثل الهند، أم أنا مخطئ؟. صحيح، يقال أن بعضكم يعبدون الأعضاء التناسلية! هل حقاً؟ هل حقاً ذلك؟ أم أنكم تفعلون ذلك لمجرد رغبتكم باللحس؟»

اجتاز الحارسان غرفة الإعدام، وأدخلاني ممراً آخر يفضي إلى رحبة عجلات، حيث كانت تنتظرني هناك سيارة مرسيدس بيضاء تابعة للسفارة الهندية في بغداد، وثمة رجل يرتدي الزي الهندي الرسمي

وعمامة سمائية، ذو سحنة سمراء، يلصق باطني كفيه ببعضهما، إلى مستوى الصدر، مبتسماً، هازاً رأسه بثناء، كما يفعل أغلب الهنود، أمام ضابط أمن عراقي من دون رتبة.

«لا تنس يا عبد البقرة» همس حاجب الموت في أذني مودعاً: «سلّم لي على اميتاب باتشان!»

(٦)

حينما انتهى سائق الشاحنة من سرد قصته الغريبة للنصفين، علّق بعدها قائلاً لهما:

«هل تصدقان؟»

وكالعادة في حال كان الشك يعتريهما، هزّ النصفان الكتفان في الوقت نفسه، فتبرم وجه السائق الهندوعراقي، كأنه علم ما في نفسيهما، وقال:

«أنتما لا تصدقان إذن»

«بل صدقنا» أجاباه معاً، لكنه لم يقتنع.

«لا.. لم تصدقا!» قال لهما كأنه يحاسبهما على عمل لم يتقناه: «لم تصدقا ما رويته لكما، لكنكما تريدان مني تصديق أنكما نصفا رجل مشطور وليس طنطلين قبيحين. أي مهزلة هذه؟! أن يكذّب الخيالي الواقعي!»

«لكننا لسنا خيالين» قالا في آن معاً: «وتأكد من ذلك بنفسك إن شئت»

«ثم من قال إننا لا نصدقك؟» سأله ميزو وتلاه بوتاميا مؤكداً: «نعم حقاً، من قال أننا لم نصدقك؟»

«من قال لي؟» نظر السائق الهندوعراقي إليهما بطرفي عينيه: «انتما قلتما، هل نسيتما أنكما نصفان؟ وداخلكما مكشوف؟ وظاهركما يخالف بطانكما الذي يرشح بالنفي، على عكس ما تبديانه من القبول. أنتما مفضوحان أيها السيدان النصفان»

في تلك الأثناء، أحس النصفان أن فرصة تهريبهما تنزلق منهما، كما تنزلق سمكة من بين الأصابع. فراحا يحاولان اقناع سائق الشاحنة بأنهما صدقاه، واستمتعا بقصته، وما زالا على تلك الحال حتى أشرقت الشمس، وحان موعد انطلاق الشاحنة، التي اقتنع سائقها في النهاية بأنهما صدقاه. وبدا حينذاك كما لو أنهما أجبراه على ذلك لكثرة الحاحهما عليه وتوسلهما به حتى وافق أخيراً. فحشر كل واحد منهما في خانة خزانة كبيرة وأقفلها عليه، وسط قطع الأثاث الكثيرة.

وفور دخولهما، علم النصفان بأنهما لن يكونا الوحيدين المُهرّبين في تلك الخزانة، إنما سيكون برفقتهما شخصان آخران صامتان مثل تمثالين في العتمة، لكنهما ما أن دخلا عليهما حتى بدءا يهذيان أو يرددان كلمات أغانٍ هندية بنكهة التوابل. كأنهما بذلك يلهيان نفسيهما عن الخوف بالأغاني، كما يفعل طفلان مرعوبان من تسلل المسوخ والأشباح إلى فراشيهما. وكان الشخص في الخانة التي حُشر فيها بوتاميا يردد:

«لا فرق بين أبيض البشرة والأسود

يبقى العالم لأنقياء القلوب

البشر كلهم سواء

رجال أمثالنا نعيش ونموت من أجل ابتسامة»

فقال له بوتاميا سائلاً: «فيلم ديسكو دانسر، بطولة ميثون، أليس كذلك؟»

لكن ذلك الشخص المرعوب، المنتصب في العتمة لم يتكلم أبداً. كان ما يزال يتمتم بكلمات تلك الأغنية فحسب. في حين كان ميزو يضغط بيده على فم الشخص ألاخر في الخانة الثانية من الخزانة لكي لا يصرخ ويفضحهم أثناء مرور الشاحنة بالمنفذ الحدودي.

وإلى أن اجتازت الشاحنة الحدود، بالسهولة والانسيابية نفسهما اللتين اجتازت بهما الشاحنات الثلاث السابقة الحدود الأخرى، إما بتوصية من مسؤول رفيع المستوى، أو برشوة أحد ضباط الجمارك وشرطة الحدود، أو تحت ضغط وتهديد المافيات المسلحة، كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة صباحاً. فخرج النصفان من الخزانتين، وكانا نصف أعميين، ومصابين بالدوار. أنزلهما السائق الهندوعراقي في منطقة سفوان الحدودية، ولم يشأ أن يغامر أكثر من هذا الحد.

«من كان هؤلاء؟» سأل ميزو: «إرهابيون؟!»

«كلا» أجابه بوتاميا: «عمالة أجنبية!»

«هل نخبر عنهم؟» سأله ميزو مجدداً.

«تخبر من يا مخيخ التيسي فيسي؟» رد بوتاميا بلهجة عصبية: «سيعتقلوننا بدلاً من أولئك الهنود المُهرَّبين!»

لم يكن السوق الصغير لهذه الناحية بعيداً عن المكان الذي نزلا فيه من الشاحنة. وكان أول ما صادفاه، واعتبرا ذلك من قبيل سوء الطالع، هو ذلك المجنون الذي كان يحاكي في حركاته الطيور. كان يفرد ذراعيه ويركض مائلاً بجسده النحيل المحشور في أسمال قذرة عند كل استدارة يفترضها، محدثاً صوتاً أشبه بتغريد العصافير. وما أن وصلا إلى السوق

حتى شرعا بالبحث عن مكتبة، فأرشدهما بعض المارة إلى المكتبة الوحيدة الموجودة هناك، وكانت خيبة أملهما واضحة حين وصلا إليها واكتشفا أنها لا تبيع سوى الكتب الدينية، حتى أن صاحبها لا يعرف من هو ايتالو كالفينو.

وطوال فترة بحثهما عن المكتبة، وكما لو أنه يتبع خيطاً من القمح يتناثر منهما، كان المجنون الطائر الذي صادفاه أول مرة يحوم في إثرهما كطير شائه. ظنا أنه عميل متنكر كُلّف بتتبعهما والتجسس عليهما، بما أنهما دخلا إلى العراق بصورة غير شرعية، مثل أي قطعتي أثاث مستعملة، أو هنديين مهرَّبين. الأمر الذي أزعجهما أشد الإزعاج، فحاولا التخلص منه، لكن من دون جدوى، إلى أن استسلما، وتركاه يتبعهما.

قصدا حديقة صغيرة من تلك الحدائق التي تقوم بإنشائها بلديات النواحي والأقضية النائية على أطرافها، من دون أن يكون لها أي فائدة، ويتم زراعتها بأشجار الكابرس المستوردة من إيران، والتي تنحصر مهمتها في مضاعفة النفايات، نظراً لقدرتها الهائلة على النمو السريع، مما يضطر عمال النظافة إلى تقليمها بين فترة وأخرى. أحد أولئك العمال كان يؤدي عمله في تقليم وقص أشجار النفايات تلك في الحديقة التي قصدها النصفان للراحة قبل الانطلاق إلى المدينة. كان رجلاً عجوزاً من أولئك الذي آثروا الموت وقوفاً بينما هم يعملون. فسألاه عما إذا كان المجنون الطائر الذي تبعهما إلى الحديقة، وجلس إزاءهما على أحد المصطبات الخشبية، خطيراً إلى درجة أنه قد يؤذيهما.

«من مبارك؟»

اسمه مبارك إذن. يرتدي دشداشة وسخة ويلف حول رأسه كوفية،

في حين كانت جيوبه ممتلئة بالريش، وقد أخرج حفنة منها ونشرها في الهواء، مفتعلاً مشهد إصابة طير بطلق ناري.

«مسكين مبارك، لا يقدر على إيذاء نملة» قال البستاني العجوز الذي يرتدي بزة عمل زرقاء بالية. وكانت لحيته بيضاء ناصعة ومعتنى بها رغم مشقة عمله الذي لا يجلب سوى البؤس والغبار: «يريد أن يطير، ألا تريانه؟»

أقبل البستاني العجوز نحوهما، وجلس إلى جانبهما ليرتاح قليلاً، وقال بينما هو يتأمل بعينيه نصف المغمضتين مبارك الذي كان ممداً على الأرض، مفترضاً أنه عصفور مصاب بطلق ناري:

«على الرغم مما تريانه عليه الآن من مظاهر الجنون، إلا أن مبارك، الذي كان يحرس ثلاثة آلاف دجاجة في معمل للدواجن، يقع في جنوب البصرة، لم يحلم بالطيران يوماً. لكنه طار مرة واحدة، أثناء الانسحاب الدامي من الكويت، نهاية حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١. طار لثوانٍ، لحظة قصف عجلة الإيفا التي كانت تقل، بالإضافة إليه، أكثر من أربعين جندياً هارباً من نيران الطائرات الأمريكية.

أُزهقت أرواح جميع الجنود، إلا هو، فقد كُسر كتفه ورقبته، جراء ارتطامه بأرض سفوان الرملية. لكنه لم يشعر بطيرانه، إنما قيل له.

في حرب الخليج الثالثة، عام ٢٠٠٣. وفي واحدة من ضرباتها العشوائية، قصفت إحدى الطائرات الأمريكية معمل الدواجن الصغير، وفرمت جميع الدجاج فيه.

مبارك كان هناك، لكنه لم يطر هذه المرة. إلا أن هناك شهود عيان، رأوه يخرج من تحت الأنقاض، وكان مغلفاً بريش الدجاج الذي التصق بجسده المدمى، من أخمص قدميه إلى رأسه. كان يترنح يميناً ويساراً،

فارداً ذراعيه كجناحين. ومنذ ذلك اليوم وهو يفرد ذراعيه بالطريقة نفسها، ويتوهم أنه يطير»

لم يشح البستاني العجوز نظره عن المجنون بينما هو يروي تلك القصة من قصص حروبنا الكثيرة التي لا تنتهي. قصة المجنون الطائر الذي يبدو أن النوم غافله في تلك الأثناء، إذ ما يزال متخشباً هناك، متمدداً كجثة. حتى أنه لم يكن يتنفس، أو هذا ما ظنه النصفان، في الوقت الذي أكد البستاني العجوز أنه يجيد التظاهر بهذا الأمر كحرباء. وكأنه يريد الاستعاضة بذلك عن الموت الحقيقي الذي أفلت منه لمرتين.

«تُرى، كيف رأى الأرض من ذلك العلو حينما طار للمرة الأولى؟» تساءل ميزو وتخيل المشهد، وذُعر فوراً. وكان البستاني العجوز في ذلك الحين قد نهض من مكانه، فظن النصفان أنه عاد ليستأنف عمله في تقليم أشجار النفايات، إلا أن مدة طويلة لم تمضِ حتى أقبل نحوهما مجدداً، حاملاً معه عصاتين وناولهما إياها.

«هكذا تكون أكثر نفعاً» قال العجوز ويعني بذلك أشجار النفايات التي صنع منها العصاتين. وقبل أن يغادرا الحديقة، اقترب النصفان من المجنون الطائر، وبديا في حينها كأنهما يقتربان من جثة حقيقية. كانا متوجسين كشخصين في فلم رعب. مدّ بوتاميا عصاه ليحرك الجثة، وكأنه يريد التأكد عما إذا كان صاحبها ميتاً أو أنه يتظاهر حقاً. عندئذ، فتح مبارك عينيه فجأة وأفزعهما.

شتماه وخرجا من الحديقة. يتبعهما صوته الذي صار الآن أشبه بصوت طائرة نفّاثة.

(٧)

غادر النصفان منطقة سفوان الحدودية المليئة بالغبار والنفايات الأنيقة وأطفال اللوكيما، المرض الذي انتشر بسبب الأسلحة المحرمة التي استخدمتها الولايات المتحدة وبريطانيا في الحربين الأخيرتين. اتجها إلى مدينة الزبير. ركبا سيارة حمل يقودها مالك مزرعة طماطم متجهم، وأنزلهما على مقربة من مركز المدينة، حيث بدءا من هناك رحلة أخرى في البحث عن رواية الفيسكونت المشطور. إلا أنهما لم يجداها في أي مكتبة من المكتبات المتوفرة.

لم يمكثا طويلاً في مدينة الزبير، فقد توجها بعدها إلى مدينة البصرة. ركبا هذه المرة سيارة حوضية كبيرة تنقل الماء العذب إلى الأهالي، يقودها رجل في الستين من عمره، لكنه يملك روحاً شابة، فقد كان مرحاً، ودوداً، ومغرماً بأغاني ياس خضر التي يهز رقبته على أنغامها، ويفرقع بأصابعه، ويقول: هكذا ترقص الكاولية* وربما يكون هو الوحيد من لا يزال يدخن سجائر ماركة سومر العريقة. أنزلهما في البصرة القديمة، معتذراً منهما بأدب وبشاشة. وهناك، أرشدهما المارة إلى جميع المكتبات الموجودة، لكنهما عجزا عن الحصول على الرواية في تلك البقعة أيضاً، فأكملا طريقهما نحو بلدة العشّار في مركز المدينة راجلين، وبما أن سيرهما بطيء فقد خيم عليهما الليل في الطريق.

وقضيا ليلتهما على كورنيش المدينة، تحت تمثال الشاعر بدر شاكر السياب. تمددا على مصطبتين حجريتين تشرفان على الشط، وتمنيا ألا يفاجئهما ضفدع بشري آخر، لكنهما اطمأنا إلى أن هذا الجانب من المدينة يبدو أكثر واقعية، وبعيداً نوعاً ما عن الغرائبيات، رغم أن سندباد أنطلق من هذا المرفأ في رحلته العالمية.

كانا يغفيان، ثم يستفيقان على وقع أقدام ثقيلة، ولهاث يأتي من المراكب الصغيرة الراسية على مقربة منهما، لغط لسكارى يبدو أنهم أضاعوا الوجهة إلى منازلهم، شخير متسولين، وإطلاق أعيرة نارية، وأحد ما يردد: ما مر عام والعراق ليس فيه جوع! لكنه ليس بدر شاكر السياب على أية حال.

استيقظ النصفان من نومهما المرهق في صباح اليوم التالي، وبدءا حملة بحث جديدة، وراحا يتنقلان بين مكتبات البصرة الكثيرة. واستغرق بحثهما ساعات حتى حلول الظهيرة، من دون أن يحققا غايتهما، ألا وهي الحصول على نسخة من رواية الفسكونت المشطور التي اختفت فجأة، وبشكل غامض، حتى لم يعد لها وجود في أي مكان. في تلك الظهيرة المعتدلة، انتهى النصفان إلى مقهى الثقافة والسياسة وسط العشار بعد أن أرشدهما إليه صاحب آخر مكتبة، لعلهما يعثران على الرواية أو يستعيرانها من أحدهم هناك. إلا أن أحداً، من أولئك المثقفين والسياسيين والنقاد العاطلين وأنصاف الشعراء وأثلاث الكتاب وأرباع الفلاسفة والقراء الذي لا يقرأون، لم يعر لهما اهتماماً، فقد كانوا منشغلين باجترار الاقتباسات والمفاهيم والمصطلحات من تلك التي تختلط مع بعضها البعض وهم يغرغرون بها، لتنتج في النهاية أسماء لمخلوقات خرافية بينما هم يحاولون نطقها بشكل صحيح. متدينون، علمانيون، ماركسيون، ستالينيون، عدميون، غنوصيون،

صفصطائيون، مؤمنون، ملحدون، فوضويون، نهلستيون، سياسيون علمانيون وسياسيون إسلاميون. يتجادلون بشأن الديمقراطية والحرية والدولة المدنية والإسلام السياسي والديماغوجيا الدينية. إلا أن ثمة جدال بين سياسي إسلامي وسياسي علماني تطور حتى بلغ حداً دفع الاثنين إلى إطلاق قريحتهما للسباب والشتائم. فالسياسي الإسلامي يشبه السياسي العلماني بالنعّامة التي تدفن رأسها في التراب ومؤخرتها مشرعة للريح. في حين يشبّه السياسي العلماني السياسي الإسلامي بالديك الذي يغرز قدميه في الخراء ويوقظ المؤمنين للصلاة.

وما أن انتهى هذا الجدل السياسي الخرائي، حتى لفت انتباه الجميع تقرير تعرضه إحدى الفضائيات من دون مناسبة عن الاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق في عام ٢٠٠٣، قبل أن تظهر الأعراض الأولى لجدل جديد من نوع آخر، جدل كافكوي بدأ بالنشوب فعلاً بين اثنين من المثقفين الستينيين بشأن نوع الحشرة التي آل إليها غريغوري سامسا، بطل كافكا في رواية المسخ. فالمثقف الأول يقول إنها خنفساء، والمثقف الثاني يؤكد على أنها كانت صرصوراً. تطور الخلاف إلى شجار، تبادل فيه المثقفان النعوت الفجة. فهذا يقول لصاحبه يا خنفساء، وذاك يرد عليه يا صرصور. اشتبكا بالأيدي، من دون أن يتدخل أحد لفض النزاع بينهما، رغم أن المقهى مليء بالمثقفين والكُتاب والشعراء، ومن المفترض أن الجميع قرأ فرانز كافكا، لكن أحداً منهم لا يعرف حقاً ما نوع تلك الحشرة.

فجأة، سكن المثقفان الألمعيان، وراحا يحاولان عبثاً ترميم ما أفسده الشجار من أناقتهما الستينية. قال المثقف الأول وهو يشهق هواء المقهى الفاسد بصعوبة. يبصق في باطن كفّه، ليلصق خصلاته النافرة على صلعته أفقياً:

«لنقل أن الحشرة كانت صرصوراً كما تتوهم أنت. لكن، برأيك هل هي ذكر أم أنثى؟»

«أنا أقول إنها أنثى» هتف المثقف الثاني.

«وما أدراك أنت إنها أنثى؟» نهره المثقف الأول.

ودخلا في نزاع جديد، استخدما فيه الخمش والعضّ هذه المرة. قبل أن يهدءا قليلاً، ويتنفسان بصعوبة ويبصقان، ثم يعودان إلى جدالهما العقيم، الذي استأنفه المثقف الثاني بقوله:

«هِبْ أن الحشرة كانت صرصوراً كما أقول أنا، وذكراً كما تدّعي أنت. ماذا تظن: هل هي من الصراصير الألمانية، أم الاسترالية، أم الشرقية؟»

«لا هذا ولا ذاك!»

انبرى المثقف الأول من مكانه على التخت الخشبي، بينما هو ينبش أنفه بسبابته وينظر إلى التلفاز المثبّت وسط الجدار على يسارهما، والذي تظهر فيه، ضمن ذلك التقرير عن الاحتلال، مجنزرات أمريكية عملاقة ومخيفة وهي تمشط شوارع بغداد.

حينذاك، انتبه نصفي الأيمن المدعو بوتاميا، ومال برأسه نحو نصفي الأيسر المدعو ميزو قائلاً بصوت هامس:

«أنا أقول إنها أمريكية!»

«بل هي بريطانية!» اعترض ميزو.

«وما الفرق؟» قال بوتاميا، وردّد المثل العراقي البذيء: «الخراء أخو البول!»

كانا يجلسان على أحد التخوت الخشبية التي أبلى هؤلاء المثقفون

عليها سراويلهم طوال السنوات الماضية، وهم يرددون الحكمة الرامبوية التي قادت الكثير من الشبان إلى الأميّة: «من الحماقة أن تُبلى سراويلنا على مقاعد الدراسة» لهذا، هم يبلون تلك السراويل على تخوت الثقافة والسياسة في مقهى أشبه بالمكوى. كان النصفان ما يزالان يجلسان على ذلك التخت، ويستمعان إلى الجدالات الحامية، عندما اقترب منهما شخص لم يتجاوز عقده الثالث، من أولئك الشباب الذين يرتدون تيشيرتات الراب المليئة بالشتائم المقذعة، ويقلدون تقليعة شعر بوب مارلي لكنهم لا يحفظون من أغانيه سوى «نو وومان.. نو كراي!» يواسون بها فتاة على وشك أن تلقي نفسها من فوق أحد الجسور إلى النهر. لكنه، على الرغم من كل تلك المظاهر الشوارعية، قدم نفسه كشاعر من الجيل الجديد، فرحبا به وهما مرتابان، ولكي يقدم دليلاً على صفاء نيته تجاههما سألهما:

«هل قلتما أنكما تبحثان عن كتاب؟»

«نعم» أجابه بوتاميا وثمة بارقة أمل صارت تلتمع في عينه.

«ما عنوانه؟» سألهما مرة أخرى.

«الفيسكونت المشطور» قال ميزو بسرور: «لإيتالو كالفينو»

«أنا سأجلبها لكما» قال الشاعر الشاب ونهض من مكانه: «انتظراني هنا، ولا تتحركان من مكانكما، أريدكما أن تلتصقا بهذا التخت، سأعود فوراً»

وغادر المقهى مسرعاً. في حين لبثا هما في مكانهما على التخت ولم يتركاه أبداً. استمعا إلى جميع الجدالات السياسية والثقافية والمعارك الأدبية، وحفظا الكثير من الشتائم المنمّقة والنكت القصصية، وكانا طوال الوقت مدخنان سلبيان، بعد أن استنشقا كميات كبيرة من دخان

السجائر التي يشفطها أولئك المثقفون والسياسيون من سجائر رديئة، بينما هم يتلفظون بالمصطلحات الثقافية والسياسية والعلمية بطريقة تحتاج إلى كمية من البصاق المتطاير لكي تخرج من أفواههم سليمة ومعافاة.

(٨)

«الليل يطبق مرة أخرى، فتشربه المدينة
والعابرون، إلى القرارة.. مثل أغنية حزينة»

ردد أحد المثقفين كلمات بدر شاكر السياب، بينما هو يشير بإصبعه السبابة نحو باب المقهى المشرع في تلك الساعة من الليل، حيث مرّ سرب من المتسولين، نساء وأطفال وعجائز، من أولئك النازحين الذين ملأوا فنادق الدرجة العاشرة القذرة، بعد أن اضطرتهم الظروف إلى ذلك، عقب اجتياح تنظيم الدولة الإسلامية لقراهم في الموصل، وتهجيرهم إلى أقصى الجنوب. كانوا عائدين من رحلة التسوّل اليومية، إلى تلك الفنادق الرخيصة التي سكنوها بعد أن عجزت الحكومة المحلية من توفير المأوى الملائم لهم. وشيئاً فشيئاً، بدأ رواد مقهى الثقافة والسياسة بالانصراف حتى خلا المكان من أي أحد سوى النصفين اللذين ما زالا ملتصقين بالتخت، وقد يئسا من عودة الشاعر صاحب تقليعة بوب مارلي. ومن يعلم، ربما جلب الكتاب فعلاً، لكنه صادف فتاة على جانب الطريق تبكي وتفكر بالانتحار، فجلس إلى جانبها وراح يواسيها ويغني لها كلمات من أغنية نو وومان نو كراي:

«في هذا المستقبل العظيم لا يمكن نسيان ماضيك
ولذلك جففي دموعكِ»

قال بوتاميا بيأس: «يبدو أنه لن يأتي أبداً!»

وأتبعه ميزو متهكماً:

«هأ هأ.. وهل ما زلت تأمل على أية حال؟»

أجابه بوتاميا، بينما هو يمسح نخامته بكم قميصه، وقد التمعت في رأسه فكرة:

«لماذا لا نذهب إليه نحن؟»

استحسن زميله الفكرة. وهم الاثنان بمغادرة المقهى، وقد واصلا استرسالهما في الحوار من حيث انتهى. كانا يفاكهان بعضهما، بينما هم يسيران معاً في عبر أزقة العشار الملتوية، الضيقة، وقد أسند أحدهما الآخر بالتعاضد الأخوي الحميمي نفسه:

«لكن أين تظننا نجده؟»

«ربما في بندقية صيد أو جيوباً مثقلة بالحجارة»

«آه يا عزيزي كم هذا فظيع وتقليدي!»

«وأين نجده برأيك؟»

«لا أعلم، ربما في أمبولة أقراص منومة أو شفرة حلاقة أو...»

«وما الفرق؟»

«لا فرق.. تعددت الأسباب وغودو واحد!»

الفصل الخامس

الحدود العراقية السعودية

(١)

«أين نحن يا تُرى؟» قال أحدهما من داخل كيس الخيش الذي حُشرا فيه مجدداً.

«لا أعلم» أجابه الآخر: «لا أعتقد أنهم أعادونا إلى الحدود نفسها»

قبل إلقائهما على الحدود العراقية السعودية، كان النصفان قد قضيا ثلاثة أيام في السجن، بعد أن تم إلقاء القبض عليهما في إحدى نقاط التفتيش على الطريق، في مدينة السماوة. وكانا في حينها يستقلان حافلة متجهة إلى العاصمة بغداد، حينما صعد أحد أفراد الشرطة وطلب من الركاب إبراز «هوياتهم» ولا يحدث ذلك دائماً بعد الإطاحة بالنظام السابق، إلا في حال وجود معلومات استخباراتية تحذر من احتمال التفجير بالسيارات المفخخة. ففعل الجميع ذلك بما فيهم النصفان، فميزو تحسس مؤخرته، في حين تحسس بوتاميا قلبه. إلا أنهما لم يعثرا على تلك «الهوية الضائعة» لا في الجيب الخلفي للبنطلون، ولا في جيب القميص الأمامي من جهة اليسار. فاضطر الجندي إلى إنزالهما، وإيداعهما في الحبس لفترة محدودة، قبل أن يتم تسفيرهما إلى مركز المدينة للتحقيق معهما.

اتهموهما بالعمالة لصالح الدول الإقليمية، ثم بالإرهاب، ثم قالوا أنهما مهربا أغنام، ثم قوّادان، ثم لواطيان يلتصقان ببعضهما طوال

الوقت. وفي النهاية، تم اعتبروهما مخلوقين غريبين، ومسخين غبيين قبيحين هُرِّبا، أو ربما أُلقيا من طائرة أمريكية، لترويع المواطنين. ولهذا، وضعوهما في كيس كبير، وألقوا بهما على تلك الحدود الصحراوية المقفرة طعماً للأفاعي والذئاب، بعد أن رفسوهما قائلين لهما: عودا من حيث أتيتما.

وبينما هما يتبادلان الحديث في عتمة الكيس، ويتحركان فيه كهرّين، وإذ بيدين تمتدان وتفكان عقدته من الأعلى. كانت الشمس في صباح ذلك اليوم من أوائل تشرين الأول ساطعة، إلى الحد الذي احتاج الاثنان إلى دقائق قبل أن يعود إليهما بصرهما، فراحا يلتفتان حولهما فلا يشاهدان شيئاً سوى الصحراء المترامية والكثبان الرملية الزاحفة، ورجل أربعيني أمامهما يحدق بهما كما يفعل مع قطين توأم ولدا للتوّ. كان بوجه ملتح، كالح، وثياب متربة، يحمل حقيبة ظهر كبيرة، ويرتدي حذاءين اسفنجيين دائريين مكسوين بصوف الوبر يستخدمهما لتمويه حرس الحدود السعوديين، ولكي لا يترك وراءه آثاراً تدل عليه، أو يتم اكتشافها بواسطة الكاميرات الحرارية المنتشرة، حينما يعبر الطرق الرملية الناعمة والسواتر التي قامت بإنشائها مراكز الحدود لرصد وتتبع المتسللين من وإلى المملكة.

إذن، كان ذلك الرجل من المهربين الذين ينشطون على طول الشريط الحدودي بين البلدين، ويحملون معهم كميات من الحشيشة والحبوب المخدرة والخمر وقطع الذخيرة المختلفة. وكان في طريقه إلى اجتياز الحدود إلى داخل السعودية في تلك الأثناء، حينما عثر على كيس الخيش وأخرج النصفين منه، وسألهما:

«ما الذي جاء بكما إلى هنا؟»

«قصة طويلة» أجاب بوتاميا وهو يفرك عينيه. ثم سأل المهرّب، الذي يرتدي قبعة على طريقة رعاة البقر، عن الوجهة إلى العراق. فقال لهما أنهما ما زالا داخل الحدود العراقية، لكنهما ليسا بعيدين أيضاً عن الحدود السعودية، شمرة عصا كما قال واصفاً المسافة المتبقية لبلوغ تلك الحدود. فإذا ما أرادا العودة إلى العراق بمفردهما، فسيتيهان حتماً، وربما يعودان إلى المكان نفسه. وإذا رغبا بانتظار ذلك المهرّب حتى يعود من مهمته، فسيكون ذلك عبثاً، لأن المهربين لا يعودون أدراجهم من الطرق نفسها التي كانوا قد سلكوها في طريق الذهاب، ليتحاشوا بذلك أفخاخ شرطة الحدود. إذن، لم يبق سوى حل واحد وهو أن يرافق النصفان المهرّب إلى داخل الأراضي السعودية ومن ثم العودة معه، إذ ليس هناك دليل، في هذه الصحراء القاحلة، سواه. وهو أمر لم يتأكدا حتى تلك اللحظة منه، وما إذا كان ذلك المهرّب سيوافق على اصطحابهما معه، إذ يبدو الأمر صعباً للغاية برفقة نصفي رجل مشطور، أو هكذا كان الأمر قبل أن يرويان له مأساتهما التي تُبكي الصخر كما وصفاها قائلين أنها توازي جميع المآسي التي كتبها شكسبير. هكذا أشفق عليهما المهرّب وقرر المخاطرة بمرافقتهما.

وكان المهرّب سيصل في غضون يوم واحد إلى ما وراء الحدود، في حال كان وحده. لكنه، مع هذين النصفين استغرق نحو ثلاثة أيام. شمرة العصا التي قالها كناية عن المسافة المتبقية لاجتياز الحدود أصبحت في ذلك الحين ألف عصا. حتى أنه ندم لأنه وافق على أن يرافقانه، واعتبر ذلك تهوراً منه وبلاهة. وكاد أن يتركهما ويكمل طريقه لوحده أكثر من مرة، حين أوشكا أن يتسببا في لفت انتباه حرس الحدود.

«أنا مضطر لتركركما هنا» قال لهما بمجرد أن اجتازوا الحدود: «لن

أضمن حياتي معكما، أنتما غبيان بما يكفي للإطاحة بنملة إذا ما قررت يوماً عبور هذه الحدود برفقتكما. ولا تحدثاني عن شكسبير رجاءً، لأني لا أعرفه، وحتى لو عرفته فلن اشتريه بكرتة تساعدني على ارتداء حذائي الضيق. والآن هيا، اذهبا من هنا لطفاً ولا تتبعاني. لا أعرف ما الذي ورطني معكما، أنا مهرّب كلب ابن ستة عشر كلبا، مالي أنا والأنصاف التائهة؟!»

وتركهما في مفترق طرقٍ مثلما لا يعرفان أيهما يسلكان، كذلك أصبحا لا يعرفان وسط هذه المعمعة والحيرة والتيه رأسهما من قدميهما.

كان الوقت بعد الغروب. وكانت الريح هائجة كثور رُبط من خصيتيه، وكان صوتها كما لو أن ذئاب العالم كلها اجتمعت واتفقت على العواء في تلك الساعة. وكان النصفان قد اختارا عشوائياً أحد الطرق وسارا فيه مسافة ليست طويلة، قبل أن يدخلا منعرجات صخرية لكنها سالكة أفضت بهما إلى طريق معبدة تصل إلى بناء قديم مهجور يبدو أنه أقيم منذ مائتي سنة كمحطة استراحة للحجاج المتوجهين إلى مكة، فباتا ليلتهما فيه، وأكملا رحلتهما في صباح اليوم التالي عبر طريق مهجورة إلى أن وصلا عند المساء إلى قرية كأن بيوتها أطلال من القرن الأول الهجري، إلا أن أحداً لا يسكنها. فقضيا الليلة الثانية هناك، توسدا بلاطات قديمة على أرض معشبة وناما نوماً عميقاً كأنهما أمِلا ألا يستيقظان منه أبداً. لكنهما استيقظا في صباح اليوم التالي، حوال الساعة الثامنة. أعان أحدهما الآخر على الوقوف، وكانا ما يزالان ملتصقين ببعضهما، ينفضان عن عينيهما بقايا النعاس عندما فاجأهما شخص يلف حول رقبته يشماغاً ويرتدي دشداشة كان قد رفعها وشد طرفيها حول خصريه أسفل البطن، ووقف أمامهما شاهراً بندقية صيد نحوهما من دون أن ينبس ببنت شفة، لدقيقة على الأقل، قبل أن يتمتم بكلمة لم

يسمعها النصفان المذعوران اللذان رفعا يديهما إلى الأعلى إشارة إلى الاستسلام، ثم أطلق النار باتجاههما بالتزامن مع انفصالهما عن بعضهما بمقدار شبر كان كافياً لتمر الإطلاقة من خلاله وتذهب مسرعة مدوية لتصيب ضباً كان يجثم في حينها فوق صخرة ملساء ناتئة من الأرض وتطيح برأسه.

كان ضبّاً بُنياً سميناً ومثقلاً بالدهون والكولسترول والسعرات الحرارية الكبيرة، رفعه الرجل من ذيله الشوكي مباهياً، قائلاً للنصفين وكأنه يعرفهما منذ طفولتهما:

«هل رأيتما كيف اصدته؟»

هز النصفان رأسهما كالعادة، وأثنيا على دقة تصويبه.

«لكن ماذا ستفعل به؟» سأله بوتاميا مشمئزاً من منظر الضب مقطوع الرأس.

«سأطبخه للعشاء» رد الرجل واقترب منهما: «لا يوجد منه الكثير الآن، إنه على وشك الدخول في بياته الشتوي، رغم أن الجو ما زال حاراً في هذه الأنحاء»

«هل قلت أنه ضب؟» سأله ميزو بصوت بدا كأنه سبق حالة تقيؤ وشيكة: «وتأكلونه؟»

«نعم نأكله» رد الرجل حامل الضب: «وما المشكلة في ذلك؟»

«ليس ثمة مشكلة» انبرى بوتاميا مجاملاً: «لا بد أن لحمه لذيذ»

«مؤكد» قال الرجل: «إنه طعامنا المفضل في القرية، وبما أني اصطدته بحضوركما أيها النصفان المهذبان، فأنا أدعوكما إلى ضيافتي»

(٢)

لم يرفض النصفان دعوة الرجل صائد الضبان، على الأقل هذا أفضل من تيههما على هذه الأرض الغريبة. ومن يعلم، ربما ساعدهما بالعودة إلى الديار. فوصل الثلاثة إلى القرية قبل الزوال، وقاد الرجل ضيفيه إلى غرفة كبيرة خارجية مخصصة للضيوف، وأكرمهما، ودعا جيرانه إلى التعرف بهما، وما أن حل المساء حتى غصّ المضيف بخمسين شخصاً من صائدي الضبان الذين بدأوا بتصديع رأسي النصفين بأسئلة من تلك التي لا تُطرح إلا على كائنات إما فضائية أو آتية من تحت الأرض. السؤال الوحيد الذي لم يطرحونه هو: من أين أنتما، وذلك لعادة قديمة عند عرب البادية، هي أن لا يُسأل الضيف من أين هو وما هي حاجته لثلاثة أيام.

وبينما كان النصفان على هذا الحال، بين هرج ومرج صيادي الضبان الصحراويين، وأسئلتهم الماورائية، وإذا بالباب يُطرق، ويهرع صبي إلى فتحه، فيدخل في تلك الأثناء رجل يبدو من هيئته كأنه أحد أولئك المشايخ الذين يلقون على المصلين خطب الجمعة في الحرم المكي، يدعون فيها على اليهود والنصارى والرافضة بالهلاك. ذو شارب ولحية تقليدية يمتاز بها أهل تلك البقاع، تغطي الحنك فحسب، وتصل إلى عظمة القص غالباً. يرتدي زياً عربياً ويضع على رأسه يشماغاً أحمر من

دون عقال. وكان برفقته ثلاثة شبان ملثمين أكبرهم في الثامنة عشرة وأصغرهم لم يتجاوز الخامسة عشرة. وكان ذلك الداعية محل احترام صائدي الضبان وتوقيرهم منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدميه أرض المضيف بصحبة الشبان الثلاثة الملثمين. فأكرموه وأحسنوا إليه وقدموا له ضباً مشوياً على رز بالجوز واللوز والزبيب، فأكل حتى شبع، في حين لم يأكل الشبان الثلاثة شيئاً، وعلّق الداعية على ذلك قائلاً وهو ينبش أسنانه بعود ثقاب وينظر إلى النصفين بعين الريبة والشك:

«سيكون عشاؤهم مع النبي أطيب وألذّ»

ثم لم يمضِ الكثير من الوقت حتى بدأ الداعية بإلقاء موعظة قصيرة عن الجهاد في سبيل الله، ومحاربة الكفار والمشركين، وإعلاء راية الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. وما أن أنهى تلك الموعظة المقتضبة حتى أفصح عن الهدف من زيارته، والمهمة التي قطع من أجلها مئات الكيلومترات، وجاب جميع القرى المجاورة حتى وصل إلى هذه القرية التي ستكون آخر محطة يمر بها قبل إتمام مهمته التي تتلخص في جمع المتطوعين للجهاد وإرسالهم إلى العراق لقتال الرافضة الفرس المجوس كما وصفهم.

«هناك في العراق، في الجنوب تحديداً يتكلم الناس الفارسية ويتداولون في تعاملاتهم التجارية بالتومان الإيراني. والأنكى من ذلك أنهم ما زالوا ينتهكون أعراض النساء المسلمات» قال الداعية الإسلامي ثم عقب بعلو صوته، بعد أن ضرب بيده على السجادة الكاشان الإيرانية، فتطاير الغبار وأخذ يكح بينما هو يصيح: «فهل ترضى شيمتكم بذلك أيها الأعراب؟!»

«لا.. لن نرضى يا شيخ!» رد صيّادو الضبان دفعة واحدة وبحماس.

ثم راح ذلك الداعية يحدثهم عن الحور العين والولدان المخلدين ودنان الخمر وأنهار اللبن التي ستندلق على المجاهدين في الجنة. حينئذ، سأله أحدهم:

«هل توجد ضبان في الجنة يا شيخ؟»

«في الجنة هناك ما هو خير من الضبان أيها الشاب، لكن عليك أن تجاهد في سبيل الله حتى ترى كل شيء»

«هل توجد أرانب برية؟» سأله آخر.

ثم انهالت الأسئلة على نحو جعله ينقل بصره بين هذا وذاك:

«وحباري؟»

«وبعران؟»

«وكمأة؟» أيضاً سأله رجل طاعن في السن من وراء لثامه: «هل هناك كمأة؟»

(٣)

بعد أن خف اللغط وكف صيادو الضبان عن توجيه أسئلتهم المزعجة، وساد الصمت لدقيقة، طلب الداعية من الجميع أن يقتربوا منه أكثر لأن لديه سراً يريد إخبارهم به، ففعل الجميع ذلك وتحلقوا حوله. حينذاك، تمتم الداعية بصوت خافت كما لو أن هناك من لا يريده أن يسمعه، كالنصفين الذين ما زالا موضع تركيز عينيه المرتابتين، رغم أنهما كانا صامتين ولم يتفوها بكلمة واحدة.

«صدقاً؟!» صاح أحد صيادي الضبان، فأسكته الداعية الذي استأنف بسبسته الغامضة، بينما هو يغرز أصابعه في لحيته.

«يا الله!» صاح أحدهم وتبعه آخر: «نعوذ بالله من غضب الله!»

وهكذا، عاد اللغط بين صيادي الضبان من جديد، فأحس الداعية بسهمه يصيب الهدف، فاستغل الفرصة وراح يعلن دعوته بأعلى صوته:

«والآن يا شباب.. من منكم يود التطوع في صفوف المجاهدين وينضم إلى هؤلاء الفتية المؤمنين الذي سيتوجهون غداً إلى العراق؟ كل من يرغب بالجهاد يرفع يده، وسنؤمن نحن له الطريق إلى أن يصل إلى إخوانه هناك»

إلا أن أحداً لم يرفع يده، أو يتفوه بكلمة تنم عن رغبة بالذهاب إلى العراق. فاضطر الداعية إلى تكرار ما قاله، محاولاً شحذ الهمم الخامدة.

«وهل صيد هذه السحالي القبيحة أفضل من الجهاد في سبيل الله؟»

لكن.. لا فائدة.

لم يتحرك أحد منهم أو حتى يرف له جفن، ما عدا يدان ارتفعتا فجأة، وصوتان كما لو أنهما انبعثا من غرفة مغلقة في الجوار:

«نحن سنذهب!»

امتقع وجه الداعية، في وقت بدأت الأكف تهوى بالتشجيع على كتفي النصفين اللذين كررا أثناء ذلك رغبتهما بالذهاب إلى العراق. فقال لهما الداعية:

«ستذهبان إلى هناك لتفجرا نفسيكما، لا لحراثة الأرض!»

«نفهم ونعي ذلك جيداً أيها الشيخ الفضيل» قال ميزو وتلقى موجة جديدة من التهاني والطبطبة. فابتسم الداعية، وأنّب نفسه لأنه ارتاب منهما.

باركهما قائلاً:

«غداً صباحاً سترافقان هؤلاء الشبان الشجعان الثلاثة، وسيقودكم إلى هناك أحد الأدلاء من ذوي الخبرة، والآن فليخد الجميع إلى النوم والراحة»

في اليوم التالي فجراً، عقب الصلاة، استقل المقاتلون سيارة جي أم سي حديثة وغادروا القرية، بعد أن ودعهم الداعية الديني وصيادو الضبان الذين شيعوهم بالتهليل والتكبير. ولم يكن النصفان يعرفان مكان المنفذ السري الذي سيدخلون منه إلى العراق، لكنهما صارا يعلمان، بعد أن قطعت السيارة مسافة طويلة، أنه ليس هو نفسه المنفذ الذي هُرّبوا منه إلى السعودية، ولا يبدو ذلك مهماً بالنسبة لهما، إذ كانت العودة إلى العراق هي أغلى أمانيهما في ذلك الحين، حتى لو تحقق

ذلك بنقلهما في تابوتين وهما ميتان. كانت السيارة تسير بمحاذاة الحدود بمعدل مائة وستون كليو متراً في الساعة، ولم تتوقف إلا للتزود بالوقود، إلى أن اجتازت محافظة عرعر بمسافة مائة وخمسون كليو متراً، وتوقفت هناك بحلول المساء وقضى المقاتلون ليلتهما في مسجد صغير يقع في أطراف بلدة تم تسكينها بالبدو الرحل. وقبيل فجر اليوم التالي، أقلتهم سيارة جيب إلى النقطة التي سيكملون منها الرحلة راجلين، يقودهم أحد الأدلاء.

«أنتم أيضاً؟!» كادت عينا المهرّب أن تقفز من محجريها لولا أن ثمة من أمسكها في تلك اللحظة التي رأى فيها النصفين: «ماذا تفعلان هنا؟»

«أغلق فمك أيها المهرّب عديم الرحمة» قال يوتاميا همساً كي لا يسمعه المقاتلون الثلاثة الملثمون: «دعنا وشأننا، ألم يكفك أنك تركتنا لصيادي الضبان؟»

«ومن هو الذي عليه أن يدع الآخر وشأنه؟» سألهما المهرّب: «من الذي يلتصق بي مثل قرادتين على جلد كلب أيها المهرجان؟»

«وما شأنك أنت ما دمت قبضت أجرتك؟» قال ميزو وتبعه يوتاميا مؤكداً:

«ألا ترى أنك قبضت أجرة التهريب عن شخصين، بينما نحن نصفان لرجل واحد؟ ألا ترى ذلك يا قراد الكلاب؟»

وبعد جملة من الشتائم والسخريات تبادلها المهرّب مع النصفين، لم يكن أمامه من حل سوى اصطحابهما، لكنه حذرهما من مغبة افتعال المشاكل:

«اضبطا بلاهتكما حتى نصل، وإلا سلمتكما إلى أقرب مخفر حدوي وأنتما لا تعلمان»

وهكذا، بدأت رحلة العودة بالنسبة للنصفين، ورحلة اللا العودة لأولئك الشبان الذين ما زالوا يلتزمون الصمت، كما لو أنهم أُلقموا أحجاراً، وملثمين على الدوام، لا يظهر منهم سوى أعين قاحلة، مترقبة، وغير مبالية في أغلب الأحيان، ما عدا أصغرهم سناً، فهذا الفتى يبدو مهزوزاً، مثبط الهمة منذ أن تحركت القافلة الصغيرة باتجاه الحدود. وكان النصفان قد رافقاه لبعض الوقت وحاولا حثه على الكلام.

«تُرى أي نوع من الحبوب المخدرة ابتلعت أيها الصوص الصغير؟» قال له ميزو مناكداً، وتبعه بوتاميا بقوله:

«هل تعلم إلى أين أنت ذاهب يا صغيري؟ أنت ذاهب إلى الموت! وما الجنة التي وعدوك بها سوى مقبرة مأهولة بالكلاب والعقبان»

«صحيح» عاد ميزو ليقول: «وأما بشأن الحوريات، كان الأجدر أن تقضي عمرك كله بانتظار احداهن على ساحل البحر، إذ لا بد أنهم علقوا الآن لافتة على باب الآخرة كتبوا فيها: يمنع دخول القاصرين.. هأ هأ»

«ثم تعال هنا أيها الصوص» قال بوتاميا: «أنت لم تشبع حتى من ممارسة العادة السرية، اليس كذلك؟ أليس الأمر كذلك أيها الصوص المسكين؟ هل جلبت لعبتك معك؟»

فجأة، توقف الصوص المقاتل في مكانه، وكما لو أن حازوقة انتابته في تلك الأثناء، بدأ ينشج، ثم أطلق العنان لبكائه، وراح يصرخ كما فعل أول مرة حين لفظته أمه إلى الحياة، بكل ما أوتي له من قدرة على الصراخ. وفي الوقت الذي هرع المقاتلان الآخران إلى رفيقهما ليهدئا من روعه، من دون أن يتكلما، كان المهرّب يقرّع النصفان على فعلتهما واستفزازهما الفتى المقاتل. هدد بتركهما في الصحراء مجدداً:

«لا تجبراني على رميكما إلى العناكب أيها النصفان المزعجان، قلت لكما اضبطا بلاهتكما وإلا ستندمان»

ثم راح يلعن ساعة تعرفه بهما، وكان في كل مرة يوشك أن ينفذ تهديده بتركهما يعدل عن نيّته، خشية أن يشي به أحد الشبان الثلاثة ما أن يصلوا.

(٤)

أخيراً، كف المقاتل الصغير عن الصراخ، لكنه ما زال ينشج، وقد رافقته الحازوقة طيلة الرحلة التي لم تنتهي باجتياز الحدود إلى داخل الأراضي العراقية، في صحراء الأنبار الغربية، إذ تعين على القافلة التوقف في مكان ما، بانتظار سيارة لاندكروزر تقلهم إلى مدينة الرطبة التي كانت تحت سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في حينها، إلا أن ثمة ما أعاق وصولها في ظهيرة ذلك اليوم. فاستلقى أفراد القافلة الصغيرة على أمتعتهم، متعبين، مرهقين، لا يلوون على شيء سوى إصابة بعض الراحة. وكان النصفان قد جلسا على الأرض الرملية، وألصقا ظهريهما ببعضهما، ولا يبدوان عابئين بتوبيخ المهرّب وتقريعه وإلقائه باللائمة عليهما، لأنهما بسيرهما السلحفاتي أخروا مسير القافلة ليومين إضافيين. كانا في غاية الإنهاك هما أيضاً، ولا يعرفان أين تمضي بهما الأقدار، وأين سترميهما في نهاية المطاف.

ولم ينتظر أفراد القافلة وقتاً طويلاً، ربما ثلاث ساعات، حتى وصلت سيارة اللاندكروزر الحديثة وأقلتهما، باستثناء المهرّب الذي مضى في حال سبيله، إلى مدينة الرطبة، حيث استُقبلوا هناك أفضل استقبال، وأُدرجوا ضمن قائمة تضم نحو خمسين انتحاري عربي كانوا على أهبة الاستعداد لتفجير أنفسهم متى اقتضت الضرورة واستدعاهم

التنظيم. وهؤلاء معفيين من القيام بأي مهام قتالية، وسيظلون مدللين ومحاطين برعاية الجميع في التنظيم، وموضع احترام وتقدير من قبل السكان في المدينة، إلى أن يحين دورهم. عندئذ، يُثقلون بالأحزمة الناسفة ويُرسلون إلى العاصمة لتفجير أنفسهم في المساجد والمراقد والأسواق وأمكنة تجمع العمال والشغيلة في الساحات العامة. لكن هذا لن يمنع التنظيم من الاستفادة من أولئك الانتحاريين، إذ تُسند إليهم بعض المهام الثانوية التي تصب في خدمة الدولة.

خُصص للنصفين غرفة في بناية تضم بالإضافة إليهما مجموعة من الجهاديين الذين يقوم بخدمتهم أربع نساء إيزيديات مختطفات من سنجار. هناك، قضيا أول ليلة لهما في مدينة الرطبة. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، فجلس كل واحد منهما على السرير المخصص له، وغطا في صمت استمر زهاء ساعة، قبل أن يبادر ميزو قائلاً:

«إذن.. نحن انتحاريان الآن؟»

«يبدو أننا كذلك» رد بوتاميا، ثم عاد ليسأل صاحبه: «هل تعلم بماذا ينتحر الروس؟»

فهز ميزو رأسه نفياً، فقال الآخر:

«بالقطارات»

«صدقاً؟ وكيف عرفت؟»

«من آنا كارنينا» قال بوتاميا ثم عاد ليسأل من جديد:

«والفرنسيين؟ هل تعلم بماذا ينتحر الفرنسيون؟»

«لا»

«بالسم»

«وكيف عرفت؟»

«من مدام بوفاري» أجاب بوتاميا، وعاد مرة ثالثة ليسأل:

«والإنكليز؟ هل تعلم كيف ينتحرون؟»

«لا أعرف»

«أنا أقول لك» قال بوتاميا: «غرقاً»

«وكيف عرفت؟»

«من فرجينيا وولف»

وللمرة الرابعة يسأل النصف الأيمن صاحبه الأيسر وكأنه يختبر ثقافته:

«والأمريكان؟ هل تعرف بماذا ينتحر الأمريكان؟»

«بالإيدز» أجابه ميزو.

«خطأ» قال بوتاميا: «ببنادق الصيد»

«ومن شاهِدُك هذه المرة؟»

«همنغواي... إرنست همنغواي»

«واليابانيون؟» استبق ميزو صاحبه بالسؤال: «بماذا ينتحرون؟»

«بالسيف» أجابه: «مثل يوكيو ميشيما تماماً»

بعد دقيقة صمت، سأل ميزو نصفه قائلاً بصوت خافت:

«والعرب؟ بماذا ينتحرون؟»

«العرب؟» قال بوتاميا كأنه فز من نومه فجأة: «العرب ينتحرون بنا نحن العراقيين!»

«لكن لماذا ينتحر هؤلاء؟» سأل ميزو.

«لا أعرف» أجابه الآخر بينما هو يؤرج بقدمه، فقد كانت قوائم السرير عالية بما يكفي لتدلي قدمي المرء عند الجلوس على الحافة: «ربما هي ستراتيجية قتالية أكثر مما لو كان الأمر مقتصراً على شيء له علاقة بالعقائد»

«لم أفهم» قال ميزو، وأبدى اهتمامه بالموضوع.

«ربما كان الانتحاري الجهادي يفكر بالمكافآت الربانية المجزية التي ستُغدق عليه بمجرد أن ينتحر بمجموعة من الكفار والمخالفين، كالعشاء مع النبي، والظفر بحوريات الجنة» قال بوتاميا مسهباً في الحديث:

«لكن الأمر يبدو أكثر من كونه أمراً عقائدياً، أو شيئاً ذا مردود مجزٍ في الحياة الآخرة بالنسبة لمن يديرون كل هذه الحشود، وأعني بذلك الرموز والمؤسسين الذين يشحذون من خلال خطبائهم ذلك الجانب العقائدي في المقاتلين ويدفعونهم إلى الانتحار، وهي عملية التوحش المبررة بنصرة الدين، كجزء من ستراتيجيات قتالية. فالانتحاريون الجهاديون يفكرون بمعانقة حوريات الجنة، بينما يفكر الرموز بحيازة المزيد من الأرض وتوسيع النفوذ وإدامة الخلافة. وهذا لا يعني أن أولئك الانتحاريون لا يعلمون أنهم ضمن خطط أعدت مسبقا، أي ضمن ستراتيجية محددة، مثل أي قطعة سلاح أخرى، لهذا تراهم ينفذون خطط رموزهم باستماتة وعلى أتم وجه، ويفعلون ذلك من أجل نصرة الدين وتوسيع النفوذ في الوقت نفسه. فهم يعلمون جيداً، من دون أن يكون ثمة داعٍ لحشوهم بالهيرويين، أنهم الجانب المهم والمعول عليه من أجل تمكين التنظيم من إقامة امبراطوريته. إنهم مؤمنين بقضيتهم وبالحياة الآخرة، وأنهم سيرون من علوٍّ، في مكان ما من الجنة، دولتهم وهي تنمو وتكبر وتتمدد وتسيطر على العالم. لكن، ليس

بالضرورة أن يرون كل ذلك بينما هم يعانقون الحوريات ويكرعون من خمر الجنة.

كان الإيرانيون، في الحرب العراقية الإيرانية، يمتلكون القدر نفسه من الوعي بكونهم أدوات اختراقية ممهدة. ستراتيجية، جزء من خطة عسكرية الغاية منها الوصول إلى قلب العدو. ولهذا تجدهم مدفوعين بهذا الحافز القومي التوسعي، فيلقون أنفسهم في النار، ويفجرون حقول الألغام بأجسادهم ليأمنوا الطريق ويمهدوه للقطعات العسكرية الزاحفة في إثرهم. ليس لأنهم مأخوذين بفكرة أن القباب المذهبة المقامة على أضرحة الأولياء تقع على مسافة أقل من خمسة كيلو مترات، عبر النهر، ووراء النخيل المجانب لشط العرب فحسب، والتي زرعها في رؤوسهم رجال الدين قبل المعركة، إنما هم مأخوذون أيضاً بفكرة الأضحية، فكرة الجلوس على غيمة في السماء، بعد انتحارهم، والنظر إلى الامبراطورية التي توسعت على حساب دمائهم.

لكن، ماذا كان ينتظر نحو ستين ألفاً من عناصر الباسيج* الذين كانوا يفجرون حقول الألغام بأجسادهم حتى يفتحوا ثغرات يدخل منها الجيش الإيراني إلى العمق العراقي؟ هل كانوا ينتظرون الحور العين؟ هل حقاً هذا ما كانوا ينتظرونه؟ في الوقت الذي كان عدوهم في الجانب الآخر من الشيعة العراقيين الذين سيقوا بالقوة إلى تلك المحرقة بذريعة الدفاع المقدس عن الوطن؟

العمليات الانتحارية يا صديقي أمر أحسبه غامضا على نحو ما نجده في ما يقوم به نمور التاميل في سريلانكا، أولئك اللينينيين الماركسيين الذين لا يأملون على أية حال بمضاجعات أخروية مع الحور العين، كما لا يأمل بذلك اليابانيون الذين ألقوا بطائراتهم على أساطيل الحلفاء في

الحرب العالمية الثانية، ولا فرسان المعبد الصليبيين، ولا فلاحي فيتنام البوذيين، ولا الهنود، ولا حتى شمشون الجبار الذي قام بأول عملية انتحارية في التاريخ، عندما أزاح أعمدة المعبد وأسقطه على رأسه ورؤوس الفلسطينيين»

لا أشك أن بوتاميا يسرق مني، فتلك هي أفكاري يتبجح بها كما لو أنه هو من اجترحها.

في اليوم التالي، باشر النصفان أولى مهامهما غير القتالية، وهي التدريس. فقد أُرسلوا إلى مدرسة لتعليم الأولاد الصغار المنهاج الذي وضعه تنظيم الدولة لتدريس تلاميذ الصفوف الأولى في المرحلة الابتدائية. وقد عانى الاثنان منذ البداية من مشكلة في درس التوحيد والنبوة، إذ لا يبدو أن أولئك التلاميذ الصغار يريدون أن يفهموا أن محمد رسول الله وليس العكس كما هو مكتوب على علم دولة الخلافة الإسلامية لاعتبارات تخص عدم جواز تقديم اسم علم حتى وإن كان ذلك هو اسم النبي على لفظ الجلالة. وكان كلما ردد أحد النصفين عبارة التوحيد: لا إله إلا الله، أجابه التلاميذ بأعلى أصواتهم: الله رسول محمد!

لم يستمر النصفان بتدريس مادة التوحيد والنبوة أكثر من اسبوع، إذ تم تكليفهما بمهمة أخرى هي تلقين أولئك الأطفال مجموعة من المبادئ في كتيب صغير بعنوان (كيف تقوم بذبح شخص كافر؟) لكن، سرعان ما بدأ الأطفال الصغار بالتذمر والشكاية من الاسلوب المتخبّط الذي درج عليه النصفان بهذا الشأن. مما جعلهما موضع التوبيخ من قبل أمير المدينة الذي قال لهما:

«ألم يسبق لأحدكما أن ذبح دجاجة؟!»

«ولا حتى نملة يا أمير المؤمنين» أجابه النصفان.

«إذن كيف ستفجران نفسيكما في صفوف المشركين؟» قال الأمير لهما، ثم حرر ورقة تقضي بتعينهما في قسم شؤون المقاتلين، وتحديداً في تنظيم عمل المتطوعات لجهاد النكاح. فباشرا عملهما في اليوم التالي، وبدءا بالإشراف على توزيع أولاء النسوة على المستحقين من مقاتلي التنظيم، وعرضهن، والترغيب بهن، وفحصهن للتأكد من خلوهن من الأمراض الزهرية.

«انتحاريان نحن أم قوّادان يا إلهي!»

قال بوتاميا يوماً، وكان ممتعضاً أشد الامتعاض من هذا العمل، فسمعته امرأة من نساء جهاد النكاح ووشت به إلى أحد الأمراء بينما هما يتنايكان. ففوجئ النصفان في اليوم التالي بنبأ نقلهما إلى إمارة الفلوجة.

(٥)

من الرطبة، وعبر الصحراء الممتدة منها، مروراً بالبلدات التي تخضع لسيطرة تنظيم الدولة الإسلامية، وصل النصفان إلى الفلوجة في يوم من أيام تشرين الثاني كان الجو فيه بارداً ومغبراً، وأهالي المدينة تفرّقوا لتوهم، بعد أن شاهدوا أحد عروض الإعدام الاحترافية التي يتفنن عناصر التنظيم بتقديمها. وبما أن بغداد لا تبعد كثيراً عن الفلوجة، فقد بدأ النصفان بالتخطيط للهرب منذ اللحظات الأولى التي دخلا فيها المدينة.

وإلى أن يتم ذلك، توجب عليهما المضي قدماً في كونهما جهاديين مستعدين للانتحار في سبيل الله متى ما استُدعيا لتنفيذ ذلك، والاستمرار بتأدية المهام الثانوية التي يُكلفهما بها التنظيم، ومنها الإشراف على سوق النخاسة، وتنظيم عمليات بيع وشراء النساء المخطوفات.

«ها نحن نخّاسان!» قال ميزو لصاحبه همساً.

«ربما ذلك أفضل من كوننا قوّادين يا صديقي!» رد بوتاميا.

إلا أن عملهما في هذا المجال لم يستمر طويلاً، فقد استدعيا بعدها إلى المحكمة الشرعية، لا لمحاكمتهما كما ظنّا في البداية، إنما لتكليفهما بعمل آخر لن يكون اعتلاء كرسي القضاء على أية حال، إنما

بصفة حاجبين يناديان بأسماء المتهمين، ويحرسان باب القاعة مثل نصفي تمثال أثريين.

وفي أحد الأيام، كان النصفان واقفان عند الباب، أحدهما على يمينه، والآخر على يساره، وكما هي العادة، استلما قائمة بأسماء المتهمين الذين سيُعرضون على المحكمة الشرعية في ذلك اليوم، وقد جيء بهم في قفص ذو قضبان ومشبك من جميع الجهال، حُشروا في داخله نساء ورجالاً، وعلى نحو مهين. وكان من بينهم صبي لم يتجاوز عمره الثالثة عشر.

المتهم الأول كان اسمه عصيان، ويقال أنه كان مولعاً بأعجاز النساء. يخرج إلى السوق في وقت الذروة، ويستغل الزحام لتحقيق غاياته. احتمل الكثير من الضرب بالحقائب النسائية والأحذية، وتلقى الكثير من البصاق والشتائم. حتى أن هناك أثر لكعب حذاء يمكن رؤيته على جبينه. وكان عصيان هذا قد زج نفسه وسط النساء المنقبات، وراح يمارس عاداته المشينة، والتي جلبت له العذاب في نهاية الأمر، فقد ضُبط أثناء حملة قامت بها شرطة النهي عن المنكر، واقتيد إلى المحكمة الشرعية بتهمة ارتكاب أمور مخلة بالآداب ومخالفة للشريعة: لمس المؤخرات والنظر إليها وتخيل طعمها وصوت اهتزازها، وملاحقة صاحباتها في الأسواق والزحامات،. وها هو الآن يمثل أمام قاضي المحكمة الشرعية يُدعى أبو عبد الرحمن المجاهد، بلحية طويلة، وزي أفغاني رغم أنه يبدو عراقياً. وكان يحرسه ثلاثة رجال غلاظ قساة بملامح متشنجة، وعنيفة على الدوام.

وبعد أن اطلع القاضي على لائحة الاتهام الخاصة بالشخص المدعو عصيان، أصدر حكمه بحقه وكان كالآتي:

ـ زنا اليد اللمس: اقطعوا يديه.

ـ زنا العين النظر: اسملوا عينيه.

ـ زنا اللسان اللحس: قصوا لسانه.

ـ زنا القدم الجري وراء المنكرات: ابتروا قدميه.

ـ زنا الأذن السمع: اقتلعوا أذنيه.

أومأ القاضي بعدها إلى النصفين الحاجبين، ففهما الإشارة، وقرئا معاً اسم المتهم الثاني:

«خوخي ميعا عباس!»

واضطر النصفان إلى تكرار اسم المتهمة أكثر من مرة، لكنهما لم يسمعا جوابها أبداً. سمعا فحسب باب القفص الحديدي وهو يُفتح، كما يُفتح لعنزة تعرف أنها في طريقها إلى الذبح، فتخرج منه امرأة العمر بملامح شبحية غائرة، إن دلت فلا بد أنها ستدل على أن هذه المخلوقة تعيش اللحظات الأخيرة من حياتها. وكانت تجر خلفها كيساً ثقيلاً وتنظر إلى النصفين بنظرات عمياء، فارغة. فذُهل الاثنان حين تعرفا إليها، حتى أن بوتاميا كان على وشك أن يخطو نحوها ليساعدها على سحب كيس الأحجار، أحجار الحب الآثم، الذي ما زالت متشبثة بها حتى تلك اللحظة.

دخلت خوخي إلى قاعة المحكمة، وكان في إثرها رجل ملتح يحمل بندقية كلاشنكوف. وقفت أمام منصة الحكم، محنية الظهر، بقامة هزيلة، وعينين راحتا تصوبان نظراتها الحادة نحو القاضي، وكأنها أرادت بذلك أن تسملهما.

«هذه المرأة تقاوم» قال أحد التابعين المسلحين الذين يقدمون لأبي

عبد الرحمن المجاهد كل من تخالف أمر الخليفة بعرضها للبيع في سوق النخاسة، فينظر في أمرها: «ماذا نفعل بها يا شيخنا القاضي؟»

«وجدنا معها هذا الكيس!» قال آخر بنبرة أشد قسوة: «الأحرى هذه الصخرة!»

أفرغوا الأحجار من الكيس المقوى أمام القاضي أبو عبد الرحمن المجاهد.

«ماذا تفعلين بكل هذه الأحجار يا امرأة؟!» سألها القاضي.

كانت تريد أن تقول له أنها أحجارك. أحجارك اللعينة التي أورثتني إياها. صخرة العشق الأبدية. ألا تذكر يا خالد؟ لكنها لم تنطق بحرف واحد. كما لو أن المفاجأة عقدت لسانها، ولم تعد قادرة على قول شيء. كانت تنظر إليه فقط، على نحو بدت كأنها تريد تذكيره قائلة: هذه أنا يا خالد خوخي حبيبتك، معبودتك. ألا تتذكرني؟!

لكن من دون جدوى.

حينذاك، تحمحم القاضي. حمد الله وأثنى عليه، وذكر النبي فصلى عليه. ثم حكم على خوخي بالرجم حتى الموت.

وهنا، كان على النصفين أن يناديا باسم المتهم الثالث، لكنهما لم يفعلا. لقد غفلا عن ذلك عندما كانا ينظران إلى خوخي وهي تُسحل من يديها من قبل الحارسين المسلحين الغليظين اللذين أعاداها إلى القفص الحديدي.

«التالي!»

سمعا صوت القاضي مرة أخرى، فأجفلا منه وارتبكت حواسهما، وكانا على وشك أن يصيحا باسم المتهم التالي، إلا أن هناك ما أوقفهما فجأة، وهو أحد القياديين الذي جاء لزيارة القاضي لأمر هام. ومنذ

اللحظة الأولى التي ارتطمت فيها نظرتهما بنظرته الظلامية التي تشبه هاوية، والنصفان يعيشان هاجساً غامضاً ومزعجاً، إلى أن جاءت الساعة التي أرسل في طلبهما ذلك القيادي القادم من الموصل. فذهبا في اليوم التالي إلى مكان إقامته، ووقفا أمامه كمتهمين، في حين كان هو يشزرهما بعينيه الزرقاوين تارة، ويقبض على لحيته الصفراء تارة أخرى، ويحوم حولهما كغراب ينعب بالشؤم إلى أن قال:

«ألا تتذكراني أيها النصفان؟» سألهما.

حك النصفان رأسهما وحاولا تذكر إن كانا قد التقيا بذلك القيادي يوماً.

«لا أظن أننا التقينا من قبل» قال النصف الأيسر: «هل تعرفنا أنت؟»

«بالطبع أعرفكما» قال القيادي الشيشاني الذي سبق له وأن شطرني إلى هذين النصفين اللذين لم يتعرفا إليه، لأنه كان قد هرب بعد أن قتل صاحبه الأفغاني حين استيقظا هما. لكنه لم يعقب بعدها بشيء، إنما صرفهما، وقد بيّت نيته للتخلص منهما قريباً، قبل أن يشيا به.

وفي طريق عودتهما، مر النصفان بالمكان المخصص لإعدام خوخي في ساحة لكرة القدم. لكنهم لم يأتوا بها إلا بعد الظهر، مقيدة، ومنقبة، وموشحة بالسواد. كما جلبوا أحجارها معها. وكان الكثير من سكان المدينة قد توافدوا منذ وقت مبكر لرؤية حفل اعدام السبية الايزيدية التي لم تحملها قدماها، فجثت على ركبتيها بينما كان ممثل القاضي يتلو الحكم عليها. وما أن انتهى حتى وزعت الأحجار على الصفوف الأولى من السكان الذين تحلقوا حول حلبة الإعدام، وانهالوا على خوخي، وراحوا يرجمونها بتلك الأحجار فتصيبها في رأسها، وعلى وجهها، وفي كل مكان من جسدها النحيل المتداعي. كسروا أنفها وأسنانها،

هشموا رأسها، ورضرضوا أضلعها، وشجوا رأسها وجبينها، وفقأوا عيناها حتى لفظت نفسها الأخير.

ولحسن الحظ، لم يكن النصفان اللذان شاهدا حفل الإعدام في الصفوف الأمامية، لتحتم عليهما في حينها مشاركة الآخرين الذي رجموا خوخي حتى الموت. رجموها بأحجار العشق الملعونة.

(٦)

فجأة، تجدا نفسيكما في مكان أشبه بمقبرة كبيرة. السماء فوقها غائمة. الغيوم حمراء كالصدأ، لهذا يبدو أنها لن تمطر.

ويدور بينكما الحوار التالي:

«أين نحن؟»

«يبدو أنه استيقظ!»

«استيقظ؟ من تعني؟»

«هو»

«من هو؟»

«لا أعرف» يرد أحدكما بينما هو يلتفت حوله، كأنه يريد التعرف إلى المكان الذي أنتما فيه، ولا تعرفان كيف وصلتما إليه: «لكني أعرف أنه الميت الذي يحلم بنا. ألا تتذكر؟»

«نعم أتذكر.. الميت الذي يحلم بنا في عالم الأحياء»

«نعم هو»

«هل يعني ذلك أننا في عالم الأموات الآن؟»

«هذا ما أظنه»

«هل ترى ما أراه، يبدو أن هناك ميتاً قام نحونا» يقول أحدكما وهو يشير بسبابته نحو شخص يرتدي ثياباً عسكرية، حافي القدمين، حاسر الرأس، ويعرج من إحدى قدميه.

يُقبل الجندي نحوكما. هو يعرج حقاً، فقدمه جريحة وملفوفة بشاش أبيض. يقترب منكما. يُحيكما كما لو أنه يفعل ذلك من قبل. صوته طريّ كمضغ الطفل لفتات الخبز. يسند خصره على يده، وحول رقبته أثر لحبل أو سلك معدني. حدقتاه تجران الناظر إلى داخل عينيه اللتين بدتا كما لو أنهما تطلّان من خلال ثغرة في كفن.

يسألكما الجندي إن كنتما تعرفان الطريق إلى الحدود العراقية. تهزان رأسكما كبندولي ساعة يائسة تعلن عن نهاية العالم. يغادركما فتتبعانه. تلاحظان أنه ما من مكان أو موضع يحل أو يجلس فيه للراحة، أو يمر به أو يلمسه حتى يكون بوسعكما رؤية التراب الذي يتركه وراءه. تراب رطب محمّر وحزين نغّص على الأموات موتهم.

كانت ظاهرة غريبة لم تحصل من قبل في عالم الموتى، الذين لا يجلبون معهم من الحياة سوى الأكفان، إلا ذلك الجندي الذي ما زال يُترب أماكن ما وراء العدم. الأمر الذي لم يجد الموتى إزاءه سوى استجوابه وسؤاله عن عمله في الدنيا ومن أين له بكل هذا التراب.

عندئذ، قال لهم وعبرة مريرة تكاد تخنقه:

«كنتُ جندياً في الحياة وهذا تراب الوطن!»

(٧)

في اليوم التالي، أركبوا النصفان سيارة حمل رباعية الدفع، مع مجموعة من الأشخاص الملثمين والمسلحين. لم يعرفا في حينها إلى أين يتجهون بهم، وكل ما قيل لهما هو أنهما سيخرجان في مهمة. وعلى ما يبدو أن الشيشاني تغدى بهما قبل أن يتعشيان به.

توقفت السيارة فوق أحد الجسور خارج مركز المدينة لأمر ما، وترجل الجميع منها، ما عدا النصفين، وراحوا يطلون من درابزين الجسر إلى الأسفل وهم يُكبّرون، كأنهم على وشك أن يذبحوا أحداً. التفت أحد أولئك الأشخاص نحو النصفين ودعاهما قائلاً:

«عليكما أن تريا شيئاً»

فقفز النصفان من السيارة إلى الأرض، واتجها إلى حيث يقف الآخرون، وأطلّا نحو الأسفل، فرأيا هناك شخصاً معلقاً من رقبته بحبل مربوط بدرابزين الجسر. أغلق ميزو على نحو فطري لا إرادي، عينه. في حين راح بوتاميا يتمعن في ذلك الوجه الذي رُفع إلى الأعلى، كأنه دُعي إلى مشاهدة روحه وهي تطير نحو السماء لحظة خروجها. وفي الحال، تعرف النصفان على صاحب الجثة المعلقة، إذ لم يمض وقت طويل منذ أن شاهداه في عالم الأموات. كان يبحث عن الحدود العراقية ويملأ عالم الموتى بتراب وطنه.

انطلقت السيارة من جديد في ظهيرة ذلك اليوم نحو إحدى القرى المهجورة المتاخمة للمدينة. أنزل المسلحون النصفين، وكانوا بصدد إطلاق النار عليهما حينما تساءل أحدهما:

«كيف نقتلهما هذان؟!»

وقال آخر:

«إذا كانا قد شُطرا إلى نصفين ولم يموتا، ماذا يفعل لهما الرصاص؟»

كانا ما زالا واقفين ولم يتكلما حين أطلق أحد المسلحين رصاصة تحت قدم ميزو، فقفز هذا عالياً، كما لو أن نابضاً لولبياً دفعه إلى الأعلى. راق المشهد للمسلحين، فشرعوا بإطلاق النار تحت قدمي النصفين ليجبروهما على القفز بتلك الطريقة المضحكة، الأمر الذي صار موضع تسليتهم فاستمروا بالضحك وإطلاق النار حتى ابتعد النصفان مسافة تقارب المائتان متراً، لتتوقف بعدها حفلة اللهو، ويركب المسلحون سياراتهم، وينصرفون عائدين من حيث أتوا. في حين استمر نصفاي المبتليان بالقفز إلى الأمام مثل كنغرين مفزوعين مرتعبين، حتى ابتعدا مسافة طويلة لم يدخرا خلالها جهدهما في القفز. وحين تعبا من القفز، عادا إلى الطريقة التقليدية، فأسند أحدهما الآخر وراحا يمشيان، وابتعدا كثيراً هذه المرة. وحين تعبا من المشي أخذا يزحفان مثل دودتي قز هائلتين، وحين تعبا من الزحف مع حلول ظهر اليوم التالي أُغمي عليهما من التعب والخوف.

كانت السماء في حينها مليئة بالعقبان التي بلغت من الكثرة كما لو أنها دُعيت إلى وليمة من الفطائس. وكان هناك طائرتان مروحيتان تستكشفان المنطقة في تلك الأثناء، فهبطت إحداها على مقربة من

المكان الذي انتهى إليه النصفان، ونزل منها جنديان مسعفان وحملوهما إلى الطائرة بنقالة. حدث بعدها إطلاق نار كثيف، وكادت إحدى صواريخ القاذفات المضادة التي انطلقت من مكان مجهول أن تصيب الطائرة التي ناورت وأفلت في الوقت المناسب.

أفاق النصفان في الطائرة ليسألا طاقمها إن كانوا سيتحققون من هويتهما، ثم عادا ليغمى عليهما من جديد. ثم أفاقا ثانية في القاعدة التي هبطت الطائرة في أحد مدارجها، ليُجيبا عن أسئلة ضابط الاستخبارات العسكرية الذي هُرع إلى مكان تواجدهما في الطبابة العسكرية لأخذ أقوالهما.

«من أنتما؟» سألهما الضابط: «ومن أين جئتما، وماذا كنتما تفعلان قبل أن تجدكما الطائرة؟»

«نحن نصفان مجهولا الهوية يا سيدي الضابط» أجابه النصفان في آن معاً، وقد ضاقا ذرعاً بهذا التعريف:

«وعليكم أن تعثروا على هوية الشخص الذي كُنّاه قبل أن يُشطر. فنحن لا نتذكره، ولا نعرف الشخص الذي شطره، إنها مهمتكم. ألستم أنتم من يتعرف على أصحاب الجثث مجهولة الهوية؟»

«بالتأكيد، الجثث مجهولة الهوية» أجابهما الضابط: «وليس الأنصاف مجهولة الهوية»

«حسناً» قال بوتاميا وطلب من الضابط أن يدنو منه ليخبره شيئاً:

«هناك طريقة ثانية نعرف من خلالها من نحن» صمت النصف الأيمن كأنه يتيح بذلك الفرصة لميزو لكي يكمل ما بدأه:

«فلو تتفضل علينا حضرتك وتجلب لنا نسخة من رواية الفيسكونت المشطور، لانتهى الأمر على خير ما يرام»

«أو....» صاح بوتاميا: «تخلي سبيلنا ونحن نبحث عنها، أليست بغداد قريبة من هنا؟»

ورغم أن ضابط الاستخبارات بدا مرتاباً بشأنهما. لكنه طمأنهما، ووعدهما بالنظر في أمرهما في القابل من الأيام.

الفصل السادس

الحدود العراقية الأردنية

(١)

سأل النصفان السائق الأردني الذي اوقف شاحنته القادمة من منفذ طريبيل الحدودي حين رآهما واقفان على جانب الطريق المعبّدة. سألاه عن المكان الذي هما فيه.

«وكيف وصلتما إلى هنا ما دمتما لا تعرفان أين أنتما؟» قال لهما السائق وأومأ إلى الأعلى، وراءهما، حيث كتب على اللافتة المعدنية التي يلوذان بظلها: الحدود العراقية. لكنهما لم يخبراه أن الطائرة التي كانت تقلهما هي من ألقت بهما في هذا العراء، بدلاً من أن تنقلهما إلى بغداد.

«نحن نصفان مجهولا الهوية» كالعادة، قال ميزو: «نصفان تائهان كما ترى. فإذا رغبت بمساعدتنا فافعل ذلك لطفاً، لكن اعلم أننا لا نملك شيئاً ندفعه لك كمقابل»

دعك السائق الأردني حنكه قبل أن يقول:

«حسناً اركبا»

ساعدهما في الصعود إلى المقطورة الخلفية المحملة ببالات ثياب مستعملة لا يُعرف منشأها. قال لهما أنه مضطر لوضعهما هنا مؤقتاً، كي لا يرتاب بشأنهما تنظيم الدولة الإسلامية، الذي بدأ بفرض الإتاوات

على الشاحنات المحملة بالبضائع والسلع الداخلة عبر الأراضي الأردنية إلى العراق، منذ أن سيطر على أغلب الأراضي في المنطقة الغربية. وكان السائق قد طلب من كل واحد أن يحشر نفسه في بالة ثياب، وأوصاهما بألا يخرجان منها إلا حين يطلب هو منهما ذلك.

تحركت الشاحنة باتجاه الأراضي العراقية، وسلكت طريقاً كان من المؤمل ألا تصادفها فيه إحدى نقاط التفتيش الجمركية تلك. لكن، وربما لسوء حظ النصفين، أوقف عدداً من عناصر التنظيم المسلحين والملثمين الشاحنة بعد ساعتين من انطلاقها. وعلى الفور بدأوا بتفتيشها قبل أن يقدّروا مبلغ الإتاوة التي يجب دفعها، مقابل إيصالات قبض يسلمونها إلى السائق. وكانت بالات الثياب المستعملة في المقطورة كثيرة إلى الحد الذي سيكلف أفراد التنظيم جهداً ووقتاً في تفتيشها. فابتكروا طريقة ربما شاهدها أحدهم في فيلم، وهي أن يقوموا بطعن البالات بحراب بنادقهم، حتى يتأكدوا أنها لا تحتوي على مواد ممنوعة كالخمر وغيره. عندئذ، كاد السائق أن يبول في سرواله، وندم أشد الندم، قائلاً في سره: «ما الذي فعلته بنفسي.. مالي أنا وهذين النصفين عديمي الفائدة؟» وسمع في تلك اللحظة صوتاً ندّ من أحدهما حين طعن مسلحاً بالة ثياب بحربة بندقيته:

«آي!»

أجفل أفراد التنظيم، وتحلقوا حول البالة، بعد أن ألقفوا بنادقهم. وكما يخرج ساحر أرنباً بليداً من صندوق مليء بالخرق، أخرج عناصر التنظيم ميزو، ثم أخرجوا بوتاميا من بالة ثياب أخرى.

كان بوتاميا يرتدي تيشيرتاً أحمر من محتويات البالة علية كتابة بالإنكليزية عندما أخرجوه. في حين ارتدى ميزو تيشيرتاً أصفر لا يخلو

هو الآخر من الكتابة الانكليزية. انزلوهما، واقتادوهما إلى مسؤول نقطة التفتيش، وهو شاب في الثلاثين من العمر، يجلس إلى مكتب صغير في كرفان يقبع بجانب الطريق، ذو بشرة صهباء وعينان خضراوان وشعر سبط طويل ولحية كستنائية. وبدا، بالإضافة إلى هذه الملامح، كأنه أحد أولئك الجهاديين الأوربيين الذين لا يعرف أحد، حتى هم أنفسهم، السبب وراء تركهم أوطانهم والمجيء إلى العراق ليقتُلوا ويُقتلوا.

سأل ذلك الجهادي الأصهب أحد عناصر نقطة التفتيش:

«ما حكم اللواطي في الإسلام يا أخي؟»

فأجابه هذا قائلاً بحزم:

«الحرق!»

«إذن» قال الجهادي الأوربي، بينما هو ينظر إلى بوتاميا كمن ينظر إلى جيفة، بعينين مشمئزتين: «ربما سنحرق هذا النصف اللواطي الأبله غداً»

«وأنت؟» أشار بسبابته المتوعدة نحو النصف الآخر وهو يحك مؤخرته: «هل تعاني من البواسير؟»

لم يفهم ميزو ما الذي عناه بسؤاله، لكنه أجابه بالنفي. فقال ضابط جمارك التنظيم الأوربي قائلاً:

«سنعرف فيما بعد إن كانت حالتك مرضية، أو أنك مثل أخيك اللواطي الملعون هذا» وأومأ بخطمه إلى بوتاميا الذي لم يستوعب بعد ما يحدث ولا يفهمه، ولماذا يقول عنه ضابط جمارك التنظيم لواطي.

أُخلي سبيل سائق شاحنة البالات بعد أن دفع ما عليه من اتاوة وأهدى بعض التيشيرتات إلى المسلحين. أما النصفان فقد أودعا في غرفة صغيرة أعدها أفراد التنظيم كحبس مؤقت لكل من يخالف ضوابط

دخول السلع من سائقي الشاحنات، فتلقفتهما رائحة القرفة اللاذعة فور دخولهما وأزكمت أنفهما وبدءا بالعطاس. وجدا هناك شخصين، الأول عرف نفسه منذ اللحظات الأولى، وهو سائق شاحنة كان عناصر التنظيم قد أوقفوها قبل شاحنة البالات التي يستقلانها، بداعي أنها تحمل لحوما هندية وبرازيلية، أي من بلاد الكفار حسب تعبير شرطة جمارك التنظيم. أما الشخص الثاني فيبدو من ثيابه العسكرية أنه أحد الجنود العراقيين وقع أخيراً في أسر التنظيم، وها هو الآن يجلس في زاوية من زوايا الحبس ينتظر مصيره. كان يهرش وجهه الذي بدا كما لو أنه لحاء شجرة، وما أن رأياه النصفان يفعل ذلك حتى عرفا السر وراء رائحة القرفة التي تفشت في تلك الغرفة على نحو لا يتوفر حتى في دكاكين العطارين.

لم يتكلما معه إلا بعد دقائق قضياها بالنظر إليه مرة، والتهامس كواشيين بشأن اللحاء الذي يغلف وجهه مرة أخرى.

«هل ترى؟» قال ميزو: «لا بد أن أمه توحمت بقشور الدارصيني اللاذعة، وإلا ما تفسير هذه الرائحة التي تنبعث من وجهه؟»

«مسكين» رد بوتاميا، ونسي أنه ما زال حتى تلك اللحظة مشروع حرق وشيك: «لا بد أنهم سيعدمونه كما فعلوا مع الجندي على الجسر»

«أو ربما يشطرونه إلى نصفين» قال ميزو، ثم سأل الجندي ذو الوجه القرفة على حين فجأة:

«تُرى ما الذي حدث لوجهك أيها الجندي؟»

فنظر الجندي إليهما بعينين كأنهما أُطفأتا للتو، ثم قال:

«كما قلت لصاحبك قبل قليل»

إذن، كان يسمعهما حينما كانا يلغطان بشأن الوحمة الدار صينية التي تغطي كامل وجهه:

«توحمت أمي بقشور القرفة عندما كانت حبلى، وعلى الرغم من توفر هذه المادة في الأسواق، إلا أن هناك ما منعها من الوصول إليها. فولدت ووجهي على هذا الحال الذي تريانه الآن. لسنوات طويلة وأمي لم تحتج إلى شراء القرفة من السوق، كل ما عليَّ فعله في ذلك الحين هو أن أهرش خديّ أو جبيني أو حتى أنفي، فتتناثر القرفة في قدر أمي. حتى الجيران كانوا يطلبونها مني حينما لا يكون قرفة في بيوتهم»

تعاطف النصفان مع قصة الجندي ذي الوجه القرفة، الذي لم يعد يهرش وجهه، فقد ألهاه الحديث معهما، وهكذا خفّت الرائحة الحريفة التي كانت تملأ الغرفة المحبوسين فيها.

«عفواً» أخيراً، قال سائق شاحنة اللحوم الهندية ملتمساً بأدب مبالغ، كما لو أنه على وشك أن يتسوّل شيئاً: «هل يمكنني أن أسألك شيئاً؟» وكان يعني بوتاميا بسؤاله، فقال هذا الأخير مبتسماً بلطف:

«تفضل»

«هل حقاً أنت....» بدا السائق خجلاً ومتردداً: «هل أنت حقاً لواطي؟»

«أنا؟!» صُعق بوتاميا وكاد أن ينهض من مكانه: «لماذا تقول لي ذلك؟ هل طلبت منك أن تلوط بي مثلاً؟!»

«لا أبداً، أنت لم تفهمني!» قال السائق معتذراً: «لم أعني ذلك، لكن الكتابة تقول ذلك!»

«الكتابة؟» سأله ميزو: «أي كتابة؟»

«هناك» أشار السائق بسبابته نحو بوتاميا: «على التيشيرت»

«صدقاً؟» هتف النصف الأيمن وقفز من مكانه فزعاً: «هل تعرف الانكليزية؟»

«ليس تماماً» رد السائق: «لكن مثل هذه الكلمات تعلمتها من الأفلام الخليعة»

«وماذا تعني هذه» سأله.

«I'm gay! يعني: أنا مثلي جنسياً!»

«هكذا إذن؟» قال بوتاميا وقد تلاشى ذهوله وراح يوبخ ميزو الذي ارتمى على الأرض الاسمنتية وراح يضحك بصوت حاول كتمه قدر الإمكان لكي لا يسمعه عناصر التنظيم.

«وأنا أقول..!» دعك بوتاميا حنكه قائلاً: «لماذا اتهمني ذلك الأصهب باللواطة؟»

«اقترب ميزو بعدها من سائق شاحنة اللحوم الهندية والبرازيلية المسرطنة، عرض عليه الكتابة المطبوعة على التيشيرت الأصفر الذي يرتديه سائلاً:

«هل يمكنك أن تقرأ لي هذه من فضلك؟»

فمطّ السائق شفتيه وضيق عينيه بينما هو يتأمل تلك الكتابة. ثم قال:

«Itchy anal!»

«بمعنى؟» سأله ميزو مجدداً وقد تجهم وجهه.

«حكة في شرجي!»

فاستلقى بوتاميا بشكل دراماتيكي أرضاً على جانبه السليم، وراح يرفس بقدمه من الضحك.

(٢)

«لماذا يكتبون مثل هذه التفاهات على الثياب؟» تساءل النصفان وهما يخلعان التيشيرتين اللذين ارتدياهما في وقت سابق فوق نصفي القميص: «ما اللذة من كل هذا التغوّط على الإنسانية؟!»

في تلك الأثناء، سُمعت جلبة وراء الباب، ثم دخل إلى الغرفة ثلاثة أشخاص مسلحين عراقيين يرتدون تيشيرتات سود يبدو أن سائق شاحنة البالات أهداهم إياها فعلاً، وكانت تحتوي هي الأخرى على كلمات وعبارات نابية من تلك التي يرددها مطربي الراب في أمريكا، وتُطبع على الثياب، ويرتديها الممثلون الإباحيون ويلطخونها بمنيهم ولعابهم وبول وقيء نجمات البورنوغرافيا، قبل أن تُصدر إلى شبان الشرق الأوسط الذين لا يميزون الناقة من الجمل. فتيشيرت المسلح الأول طُبع عليه (Base-born) والتيشيرتان اللذان يرتديهما الحارسان الآخران كُتب عليهما (sister for sale) و(theocracy)

«هيبيي أنت» أشار المسلح الأول بفوهة بندقيته نحو الجندي الذي ما أن سمع ذلك الصوت وقد بدا كما لو أنه انبعث برفقة جشأة جاءت بعد تناول وجبة من الخراء، حتى عاد ليهرش وجهه، ففاحت منه رائحة القرفة بشكل مفرط هذه المرة، كادت أن تتسبب بحالة إغماء لأحد المسلحين.

لم ينهض الجندي، فاضطر اثنان من المسلحين الثلاثة إلى سحله من ياقته، بينما هما يضغطان أنفيهما. أخذوه، ويبدو أنهم سيعدمونه.

«الله وحده يعلم بأي طريقة سيقتلون هذا الجندي المسكين» قال سائق شاحنة اللحوم المحرمة، وراح يهدأ من روع بوتاميا الذي كان يقرض أظفاره بأسنانه في حينها، ما أن تذكر تهديد مدير جمارك التنظيم بحرقه في الغد. وبعد مضي ساعة، ازداد عدد سائقي شاحنات اللحوم المسرطنة القادمة من الهند والبرازيل والصين عبر الأردن إلى ستة، فقد جيء بخمسة آخرين، تعرف سائق الشاحنة الأقدم إلى اثنين منهم.

في المساء، كان جميع الموقوفين مدعوين إلى مأدبة عشاء مفاجئة، كان مدير جمارك التنظيم قرر إقامتها من دون مناسبة. الأمر الذي توجس منه الجميع، وتكهنوا بعد هذه الدعوة الغامضة بمصير سيء لا يختلف عن مصير الجندي ذو الوجه القرفة، ولهذا السبب بادر ذلك المدير الجهادي إلى إطعامهم.

«ومن يعلم» قال ميزو هامساً: «ربما يعمدون إلى تسميننا، ثم تقديمنا إلى العقبان لتنهش لحومنا، كما حدث في إحدى قصص السندباد. فهؤلاء الخلق مبتكرون دائماً»

حان موعد الوليمة بعد ساعتين، وجيء بأطباق كبيرة مليئة بالرز والخبز المنقوع بحساء اللحم الطري.

«هيا كلوا» قال مدير جمارك التنظيم: «وليخبرني أحد بعدها كيف هو طعم الكفار»

أكل الجميع ما عدا النصفين. وبينما هم يأكلون على مضض، ظنّ سائقو الشاحنات أنهم يأكلون من اللحوم نفسها التي ينقلونها. اللحوم الهندية والبرازيلية القادمة من بلاد الكفار حسب زعمهم. أما النصفان،

فقد كانا في حينها يتعرفان بحاسة شمهما على «هوية» صاحب اللحم المكدس أمامهما من رائحة القرفة التي انبعثت منه بوفرة وصلت إلى درجة لم يعودا يعرفان بعدها ممَ تنزل دموعهما، من حرافة الرائحة التي أحرقت عيناهما، أم من حزنهما على الجندي ذو الوجه القرفة الذي تحول إلى حساء.

اقترب الوقت من منتصف الليل حين دوّت أصوات انفجارات قريبة، وثمة طائرات مقاتلة اخترقت حاجز الصوت بينما هي تحلق فوق المنطقة مثل صقور تبحث عن فراخها الضائعة، فأشاعت الفزع في نفسي النصفين وسائقي الشاحنات، قبل أن تختفي ثم تعود مجدداً بعد دقائق بشكل أعنف، لتقصف الجسر الذي يتحصن تحته عناصر تنظيم الدولة الإسلامية وتشطره إلى نصفين، مما ألحق الضرر بنقطة تفتيش جمارك التنظيم وطالت غرفة الاحتجاز أيضاً، وتوقع سائقي الشاحنات موتاً وشيكاً. وعلى ما يبدو أن هناك إنزالاً يعتزم الجيش القيام به في ذلك الحين، ويمكن الاستدلال عليه من الطائرات المروحية التي كانت تحلق قريباً من الجسر. ولم يمض الكثير من الوقت حتى هبط نحو خمسة وعشرين مظلياً إلى الأرض، ودارت معركة صغيرة بينهم وبين مسلّحي نقطة تفتيش جمارك التنظيم، انتهت أخيراً بسيطرة المظليين على الموقع، وتم تحرير النصفين وسائقي الشاحنات.

كان أولئك المظليين يبحثون عن الجندي ذو الوجه القرفة، فلم يجدوا منه سوى عظامه في القدر الذي سلقوه فيه.

انطلقت الشاحنات، التي استقل النصفان إحداها، باتجاه بلدة النخيب، بعد أن اجتازت خطر اعتراض طريقها من قبل عناصر تنظيم الدولة على الطريق المحاذي للرطبة، ومن النخيب اتجهت إلى كربلاء

ثم إلى مدينة الحلة، حيث نزل النصفان هناك، وقضيا يوماً كاملاً في البحث عن رواية كالفينو، إلا أن أي مكتبة من مكتبات المدينة لم تتوفر فيها تلك الرواية. الأمر الذي لم يجد النصفان له تفسيراً منطقياً، فركبا القطار الصاعد من البصرة باتجاه بغداد، ووصلا إلى هناك في صباح اليوم التالي.

(٣)

كان النصفان في طريقهما إلى شارع المتنبي، السوق الثقافي في وسط العاصمة، ليبحثا هناك عن رواية الفيسكونت المشطور. إلا أن ثمة ما اعترض طريقهما في ذلك الحين، عندما فجّر انتحاري نفسه في ساحة تعج بالعمال الفقراء ممن يعملون بالأجر اليومي، ليس بعيداً عن ساحة التحرير، حيث يقوم هناك نصب الحرية من عمل النحات العراقي الأشهر جواد سليم.

تزامن الانفجار مع أول قطرات من المطر زخّتها الغيوم الرمادية التي خيمت على العاصمة الكئيبة في ذلك اليوم. خطرت لبوتاميا فكرة رأى أنها أفضل من البحث عن رواية مفقودة، فأخبر بها ميزو فوافقه هذا عليها، وهُرع الاثنان إلى مكان التفجير، مرّغا نفسيهما بدماء الضحايا، وألقيا بنصفيهما المشطورين وسط جثث العمال وأشلاءهم التي ما زالت تنبعث منها الأدخنة.

بعد دقائق قليلة، اكتظ المكان بأفراد الجيش والشرطة الذين ضربوا طوقاً أمنياً حول مكان الحادث، وشرع رجال الإطفاء بإخماد الحرائق الصغيرة التي شبت هنا وهناك. في حين بدأ المسعفون برفع جثث الضحايا وإجلاء الجرحى إلى المستشفيات. أما النصفان فقد صنفوهما في عداد القتلى. لفّوهما ببطانية وحُملا بين الجثث الأخرى إلى دائرة

الطب العدلي من أجل التعرف على هوية صاحبهما، وهو ما كانا يطمحان إليه بإقدامهما على تلك المغامرة. وهناك، في دائرة الطب العدلي، تم إيداعهما في إحدى ثلاجات الموتى.

«تُرى ما فائدة هذا الشيء ما دام أن من يُحشر في هذا المكان الضيق المخيف ليس سوى أموات؟» سأل ميزو صاحبه عن العتلة في باب الثلاجة من الداخل، لكنه لم يجبه. فعاد ليسأله ثانية: «هل سنموت من البرد هنا؟»

«هل متّ حين شطروا ذلك الشخص الذي كنّا إلى نصفين؟» قال بوتاميا منزعجاً.

«لا لم أمت» أجابه ميزو.

«إذن.. لم لا تصمت لنرى ما نهاية هذه القذارة»

بعد ثلاثة أيام، أخرجوا النصفين من الثلاجة، وضعوهما على سرير التشريح، واجتمع حولهما زهاء عشرة أشخاص، أطباء مختصين، ضباط شرطة، ومحققين.

«ألم يسأل عن هذه الجثة أحد؟» قال أحدهم.

«أبداً» قال آخر: «كل الجثث والأشلاء سُلّمت إلى ذوي الضحايا إلاّ هذه الجثة المشطورة»

«كأنها خرجت من شق في الأرض» قال شخص ثالث وهو يقف عند قدمي النصفين: «يا للغرابة! نصفا جثة مجهولة الهوية!»

«لا أظن أن هوية صاحب هذه الجثة المشطورة مجهولة» قال الشخص الذي تكلم أول مرة مشككاً: «ربما هي جثة الانتحاري الذي فجّر نفسه»

«صدقاً» قال متحدث رابع: «خصوصاً أن كل من كانوا في مكان التفجير هم من الشغيلة، ولا يبدو صاحب هذه الجثة المشطورة واحداً منهم!»

«إذن هذا هو!» قال الجميع: «هذا هو الانتحاري الذي فجّر نفسه!»

«ماذا سنفعل به؟»

«ندفنه»

«أو نحرقه مثل كلب أجرب»

«نجزأه إلى قطع ونلقي به لأسماك النهر»

«أو نرميه للكلاب وهي تعرف شغلها معه»

«لكن...» قال المتحدث الأول: «لنبلغ عنه أولاً»

وغادروا المكان، بعد أن أعادوا النصفين إلى مكانهما في الثلاجة.

«هل سمعت بأذنك؟ قال ميزو: «هذه نتيجة خطتك الفاشلة»

«خطتي الفاشلة؟» قال بوتاميا: «نعم، حقاً، إنها خطتي الفاشلة، لكن لا أظن أن الذي وافقني عليها نصف رجل من ساحل العاج»

«كف عن هذا الآن وقل لي ماذا نفعل؟» قال ميزو بحنق لأول مرة.

«نخرج من هنا قبل أن يحرقوننا»

«كيف نخرج؟»

مد بوتاميا يده إلى العتلة في باب الثلاجة من الداخل وأدارها قائلاً:

«ألم تسألني من قبل عن فائدة هذه العتلة؟»

ثم فتح الثلاجة، وخرجا منها. تنكرا بثياب عاملين كانت معلقة على شماعة هناك، وتسللا خارج دائرة الطب العدلي. سلكا طرقاً فرعية أفضت بهما إلى طريق عام أكملا منه مسيرهما نحو ساحة الحرية، حيث

اتخذاها مقراً مؤقتاً لإقامتهما ريثما يعثران على تلك الرواية الملعونة التي يبدو انها اختفت.

هناك، تعرف النصفان على فؤاد سرحان، الكلبي، الأغنوستي، السفسطائي، المصاب بالأنيميا المنجلية، التي تسبب له آلاماً مبرحة كلما انتابته النوبة بين فترة وأخرى، وكان قد عزف عن الزواج بسببها، وترك بيت العائلة الثرية ليعيش حياة التشرد. كان فيلسوفاً مجنوناً، لا أحد يعرف أين يذهب في النهار، لكنه دائم التواجد تحت نصب الحرية في الليل، كما لو أنه كائن ليلي ما أن يخرج إلى الضوء حتى يحترق جناحاه. كان ينام في برميل بترول فارغ كلما ألقوا به عمال البلدية خارج الساحة، قبل التظاهرات ضد الحكومة والبرلمان التي تقام في أيام الجمع، يأتي ببرميل جديد من تلك التي تُخصص عادة للنفايات. وكان النصفان قد عقدا معه صداقة منذ الليلة الأولى التي قضياها تحت النصب، رغم أنه قليل الكلام، كثير الوجوم كتمثال، ويبدو كأنه يحتضر في أغلب الأحيان. وحدث خلال الفترة الماضية أن انتابته نوبة الأنيميا، وسببت له ألماً لا يُحتمل، فظن النصفان أنه مات. لكنه عاد بعد فترة قصيرة ليأخذ مكانه تحت النصب، ويبدأ تنظيراته حول سقراط وتلميذه أنتيستينس وتلميذ أنتيستينس ديوجانس. كانا يقضيان معه أوقاتاً من دون أن يضطرا إلى الكلام معه، فهو إلى جانب مهاراته الفلسفية، فإنه يُعتبر، بالنسبة لهما على الأقل، مؤدي حركات بارع، ودائماً ما تتناسق تلك الحركات مع ما يدبجه أو يحفظه من مسرحيتي يوليوس قيصر وكريولانس، ثم يلقيه كما لو أنه يفعل ذلك على مسرح.

لم يدع النصفان الوقت يمر من دون أن يبحثا عن رواية كالفينو، فسلكا في صباح أحد الأيام الطريق نفسه الذي اعترضه ذلك الانتحاري قبل عدة أيام، حتى وصلا إلى شارع المتنبي. وهناك، لم تبق مكتبة أو

رصيف كتب إلا وفتّشا فيه عن رواية كالفينو، لكن بدون فائدة. كانا يريان هذه الظاهرة غريبة وتستدعي البحث والتقصي عن أسبابها، بينما يراها أصحاب المكتبات مجرد مصادفة، فليس من الغرابة أن يخلو سوق كتب بأكمله من رواية مشهورة كهذه من المفترض أن عدداً كبيراً من الكُتّاب قرأها، وهذا ما قاله أحد الكتبيين لهما.

«وأين نجدهم هؤلاء الكُتّاب؟» سألاه، فقال لهما: «في مقهى يقع في نهاية الشارع»

فذهبا إلى هناك، وجلسا على أحد التخوت في المقهى الكبير، قبل أن يبدءا بطرح سؤالهما على أولئك الكُتّاب واحداً تلو آخر.

«لطفاً سيدي العزيز، هل قرأت الفيسكونت المشطور؟» سألا أحدهم.

«نعم أظن أني قرأتها» أجابهما.

«حسناً، هل تتذكر كيف التصق النصفان المشطوران في النهاية؟» سألاه.

فأغمض الكاتب عينيه كأنه يتأمل، ثم قال مبتسماً، كاشفاً عن أسنان دهنهما التبغ بلونه الأصفر:

«لا.. لا أتذكر!»

ثم دلّهما على كاتب آخر ربما يكون بمقدوره مساعدتهما، لكن هذا الكاتب أرسلهما إلى كاتب آخر، وهذا أرسلهما بدوره إلى كاتب آخر، وعلى هذا النحو، ظل النصفان يتنقلان بين الأدباء والكتاب من رواد مقهى الباقوطة* وهذا اسمها، ويطرحان سؤالهما عليهم. لكن يبدو أن أحداً لا يعرف كيف التصق نصفا الفيسكونت. يئسا، وكانا على وشك المغادرة عندما ناداهما كاتب طاعن في السن، من أولئك الذين توجهوا

لهم بالسؤال وقال أن فترة طويلة مضت منذ أن قرأها في عام ١٩٥٠ في حين إنها صدرت بالإيطالية في عام ١٩٥٢.

أجلسهما إلى جانبه، وراح يدندن مع أم كلثوم التي كان صوتها ينبعث من الغرامفون في مشهد أربعيني ينقصه الأسود والأبيض، ثم فجأة، ومن دون سابق إنذار، قال الكاتب الكبير في السن:

«سأدلكما على مكتبة لا تخلو منها هذه الرواية، لقد رأيتها بعينيّ هاتين واردت استعارتها من صاحب المكتبة يوماً لكنه لم يكن يثق بي»

أوشك النصفان أن يقولا له: حتى نحن يا عزيزي الكاتب لا نثق بك. لكنهما عدلا عن ذلك وسألاه:

«وأين تقع تلك المكتبة؟»

«أدلكما عليها فيما بعد، لكن عليكما أن تسرقان تلك الرواية، لأن المرأة العجوز العمياء التي تحرس المكتبة لن تسمح لأحد بالدخول حتى لو كان ذلك رئيس الوزراء»

«امرأة؟» سأله ميزو» ولماذا تحرس امرأة عجوز وعمياء مكتبة؟»

«لأن صاحب المكتبة يكون ابنها الوحيد»

«وأين هو الآن؟»

«لم يمضِ الكثير من الوقت منذ أن قتله الإرهابيون، المسكين شطروه إلى نصفين مثلكما، وعلى الرغم من ذلك، ما زالت حسيبة تأمل في عودته يوماً»

«تأمل في عودته؟» سأله بوتاميا.

«نعم» أجابه الكاتب الطاعن في السن ذو الشعر الأشيب المصبوغ على نحو سيء: «لهذا هي تحرس مكتبته ما دام أنها على قيد الحياة.

لقد حاول الكثير من اللصوص سرقتها، لكنهم لم يستطيعوا. هناك شيء مجهول وغامض يردعهم في اللحظات الأخيرة، فيعودون خالي الوفاض، حزينين، مكتئبين، وعلى وشك البكاء. غير أن أحداً منهم لم يفشي حتى الآن السر وراء كل ذلك الحزن والكآبة، حتى سمى الناس الحال التي صاروا عليها بعد محاولاتهم الفاشلة في سرقة تلك المرأة العجوز بـ (لعنة حسيبة).

«اسمها حسيبة؟» سأله ميزو ظاناً أنها ربما تكون أم الشخص نفسه الذي كاناه قبل الشطر.

«نعم حسيبة» رد الكاتب الكبير في السن: «يقع بيتها على مقربة من مقبرة الإنكليز، ليس بعيداً عن محل سكني، لكن إذا رغبتما أن تجربا حظكما فلا بد أن يكون ذلك ليلاً»

(٤)

في اليوم نفسه ليلاً، وبعد أن استطلعا المكان برفقة الكاتب العجوز، تحرك النصفان نحو بيت حسيبة العمياء، وحدث أن صادفا في الطريق لصاً عائداً من بيتها، وقد تملكته حالة من الحزن والكآبة، تماماً كما قيل عن أولئك اللصوص الذين حاولوا سرقة حسيبة من قبل وباءت محاولاتهم بالفشل، فعادوا إلى أدراجهم، عاقدين العزم على عدم الوصول إلى ذلك البيت أبداً، بل أن بعضهم من ترك عمله في اللصوصية وثاب إلى رشده. استوقفه النصفان، والتمسا منه إخبارهما بأمر المرأة العجوز تلك، وألحا عليه، وأقسما له، ووعداه بألاّ يفشيان السرّ لأحد، حتى تكلم ذلك اللص قائلاً أن حسيبة العمياء تتمتع بحاسة شم مخيفة، وإنها تستقبل اللصوص ظناً منها أن أحد منهم هو ابنها القتيل، لكنها سرعان ما تطردهم، ما أن تشم رائحتهم. الأمر الذي أثّر في جميع اللصوص، فأشفقوا على المرأة وأحسوا بالندم.

«ما أن أحسّت بوجودي» يروي اللص: «حتى نادت من مكانها أمام باب المكتبة المغلق بسبعة أقفال:

ـ من هناك؟ من؟ هل أنت جاسم؟

تلكأت، واضطربت مشاعري وأنا اسمعها تنادي عليّ وكأني ابنها

حقاً، ولم يكن أمامي في تلك اللحظة سوى أن أجيبها بنعم. وظننت أن أمري سيُفتضح، إذ لا يمكن لأمّ أن تنسى صوت ابنها. لكنها لم تقل شيئاً بهذا الشأن، بل استقبلتني بحفاوة، وعانقتني وسط بكاء ونحيب. لكنها، وبعد دقائق قضتها بشمّ ثيابي، صفعتني بقوة ونهرتني قائلة بينما هي تهزّ عصاها:

ـ أنت تكذب.. هذه ليست رائحة ابني.. لا يمكن أن تكون هذه رائحة جاسم!

ثم طردتني.

تأثرت كثيراً، حتى أني بكيت وشعرت بالذنب، وعاهدت نفسي بألاّ أسرق ثانية»

عندما سمع النصفان شهادة اللص علما من أين تؤكل الكتف.

يبدو أن جميع اللصوص الذين حاولوا سرقة حسيبة لم يعرفوا كيف يتصرفون معها. لقد فضحتهم روائحهم. إنها روائح الحياة. وبما أن جاسم ميت فلا يمكن لحسيبة أن تتعرف إليه إلا من رائحته الحالية، وهي رائحة الموت، رائحة التراب، تراب المقابر.

إذن، على هذا النحو كانت المرأة العجوز تأمل أن يعود ابنها.

«أين الطريق إلى المقبرة؟» سأل بوتاميا صاحبه.

«أظن أن الكاتب العجوز قال من هنا» رد ميزو.

«اتبعني» صاح بوتاميا وانطلق مسرعاً، وميزو في إثره قائلاً:

«آمل ألا تكون خطة جديدة فاشلة!»

وصلا إلى المقبرة التي ما زالت رائحة الموت تفوح من قبورها، منذ أن شيدها البريطانيون لقتلاهم بعد احتلالهم بغداد في عام ١٩١٧.

وقفا على أحد قبور الجنود الانكليز الذين قُتلوا أو ماتوا أثناء الحرب مع الأتراك. كانت شاهدة القبر ما تزال قائمة ومنقوش عليها اسم الجندي القتيل وتاريخ ولادته ومقتله ومن أي مدينة هو، في حين نُقش في الأسفل أحد المقاطع الشعرية على ما يبدو مذيلاً باسم جون ملتون. فأخذ النصفان من تراب القبر وشرعا يعفّرا به ثيابهما ووجهيهما ليكتسبا رائحة الموت حتى بديا كما لو أنهما ميّتان انبعثا من بين القبور. ثم الصقا نفسيهما وقصدا بعدها بيت حسيبة العمياء الذي لا يبعد كثيراً عن المقبرة.

وكما لو أنها كانت تنتظرهما، فاجأهما صوتها فور دخولهما.

«من هناك؟» صاحت وقد رأيا شبحها يخرج من إحدى الغرف:

«هل أنت جاسم؟»

«نعم أنا هو يا أمي» أجاباها بصوت مرتجف.

اقتربت المرأة وهي تلتمس طريقها نحوهما، تقودها عصاها الخيزران. وحين صارت بمواجهتهما، مدت خطمها وراحت تشم ثيابهما بلهفة مثل ناقة صدّع الغياب كبدها.

«ابني!» صاحت بنبرة مشفقة، وعانقتهما على نحو أشعرهما بالندم ولعنا الفيسكونت المشطور: «ابني جاسم!»

فجأة، وبينما هي على هذا الحال، وإذا بها تتراجع خطوة إلى الوراء وتصفعهما بقوة. كانت الصفعة من نصيب ميزو، مما أضحك بوتاميا للحظة.

قالت بغضب وهي تهز عصاها، تماماً كما وصفها اللص الأخير الذي صادفاه في الطريق:

«لص وغد آخر!»

ثم استدارت عائدة من حيث أتت، وسمعاها تدمدم من هناك وتقول بحنق:

«هذه ليست رائحة موتنا.. ليست رائحة موتنا!»

(٥)

بعد قصة العجوز حارسة المكتبة، عاش النصفان حياة التشرد في بغداد. في الليل كانا يلوذان تحت نصب الحرية في ساحة التحرير برفقة فؤاد سرحان الفيلسوف المجنون، في حين يقضيان النهار بالتردد على مكتبات العاصمة الكثيرة، بحثاً عن رواية الفيسكونت المشطور، لكن من دون أن يجدا لها أثراً في أي مكان. وكما حدث في البصرة، فإن أيّاً من الكُتاب الذين التقيا بهم في المقاهي الثقافية، وكانوا قد قرأوا الرواية من قبل، لا يتذكر كيف عاد ميداردو دي ترالبا شخصاً واحداً كما كان قبل أن تشطره القنبلة التركية. وكانا كلما تذكرا أنهما تائهان، ومن دون هوية، سأل أحدهما الآخر بصوت أقرب إلى البكاء:

«والآن.. ماذا نفعل بدون كالفينو؟»

فكرا بكتابة رسالة له، إلا أن أحد رواد المقاهي الثقافية التي صارا يترددان عليها كثيرا، أخبرهما أن كالفينو مات منذ عام ١٩٨٥. وبعد يومين، وكان يوم جمعة، تفاجأ النصفان بالكاتب العجوز الذي دلّهما على بيت المرأة العمياء حارسة المكتبة وهو يسلمهما رسالة.

«هذه الرسالة لكما» قال لهما.

«لنا؟!» زعق النصفان وهما في غاية الاستغراب: «ممن؟»

«لا أعرف» رد الكاتب العجوز وهو يلوك شيئاً في فمه: «رجل جاء إلى المقهى وسأل عنكما وطلب مني إيصالها لكما»

«صدقاً؟» قال ميزو وهو ينظر إلى المظروف في يد الكاتب العجوز المرتعشة.

«ألا تعرفه؟» سأله بوتاميا.

«لا أعرفه ولم يسبق لي أن رأيته قبل الآن» رد الكاتب وكان ما يزال يمد يده المرتعشة التي تحمل الرسالة: «ربما هو إيتالو كالفينو هأ هأ!»

وفجأة، وبحركة مباغتة، اختطف النصف الأيمن تلك الرسالة. وكان ممتعضاً ويظن أنها إحدى ألاعيب هذا الكاتب العجوز. دسها في جيب بنطلونه وغادرا المقهى متجهين إلى محل إقامتهما في ساحة الحرية. وفي الطريق، انتبه النصفان إلى إمكانية العثور على نسخة الكترونية من الرواية في الشبكة العنكبوتية. لطم بوتاميا جبينه قائلاً:

«كيف فاتنا أن نفعل ذلك من قبل؟!»

وعلى الفور، ارتادا أقرب مقهى للإنترنت، وجلسا أمام شاشة الحاسوب، وشرعا، بمساعدة موظف المقهى، يبحثان ويقلبان إلى أن عثرا على تلك النسخة، فنقر عليها بوتاميا وفُتحت وتدفق الدم إلى وجهيهما من جديد. لكنهما كانا يجهلان في أي موضع بالتحديد عاد الفيسكونت إلى طبيعته.

«لا بد أن ذلك حصل قبل نهاية الرواية» قال ميزو، وراحا يقلبان الكتاب من الصفحة ثمانين فما فوق. لكنهما وصلا إلى آخر سطر منها ولم يعثرا على غايتهما. أعادا القراءة من الصفحة خمسين، وأيضاً لم يعثرا على شيء. قرئا الرواية من الغلاف إلى الغلاف، لكن.. لا شيء، لا شيء!

«يبدو ان هناك فصل ناقص!» قال بوتاميا: «وكأن أحد ما عمد إلى رفع هذا الفصل من الرواية الذي يحتوي على الكيفية التي عاد بها الفيسكونت إنساناً موحداً»

شعر النصفان بالتعب، وبخيبة أمل جديدة، خصوصاً وأن هذه النسخة هي النسخة العربية الوحيدة الموجودة في الإنترنت. وهكذا انتهى اليوم بطردهما من المقهى، إذ لم يكونا يملكان ثمن الساعات التي قضياها في التصفح والقراءة. فكرا بالبحث عن نسخة انكليزية، لعلهما يعثران فيها على ضالتهما، لكن عليهما أولاً أن يجدا عملاً يوفران من خلاله ثمن الوقت الذي سيقضيانه في البحث مرة أخرى.

«لكن من يقبل بتشغيل نصفين؟» تساءل ميزو وهو ينظر إلى صاحبه تحت الأنوار الكاشفة التي تضيء نصب الحرية في ليلة من ليالي كانون الأول، وكما لو أنه قرأ ما في عينيه، قال:

«لا تفكر حتى بهذا!»

«أفكر بماذا؟» سأله بوتاميا.

«بالاستجداء!»

«بل أفكر بفيلسوفنا المجنون» قال بوتاميا وهو ينظر نحو الدعامة الأخرى للنصب، حيث يشخر ديوجانس الكلبي الصغير في برميل البترول: «لقد رأيته اليوم يتسول متنكراً»

«حقاً؟!»

«كما أقول لك»

«وبماذا تفكر؟»

«راقبني وستعرف»

نهض بوتاميا، وتوجه نحو الفيلسوف المجنون. اقترب منه بهدوء، انحنى عليه، دس يده في جيب القمصلة العسكرية التي يرتديها، وأخرج شيئاً منه، ثم قفل عائدا وهو يتلفت حوله.

«لقد سرقته!» صاح ميزو: «سرقت الرجل!»

لم يأبه بوتاميا بتقريع صاحبه، ولم يتفوه بكلمة واحدة. استلقى على المقعد الكونكريتي ونام. وحلم بامرأة تحرس مكتبة قالت أنها أم الشخص الذي شطره الإرهابيون. وعلى الرغم من أني أمتلك مكتبة تستحق أن تُحرس كما يحرس أحدهم كنزاً، لكن هذه المرأة لا تشبه أمي على أية حال. أفاق بوتاميا على صوت ميزو وهو يوقظه. اتجها بعدها إلى مقهى للإنترنت وباشرا بحثهما عن النسخة الانكليزية، ووجداها، وتصفّحاها، وقرآها، وفي النهاية لم يجدا المقطع الذي يتكلم عن عودة الفيسكونت من شطرين إلى رجل كامل.

«أحدهم يعبث بنا!» قال بوتاميا.

«من تظنه؟» سأله ميزو.

«لا أعرف» أجابه بوتاميا.

«أنت دائماً لا تعرف!» صاح ميزو.

«وأنت تسأل كثيراً!» نهره بوتاميا.

يئسا، أحسا كما لو أنهما يخوضان في بحيرة من العبث، الهباء، التيسي فيسي، فقررا الكف عن البحث، والانخراط في الحياة من حولهما كأي معاقين من مئات الآلاف من معاقي هذا البلد. أما عن «الهوية» التي يبحثان عنها، فيمكن الاستدلال عليها من الأثر الذي أحدثه العنف فيهما، كما أحدثه في ملايين العراقيين، سواء في أجسادهم أو في نفسياتهم. أليس هما النتيجة الغرائبية، السريالية، لعملية

شطر فظيعة بمنشار كهربائي قام بها الإرهابيان الشيشاني والأفغاني؟ إذن، ما الحاجة إلى «هوية» تعريفية، أو حتى معنوية، ما دام أن أبناء هذا البلد لا يموتون إلا بالعنف، أثناء الحروب، والحصارات، والدكتاتوريات، والغزوات، والاحتلال، والتناحرات الطائفية، والصراعات السياسية والإقليمية؟

هذه هي النتيجة التي توصل إليها النصفان، وقررا العيش في إثرها كنازحين. فالنزوح، بما أنه الناتج الطبيعي للعنف، هو الآخر أصبح أحد العلامات التعريفية. فلكي تثبت أنك من أهل هذا البلد، لا حاجة لأن تبرز «هويتك» اكشف عن جرحك، أو جنونك، أو عاهتك، أو عدد القتلى في عائلتك، أو قل أنا نازح فحسب.

إلا أن أحداً ما لن يدع النصفان وشأنهما. فما زال هذا الـ «أحد» يتبعهما دائماً، يتعقب أثرهما، ينغص عليهما عيشهما، ويزعزع استسلامهما للأمر الواقع. ففي صباح يوم حار ومؤرق من أيام الصيف، في ساحة الحرية، أُلقي القبض على النصفين من قبل أولئك الذين يندرجون تحت مسمى أشخاص «مجهولي الهوية» في أخبار الخطف والقتل اليومي في العاصمة. وبما أنهم «مجهولي الهوية» فدائماً ما يخطفون أو يقتلون «على الهوية» ويقتادون ضحاياهم إلى جهات «مجهولة» أيضاً، ويحيلونهم هناك من أشخاص معلومي الهوية «إلى أشخاص» مجهولي «الهوية» وهكذا، يجتمع الضحية والجلاد تحت العنوان نفسه، لكن الفرق يكمن في أن الأول «جثة مجهولة الهوية» والثاني «قاتل مجهول الهوية»

(٦)

اقتادوا النصفين إلى ذلك المكان المجهول. وضعوهما في غرفة رطبة ومعزولة يضيؤها مصباح معلق في وسط السقف، وأبقوا عليهما لأكثر من شهر لم يزرهم خلاله أحد، ولا حتى خنفساء من تلك التي تتسلل من تحت الأبواب، أو قملة فكرت أن تلتصق في إبط أحدهما. كانا منقطعين عن العالم، وظنا لفترة أنهما أصبحا خارج الزمان والمكان، إذ لم يكن هناك شيء، ولا حتى نباح كلاب أو سقسقة عصافير في الجوار، تدل على أن الحياة ما زالت مستمرة في الخارج.

«ربما أحرقوا بغداد بالكامل هذه المرة» قال ميزو: «ونحن الآن مقبورون تحت رمادها»

تذكرا الرسالة المهملة في جيب بوتاميا، تلك التي سلمها إياهما الكاتب العجوز في المقهى الثقافي وقال إن رجلاً، يظن أنه كالفينو، طلب منه إيصالها لهما. أخرجا المظروف، فضّاه، وأخرجا ورقة الرسالة وبدءا القراءة:

(نصفاي العزيزان

كيف حالكما؟

أتمنى أن تكونا بخير وعلى خير ما يرام.

Tele: @Arab_Books

لقد ترددت كثيراً قبل كتابة هذه الرسالة. وها أنا ذا أكتب لكما.

يعزّ عليّ ما تمران به من محنة وأحداث أليمة كانت أشدّ وقعاً على قلبي من شطري إلى نصفين. وكل ذلك من أجل أمر صرت لا أحبذ أن يتحقق، ألا وهو عودتكما إلى الالتحام في جسد واحد هو جسدي. وهو ما أجده صعباً للغاية، هذا إن لم يكن مستحيلاً. فكما أن من الصعب على هذا الشعب أن يتوحد، كذلك أنتما. وأني لأرى محاولاتكما من أجل تحقيق هذه الغاية، واسمحا لي بالقول، مثل ضرطة في سوق الصفافير، كما يقول مثلنا الشعبي العراقي.

ولنفترض جدلاً أنكما عثرتما على الفصل المفقود من رواية الفيسكونت المشطور، الذي يحتوي على طريقة التحام النصفين في جسد واحد، وطبّقتماها، ما الذي سيحصل؟

أنا أقول لكما: لا شيء!

إذ سيبقى ذلك الوسم المعيب الذي يمتد من الرأس إلى فتحة الشرج علامة التشوه التي ستظل تميزكما إلى الأبد، والجرح الذي لا يندمل بمرور الزمن مهما نافقتما في المودة. وفضلاً عن ذلك، لا تأملا في أن يعود كل شيء إلى مكانه السابق، لأني سأبقى أعاني من تداعيات كثيرة وحالات نفسية وعصبية، ربما ستؤدي بي إلى الجنون في نهاية المطاف. لأني لن أعود أنا نفسي الذي كنت قبل الشطر.

كنت على وشك أن أكتب لكما نبذة تعريفية عني، اسمي وعنواني وحالتي الاجتماعية والثقافية، لكني كففت عن ذلك في اللحظة الأخيرة، بعد أن تخيّلت وجه أمي لحظة رؤية ابنها وقد انشطر إلى نصفين متساويين. ثم فكرت: كيف ستستأنفان حياتكما وأنتما على هذه

الشاكلة؟ ومن تكونا في النهاية؟ هل أنتما أنا؟ وإذا لم تكونا أنا فمن تكونا؟ وهل ستكون حياتكما حياتي أنا؟

حسناً، لا أريد أن أدخل في هذه الفلسفات المعقدة التي طالما أرقتني منذ أن قرأت الفيسكونت المشطور أول مرة. لكني أود أن ألفت انتباهكما إلى أمرين في غاية الأهمية، وهما أولا: صعوبة العودة إلى التحامكما في جسد واحد، لا أنكر أنه سيكون جسدي نفسه، لكني لا أضمن أن أكون تلك الـ«أنا» التي كنت عليها قبل عملية الشطر. والأمر الثاني: هو صعوبة تقديمكما من جديد على أنكما أنا، لأنكما الآن لستما أنا، إذ أن لكل واحد منكما الآن أناه، وعلى هذا الأساس سيصدع الناس رأسيكما بالسؤال عن أناكما الضائعة التي هي أنا.

أنا أيضاً لا أريد أن أسبب لكما الدوار بكل هذه «الأنات» ولا يسعني في هذه الأثناء سوى مواساة نفسي ومواساتكما. متمنياً لكما حظاً طيباً وعيشاً سهلاً.

ملاحظة: المرأة العمياء حارسة المكتبة ليست أمي!

المخلص لكما

«أنا»

«خراء!» جعد بوتاميا الرسالة بيده ووضعها في فمه وراح يلوكها، ثم قذفها باتجاه إحدى الزوايا المعتمة قائلاً بعلو صوته: «كل هذا خراء!»

وما كاد أن يتم قوله حتى فُتح الباب، ودخل عدد من الأشخاص «مجهولي الهوية» إلى الحبس. تحلقوا حول النصفين، تحت المصباح المتدلي من السقف، ودار بينهم حوار غامض ومقتضب لم يفهما منه شيئاً، عدا أنهما المعنيان به:

«هذان النصفان عنيدان»

«أين نرميهما هذه المرة؟»

«في البحر. ربما علينا رميهما في البحر، وهكذا نتخلص منهما إلى الأبد»

«لا جدوى من ذلك. سيعودان على ظهر أول حوت يرغب بالانتحار على السواحل العراقية»

لماذا لا نحرقهما؟»

«لن ينفع»

«سيتشوّهان فقط»

«نعم، ويتحولان إلى مسخين يروّعان خلق الله في كل مكان»

«يكفينا ما لدينا من تشوّه»

«إذن.. ما الحل برأيكم؟»

«ندعهما وشأنهما»

أخيراً اتفقت العصبة «مجهولة الهوية» على إطلاق سراح النصفين. وحدث ذلك نهاية شهر رمضان، في ليلة عيد الفطر. عصبوا عينيهما، ونقلوهما في سيارة مظللة، وألقوا بهما في مكان ما، اتضح بعد أن أزاحا العصابتين عن عينيهما أنه ساحة الحرية، التي بدت في تلك الساعة من الليل كمشهد يمثل الصمت الذي يعقب إلقاء القنبلة الذرية على مدينة مثل بغداد. لم يكن هنالك أثر لأحد سواهما، بالإضافة إلى صديقهما فؤاد سرحان الذي كان نائماً في برميله كالعادة. حتى الكلاب انسحبت إلى أمكنة بعيدة ومجهولة، وقد اختلط نباحها بشخير

الفيلسوف المجنون الذي بدأ يتقلّب، ثم صار يأنّ، ثم بدأ بالصراخ. فهرع إليه النصفان. وجداه خارج البرميل يرفس بقدميه ويتلوى على الأرض الساخنة، كما لو أن مناجل تحز أوردته في حينها، أو أمواس تنمّل تحت جلده. فقد اجتاحته نوبة الأنيميا لكن بقوة هذه المرة، إلى درجة أنه تشبّث بثياب النصفين، وراح يهزهما بعنف بينما هو يصرخ ويشكو الألم الذي كان يفتك به. اقترح بوتاميا أن ينقلانه إلى المستشفى، لكنهما عجزا من حمله، خصوصاً وهو في هذه الحالة، أشبه بدجاجة ذُبحت للتو، فيصعب السيطرة عليها. وبعد بلغ فيها فؤاد سرحان أعلى مستويات الألم، طلب ميزو من بوتاميا أن يحاول إيجاد سيارة في الجوار ينقلانه بها إلى أقرب مستشفى. ففعل الأخير ذلك، لكنه عاد بعد ساعة، وكان يائساً من جدوى العثور على مساعدة، وكأن بغداد أُخليت من سكانها في تلك الليلة، ليجد فؤاد سرحان ميتاً وعيناه جاحظتان نحو نصب الحرية. في حين جلس ميزو جانباً، وكان ينظر إلى يده كما لو أنه يقرأ طالعاً سيئاً. وعندما اقترب بوتاميا من جثة الفيلسوف المجنون ليتفقد نبضه، رأى آثار أصابع حول عنقه.

«قتلته؟! صاح ثم وضع يده على فمه كمن يحاول أن يمنع رغبة وشيكة بالتقيؤ: «قتلت الرجل؟!»

«لم أقتله» رد ميزو بنبرة قانطة وهو ينظر إلى الجثة بعين محمرة، مدماة كعين زنجي: «لقد أرحته!»

نظر بوتاميا حوله في كل الاتجاهات، ثم أمسك بيد ميزو وأنهضه بحركة سريعة وعنيفة، وغادرا ساحة الحرية مسرعين. راحا يتجولان في بغداد التي ما زالت تبدو وكأن طاعوناً من القرن السابع عشر ضربها،

إلى أن تعبا ولاذا بجوار أحد الجوامع الكثيرة هناك. جلسا صامتين، لا يكلم أحدهما الآخر أو ينظرا إلى بعضهما. وبينما هما كذلك، هبّت تلك الريح الدائرة حول نفسها كدوامة، تلك الزوابع الصغيرة المضحكة التي شاهداها من قبل مرات عديدة كان آخرها على الحدود العراقية الكويتية. «فسوة الواوي» كما تُسمى في الدارج الشعبي العراقي، التي تثير الغبار وتحمل الأوراق وأكياس النايلون، وتدوّر بها وترفعها ثلاثة أمتار أو أكثر ثم تقذف بها، فتتهادى كطائرات ورقية قُطعت خيوطها.

إحدى تلك الأعاصير الهوائية الصغيرة اقتربت من النصفين. وكما لو أنها تعمدت ذلك، توقفت أمامهما ثم تلاشت في لحظة واحدة، لتتكون من جديد في مكان آخر، وقد تركت وراءها النفايات الورقية التي كانت تحملها تهوى مثل طيور أصيبت بطلق ناري على النصفين وحولهما، فالتقط بوتاميا إحداها وراح يقرأ، لكن بينه وبين نفسه، من دون أن يُسمع نصفه الأيسر الذي كان يتكئ عليه:

(كان الفرجاران يرسمان دوائر على الأرض، وكان المبارزان يقذفان أحدهما الآخر، وهما يقومان بقفزات رشيقة وخشبية، كانا يقومان بصد الضربات ولكن دون أن يحتكا معاً. في الحقيقة، كان رأس السيف يبدو وكأنه ينقاد نحو معطف العدو المتطاير. كان كل منهما يجرؤ على أن يقي نفسه من اللا شيء، أي بالضبط من القسم الذي كان من المفترض أن يكون فيه هو نفسه. بالتأكيد، فلما كان الأمر متعلقاً بمبارزة بين شطرين فإن هذا الصراع سيكون داخلياً، ومن يدري كم عدد المرات التي جُرحا فيها. كان الغرامو يقاتل بضراوة وغضب، لكنه لم يستطع أبداً إيصال هجومه إلى الخصم، أما الطيب فقد كان يتسم بدقة محترف أعسر، لكنه لم يكن يصل إلا إلى معطف الفيسكونت.

وفي لحظة ما بدأ أحدهما بطعن الآخر، كان رأسا الفرجارين قد انغرسا في التراب وكأنهما مسحاة زراعية، لكن الغرامو استطاع تحرير نفسه قافزاً، واستعاد توازنه وراح يدور فوق التراب وتمكن من طعن العدو، طعنة رهيبة، لم تصب جسمه، ولكن تقريباً، بالضبط في المكان الذي كان قد شُطر منه جسم الطيب، في منطقة قريبة جداً لدرجة أننا لم ندرك أن كان قد أُصيب هنا أم هناك. لكننا سرعان ما تنبهنا إلى أن الجسم داخل المعطف قد امتلأ بالدماء من أعلى قمة الرأس وحتى القدمين. لم يكن أي شك في هذا، وبينما كان الطيب يهوي أرضاً استطاع بضربة سيف أخيرة أن يصيب الغرامو من رأسه حتى القدم، وبالضبط في نفس المنطقة التي شُطر منها، لذا فحتى جسم الغرامو كان قد امتلأ بالدماء. كانت الضربتان القاصمتان لكليهما قد مزقت شرايينهما، وفتحت الجرح الذي قسمهما فيما مضى، وها هما الآن منقلبين وقد امتزجت دماء الواحد منهما بدماء الآخر فوق التراب. وقد أُخذ الجميع بهذا المشهد الرهيب، لكني تنبهت إلى أن الدكتور تريلاوني كان يقفز فرحاً بقدمين تسبقهما قدما صرصار، وهو يصفق، ويصرخ: إنه حي، إنه حي، أتركوني فها قد حان وقت عملي.

بعد نصف ساعة، حملنا إلى القصر جريحاً واحداً فوق نقالة، ذلك أن الغرامو والطيب كانا قد ضُمّدا معاً، كان الدكتور قد قام بلصق أحشاء وأوردة هذا إلى أحشاء وأوردة الآخر، كان قد ضمد الجزأين بشاش طوله كيلو متراً واحداً، ولصق به الجزأين المشطورين لدرجة أنه لم يعد يتضح بأنه جريح، بل ميت قديم وقد حُقن بالبلسم.)

«هكذا إذن!» قال بوتاميا، وعندما سأله ميزو: «ما الامر؟» ناوله الورقة التي جلبها فساء ابن آوى:

«تفضل اقرأ»

بدأ ميزو يقرأ بلا مبالاة في البداية، لكنه حين أعاد القراءة في المرة الثانية بدا الاهتمام واضحاً في ملامحه التي تغيرت. قال:

«فلنفعلها إذن»

نفعل ماذا؟»

«نلصق أنفسنا»

«هكذا ببساطة؟» قال بوتاميا وتابع ببرود يشبه اليأس: «علينا أن نفعل شيئاً قبل ذلك»

«هل تعني الطبيب؟ سنأتي بطبيب، دع الأمر لي»

«ليس هذا ما أعنيه»

«إذن، ماذا تعني؟»

«يجب أن نتقاتل!»

في حينها، أدرك النصفان فداحة الثمن الذي يجب أن يدفعانه من أجل الالتحام. أن يتقاتلا كما فعل نصفا الفيسكونت ميداردو دي ترّالبا.

«هل نفعلها؟» سأل ميزو.

«لا أعرف» رد بوتاميا: «أحياناً، الوحدة تحتاج إلى سفك الدماء. لكني لا أضمن أنك لن تقتلني في النهاية، فأنت قاتل، قتلت ذلك الرجل، ولا يمكن أن أعود لألتحم بك مجدداً»

«وماذا عنك؟» رد ميزو: «ألم تسرقه؟»

كادا أن يتشاجرا، وقد كشّر كل نصف منهما أسنانه وراح يهرّ بوجه الآخر. إلا أن ديكاً صاح على مقربة منهما وأسكتهما.

وكما لو أنهما اتفقا على ذلك لتلافي الصَدام، لم يعد النصفان إلى الحديث بشأن التصاقهما حسب الكاتالوج المقترح من كالفينو في روايته، وخلدا إلى النوم. كان فساء ابن آوى قد غادر المكان، والساعة اقترب من الفجر.

فجر العيد.

(٧)

يجتمع المسلمون في العراق، من الطائفتين، طوال أيام شهر رمضان. يتبادلون الزيارات، وأطباق الحلوى، والهريس، والمعجنات. لكنهم يتفرقون في الليلة الأخيرة من الشهر. عندما يشتد الخلاف على رؤية الهلال من عدمه. الهلال الذي سيطلق صافرته في النهاية، معلناً عن بدء العيد.

في تلك الليلة الأخيرة حدث أن انقضى وقت الغروب، ولم ير أحد الهلال.

فؤاد سرحان الوحيد، المقطوع من شجرة، هو الآخر لم يرَ الهلال، ولم يكن ليأبه سواء ظهر أم لم يظهر. لكنه، ويحدث ذلك رغماً عنه، كان يشعر بملايين كريات الدم الحمراء وهي تغيّر شكلها، وتتصلّب، وتتقوس، وتلتصق بجدار الأوعية الدموية، وتغدو لزجة. فيشعر حينها كما لو أن جميع الأهلّة منذ نشوء الإسلام، اجتمعت في دمه تلك الليلة، وراحت تنحر أوردته بنصالها الحادة.

كل كرية دم كوّنت هلالاً، مما يعني ملايين الأهِلَّة التي شرعت بقطع الأوكسجين ومنعته من أن يصل إلى أعضاء الفيلسوف المجنون الذي بدأ رحلته الأخيرة مع الألم المبرح، القاتل، قبل أن يأتي النصف الأيسر ويخمده له بيده التي أطبقها على عنقه في تلك الليلة وأراده قتيلاً

تحت ذريعة إراحته من الألـم. فاجتمع بعض الأهالي من الطرفين، وصلوا جماعة على جثمانه في صباح اليوم التالي، يوم العيد.

هكذا فرقهم هلال الرب، وجمعتهم أهِلّة الألم.

كان النصفان لا يزالان نائمين على الرصيف حين مرّت جنازة الفيلسوف المجنون من أمامهما. فأيقظتهما أصوات التهليل والتكبير التي كان يرددها المشيعون من كلا الطرفين وراء الجنازة. فسأل النصفان أحد أولئك المشيعين، بينما هما يفركان عيناهما، عن المتوفى. فقيل لهما أن اسمه فؤاد سرحان. أجفلا من الخبر. وعلى الفور لحقا بموكب المشيعين الذي انتهى إلى ذلك الجامع، الذي لاذا بجواره في الليلة الماضية، ليُصلى عليه قبل أن يُنقل إلى المقبرة. وما أن انتهت الصلاة، حتى تفرق الحشد من جديد وانقسم إلى طرفين، إلى فريقين، طائفتين، وكل طرف سلك طريقاً مختلفاً، معاكساً لا يفضي إلى الآخر.

النصفان هما الآخران تفرقا، انفصلا عن بعضهما، وتبع كل واحد منهما طائفة، من دون أن يتوادعان، أو يقول أحدهما للآخر شيئاً، كأنهما غريبان، لا يعرفان بعضهما.

حتى أنهما لم يلتفتا.

الفهرس

تمت

23/8/2017

هذا الكتاب

هذه ليست مجرد محاكاة فنطازية أسقطها الكاتب على الوضع العراقي، بل هي «أنا» الراوي المشطور التي أغفلها كالفينو في روايته، واستدعاها الكاتب هنا ليروي من خلالها، باللا منطقي واللا معقول، قصة الواقع العراقي بعد ٢٠٠٣، بطريقة لا تخلو من السخرية والتهكم والدعابة المريرة، الإثارة، العبثية في الأدب، والتنويع الفنطازي على ثيمة التاريخ بحسب ميلان كونديرا. التاريخ القريب الذي يبدو حتى الآن، بسبب صعوبة هضمه، مثل سمكة نيئة في الحلق. محاولاً بذلك الكشف، بأسلوب السرد الغرائبي، عن حقائق معنية بقضايا أساسية، سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية، ما تزال غائبة عن الإعلام المرئي والمسموع، ذلك أن مثل هذه الحقائق لا يمكن أن تقولها سوى الرواية.

رسمة الغلاف: سالمة صالح

ISBN 978-9933353674
9 789933 353674

